الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة جيلالي ليابس/ سيدي بلعباس

كلية الآداب واللغات والفنون

قسم: اللغة العربية وآدابها

استراتيجيات الخطاب الإقناعي في بخلاء الجاحظ

رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في الأدب العربي

تخصص: نظريّة الأدب والمناهج النقديّة المعاصرة

إعداد الطالب:

– غالم عبد الصمد

إشراف الدكتور:

– بوجمعة عمارة

لجنة المناقشة

أ.د محمد بلوحي	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	رئيسا
د. عمارة بوجمعة	أستاذ محاضر–أ–	جامعة سيدي بلعباس	مشرفا ومقررا
أ.د.سعيد عكاشة	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
د. ولهاصي نجيدة	أستاذة محاضرة –أ–	جامعة سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
د. عبيد نصر الدين	أستاذ محاضر–أ–	جامعة سعيدة	عضوا مناقشا
د.دردار البشير	أستاذ محاضر –أ–	م.ج.تيسمسيلت	عضوا مناقشا

السنة الجامعية 2016–2017

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر

أتوجه بالشكر:

أولا إلى أستاذي المشرف : الأستاذ الدكتور " **عمارة بوجمعة** " الذي لولاه لما أنجزت البحث بهذه الحلّة، إذ كان محبا لنا، صبورا علينا، حريصا على العمل المتقن.

لك أستاذي أسمى آيات الشكر والثناء.

وأتقدم بعظيم امتناني وجزيل شكري **للجنة الموقرة** التي تجشمت عناء قراءة هذا البحث وإثرائه.

كمّا أشكر الأساتذة الذين تشرفت بأخذ العلم عنهم، وأذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

أ.د حبيب مونسي – أ.د بلوحي محمد – أ.د طيبي آمنة - أ.د سعيد عكاشة - د. عبد القادر قندسي -د. برادي بغداد -د. غروسي قادة - د. مسيردي مصطفى - د.غربي مصطفى - د.جريو - د. عشابي عبد القادر - د. تيرس هشام - د. منبوحي عبد القادر - د. مبارك عبد القادر- د. حمودي محمد .

إهـــداء

إلى والديّ الكريمين أطال الله في عمرهما.

إلى زوجتي التي تحملت معي عناء البحث.

إلى ابنتيّ العزيزتين: هناء وإيمان.

إلى كل أفراد العائلة.

مقدمة

مقدمة

عرفت البلاغة الإنسانيّة منذ نشأتها اهتماما بفن الإقناع ثم تراجع الاهتمام بذلك مع سيطرة البلاغة المعيارية ذات الغاية التعليميّة التي اهتمت بأدوات الفصاحة والبلاغة التي تساعد المبدع على الكتابة الفنيّة .

ومع تطور الدرس اللغوي في منتصف القرن العشرين أصبحت البلاغة في ثوب جديد،فلم تعد مرتبطة بجماليات الأسلوب فقط،بل اهتمت بالآثار الفعلية للخطاب،وانفتحت على الأبعاد التداوليّة للملفوظات، وعادت لتعيد الاعتبار للمقصدية الحجاجيّة، ومنحت محللي الخطاب إمكانات كثيرة لفهم بنيات الخطاب،والوقوف على وظيفته السياقية، وكشف مجمل الاستراتيجيات التي يستعملها المتكلم من أجل إقناع المخاطَب . ويعود الفضل في تبلور هذا الاتجاه الحجاجي إلى كل من بيرلمان Perelmanl وتيتيكا Tyteka اللذين اهتما بالآليات والتقنيات البلاغيّة والمنطقيّة التي تروم إقناع المتلقي، فلم يعد للصورة البلاغية غاية إمتاعيّة فقط،بل صارت ذات طبيعة حجاجية بامتياز .

كما ساهمت التداولية المدمجة في تسليط الضوء على الحجاج اللغوي الذي ينطلق من تصور يعتبر كل خطاب يستعمل اللغة الطبيعيّة خطابا حجاجيا، فالروابط والعوامل اللغوية التي يتضمنها الكلام تؤسس للاستدلال الحجاجي الذي يوجه الملفوظ نحونتيجة مقصودة، والنصوص الأدبية ليست في بناها سوى أفعالا كلامية تهدف إلى تغيير وضع المتلقي .

دفعت هذه الثورة المعرفية النقاد العرب لإعادة قراءة التراث الأدبي من جديد، خاصة ما تعلق منه بالسرد العربي القديم، فاستُثمِرت الآليات والأدوات الإجرائية الجديدة التي أفرزتها المدارس النقدية المعاصرة في فهم بنية هذه النصوص، وكشف نظامها المعرفي ونسقها الثقافي، وكانت الآثار الأدبية

للجاحظ من أهم النصوص التي أغرتهم للبحث باعتبارها محطة حاسمة في مراحل التأسيس للنثر العربيّ.

قرئ السرد عند الجاحظ قراءات كثيرة من زوايا عديدة، وما زال موضوعا مثيرا للبحث يدفع الباحثين لاستثمار آليات المناهج النقدية التي تزامن ظهورها مع وقوع البنيوية في مآزق عجزها عن الكشف عن مقاصد النصوص، ومن أهم هذه المحاولات تلك الاتجاهات النقدية التي تأثرت بالنموذج التداولي الذي اهتمّ بمستوى الاستعمال اللغوي وعلاقته بمنتج الخطاب وخططه الخطابية، وهكذا وضعت نصوص الجاحظ في نسق وظيفتها التواصليّة الوظيفيّة .

إنّ نوادر الجاحظ ورسائله هي خطابات مُوجهَّة تسعى للتأثير في المتلقي بتدعيم أو تغيير معتقداته وقناعاته، فدرجة الحجاجية فيها كبيرة، ولا يمكن النظر إلى هذه النصوص إلاّ باعتبارها تزاوج بين الوظيفة التخييلية والوظيفة التداولية .

ولذلك تنطلق هذه الدراسة من منح الأولوية للوظيفة الحجاجية في مثل هذه الخطابات التي تؤسس لمنظومة القيم في المجتمع .

1- اختيار موضوع الرسالة :

لم تخلو آثار الجاحظ من حضور السرد،ولكنّه رغم ذلك لم يلق اهتماما كبيرا،فظلّت معظم البحوث مُنصبّة على مشروعه البلاغي،لذلك كان لا بدّ أن نقف على كتاب " البخلاء" باعتباره مؤلفا أدبيا يعكس مهارة الجاحظ الأسلوبية وميوله الحجاجية، وانطلاقا من ذلك وسمت الرسالة بـ **"استراتيجيات الخطاب الإقناعي في بخلاء الجاحظ "** .

وما حفّزني على اختيار هذا الموضوع هو استثمار السرد الجاحظي لمكوني الحجاج والتصوير، فنصوصه تجمع بين المكونات السردية الجمالية والوظيفة الإقناعية، كما أنّها تظهر تجربته في العالم الذي عاش فيه وموقفه من الحياة التي ميّزت عصره .

وقد اصطفيت كتاب البخلاء لأنه من أكبر الآثار الأدبية التي أبقت الأيام عليها من ميراث الجاحظ،ولاعتماده على بلاغة مخصوصة قائمة على أسلوب الهزل الذي جعل من البخل موضوعا أدبيا خالصا ومتعة فنية رائعة لا يمكن فصلها عن البلاغة الحجاجية .

2- إشكالية البحث

يقارب هذا البحث إشكالية السرد عند الجاحظ من منظور حجاجي، ويحاول ملامسة ذلك من خلال أسئلة جوهرية أهمها :

- ما علاقة البلاغة بالسرد ؟
- كيف يساهم أسلوب الهزل في بناء الخطاب ؟
- هل يمكن مقاربة نوادر الجاحظ وأخباره حجاجيا ؟
- ما مدى قدرة المفاهيم التداولية على دراسة مقصدية الخطاب ؟
- ما الرسالة التي يحملها النص السردي عند الجاحظ؟
- ما هي أهم الاستراتيجيات الحجاجية التي انبنى عليها الخطاب عند الجاحظ في "البخلاء" ؟

3- خطة البحث:

وللإجابة عن القضايا التي طرحتها قسمت البحث إلى ثلاثة فصول تسبقها مقدمة وتعقبها خاتمة .

خصصت الفصل الأول للحديث عن الخطاب : المفهوم والاستراتيجيات، فوقفت على تعريف الخطاب وركزّت على تعدد المجالات التي يستخدم فيها، وأشرت إلى ارتباط هذا المصطلح بالدراسات التي اهتمت بما يتجاوز الجملة، ثم انتقلت إلى التداخل الحاصل بين الخطاب والنصّ وتطرقت لدور الوظيفة التواصلية في التمييز بينهما،فالإنتاج اللغوي لا تشكله البنيات النسقية فقط بل تحكمه أيضا الظروف المقامية ، ولذلك عرّجت إلى أهمية السياق في بناء الملفوظات.

ولا يمكن فهم ملابسات وظروف إنجاز الخطاب إلّا باستثمار المقاربة التداولية،و هذا ما دفعني إلى رصد دور المفاهيم التداولية في تحديد المقصدية وتفعيل الفعل الحجاجي، فلم تعد النظرة لبنية الخطاب نظرة صورية بل نظرة قائمة على فهم علاقة هذه البنية بوظيفة الخطاب، وأدى هذا الاهتمام إلى ظهور نظريات جديدة تحاول إضفاء الشرعية على هذا الترابط، وتعتبر نظرية أفعال الكلام من أهم هذه النظريات،ولم يفتني في هذا الفصل التعريف بالإستراتيجية الخطابية ومعايير تصنيفها وأهم أنواعها.

في حين وسمت الفصل الثاني بعنوان : الحجاج مقاربة نظرية، فقدمت فيه ماهية الحجاج، ثم تتبعت مسار البحث الحجاجي في الثقافة الغربية،فانطلقت من المشروع الحجاجي الأرسطي الذي اهتمّ بالخطابة وتصدّى للمغالطات السوفسطائية، وسعى لكشف الحجج والأدلة الخطابية المؤدية لإيقاع التصديق في النفوس، ثمّ انتقلت إلى الرواد المحدثين الذي بعثوا المفاهيم الأرسطية من جديد،فتطرقت لإسهامات بيرلمان في إعادة الاعتبار للخطاب الحجاجي، وعرّجت على أهمية المقدمات الحجاجية ومختلف التقنيات الخطابية التي تجعل عقول الجمهور تذعن لما يطرح عليها،ثمّ تناولنا المنحى الجديد الذي أسس له اللغوي الفرنسي ديكرو الذي دعا في مشروعه إلى ضرورة تخليص بلاغة الإقناع من الفلسفة والمنطق منطلقا من أنّ الحجاج نظرية لسانية خالصة، لذلك ربط البنية الداخلية للغة بالنشاط الحجاجي، وأدى اهتمامه بالأبحاث التداولية إلى تحديد الجوانب الحجاجية للنسق اللغوي، وإبراز أهمية السلم الحجاجي في ترتيب الأقوال، وإظهار دور الروابط والعوامل الحجاجية في توجيه الخطاب الذي يستعمل اللغة الطبيعية .

ولم يفتني الإشارة إلى إسهامات ميشال مايير الذي ربط الحجاج بنظرية المساءلة،فالسؤال الحجاجي هو أساس كل نشاط حجاجي، وما الإستراتيجية الإقناعية سوى تقريب للمسافة التي تبعد أطراف الخطاب .

ثمّ رصدت في مخرج هذا الفصل أهم الإسهامات العربية في النظرية الحجاجية، فشكلّت بلاغة الجاحظ المقامية أساسا خصبا لبلاغة الإقناع في التراث العربي، وظهر في عصرنا اهتماما بهذه البلاغة على يد ثلة من البلاغيين كمحمد العمري الذي تأثر في أعماله النقدية بالبلاغة الجديدة، وطه عبد الرحمن الذي اهتمّ بالعلاقة الاستدلالية التي ينبني عليها الخطاب الحجاجي، وأبوبكر العزاوي المتأثر بنظرية الحجاج اللساني .

وأما الفصل الثالث التطبيقي فجاء موسوما بـ " تجليات الخطاب الإقناعي في بخلاء الجاحظ"، وقفت فيه على مكوني الحجاج والسرد في بخلاء الجاحظ، ثم عرضت أهم الآليات والتقنيات التي قام عليها الخطاب الإقناعي في هذه المدونة، واقتصرت على الأدوات اللغوية والأدوات البلاغية وخصصت مبحثا لآلية السخرية وكشفت عن أبعادها الحجاجية في الخطاب ولم أهمل أنواع الحجاج المغالط المستعمل من طرف البخلاء .

وفي الأخير خلصت إلى خاتمة توجز أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث .

4- الدراسات السابقة :

استأنست في إنجاز البحث على مجموعة من الكتب الهامة، ونذكر منها ما اهتمّ بنوادر الجاحظ وأخباره ككتاب بلاغة النادرة لمحمد مشبال وكتاب بلاغة النادرة لسليمان الطالي، كما استفدت من البحوث التي اهتمت بالخطاب الحجاجي، وعلى رأسها المؤلَّف الذي أشرف عليه حمّادي صمّود: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، والكتاب القيّم الذي ألّفه حسن المودن في بلاغة الخطاب الإقناعي، فضلا عن كتب محمد مشبال ونذكر منها البلاغة والسرد،جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، والحجاج والتأويل في النصّ السردي عند الجاحظ، وحاولت في هذا البحث أن أستفيد مما أنجز حول التداوليّة تنظيرا وتطبيقا ،فاطّلعت على كتاب

التداولية عند العلماء العرب لمسعود صحراوي، وكتاب التداولية: أصولها وامتداداتها لجواد خاتم، بالإضافة إلى المؤلف الهام المعنون باستراتيجيات الخطاب لعبد الهادي بن ظافر الشهري .

5- المنهج:

يروم هذا البحث الكشف عن الآليات الإقناعية التي تنطوي عليها نصوص الجاحظ في هذه المدوّنة، لذلك تبنيت في هذه الرسالة منهجا تاريخيا وصفيا لاستعراض أهم المفاهيم المتعلقة بالحجاج وتحليل الخطاب، واعتمدت في الفصل التطبيقي على إجراءات المقاربة التداولية، واستثمرت بلاغة الحجاج ومنظومته الاصطلاحية للإحاطة بمكونات وخصائص الإستراتيجية الإقناعية المميزة لهذه المدوّنة المدروسة.

6- صعوبات البحث:

واجهت طريق البحث بعض الصعوبات كقلة المصادر العربية التي اهتمت بحجاجية السخرية،بالإضافة إلى حداثة المباحث الحجاجية التي ما زالت في مرحلة التأسيس والتشكل، فضلا عن تداخل الحقل الحجاجي مع المجالات المعرفية الأخرى كالمنطق والفلسفة والبلاغة. لكن هذه الصعوبات لم تثني عن إنجاز البحث بل زادتني عزيمة لمواصلة المشوار .

7- أهداف البحث

أسعى في هذا البحث إلى الكشف عما تختزنه المدونة المدروسة من مكونات حجاجية، بحيث تجاوزت في النظر إليها القراءة الجمالية التي تتجاهل الإستراتيجية الإقناعية الكامنة في الخطابات.

كما حاولت أن أستثمر إجراءات البحث التداولي للوقوف على قصدية الخطاب، وتأرجحه بين التصوير والحجاج،وهي ميزة تحدد علاقة البلاغة والسرد عند الجاحظ الذي يتسع ليشمل صور الحياة أو العالم الإنساني .

ومن الأفكار التي حاولت الوقوف عندها هي الخطط الخطابية الحجاجية التي استعانت بها المدونة المدروسة للتأثير على القارئ وحمله للإذعان، فركزت على إبراز مقصدية النوادر وحجاجيتها والوظائف التداولية التي تضطلع بها .

وسيحاول هذا البحث الوقوف عند تقاطع صيغتان خطابيتان مختلفتان هما: السرد والحجاج، فإذا كانت السردية تعتمد على إيراد الأحداث والوصف والحوار فإنّ الحجاج يعتمد على الاستدلال واستثمار العناصر السياقية للتأثير على المتلقين، وهنا أسعى إلى إظهار التواشج الحاصل بين هذين الصيغتين الحاضرتين في خطاب الجاحظ الذي لا يمكن أن نقرأه إلّا باعتباره فعلا تواصليا تؤطره الأبعاد التداولية المحيطة بالخطاب.

إن هذه التصور المنهجي ينطلق من محاولة فهم دور العناصر والمكونات السردية لنوادر المدونة المدروسة في إيقاع التصديق لدى المخاطَبين، وهذا ما دفعني لمحاولة فهم دور الحجاج السردي عند الجاحظ في تحصين المجتمع والمنظومة الأخلاقية القائمة على مجموعة من القيم كقيم السخاء والكرم التي صارت مهدّدة في العصر العباسي. كما يقف البحث عن الاختيارات الأسلوبية للجاحظ في مدونة البخلاء التي تتناسب مع أهدافه الحجاجية .

لم يكن هذا العمل لينجز على الهيئة التي هو عليها لولا ما لقيته من الأستاذ المشرف الدكتور عمارة بوجمعة، من تشجيع وتوجيه ورعاية، فقد أعانني على تجاوز ما اعترضني من صعوبات، ومنحني جوا علميّا مناسبا للبحث، فله أوجه فائق الشكر والاحترام والتقدير الصادق وأسمى آيات الثناء والعرفان.

ولا أنسى أن أتقدم بعظيم امتناني وجزيل شكري للجنة الموقرة التي تجشمت عناء قراءة هذا البحث وإثرائه .

الطالب غالم عبد الصمد

مستغانم 2017/01/25

الفصل الأول: الخطاب: المفهوم والاستراتيجيات

- أولا: مفهوم الخطاب.
- ثانيا:التداولية والخطاب.
- ثالثا: ماهية استراتيجيات الخطاب وأنواعها .

أولا : مفهوم الخطاب

1-الخطاب من المنظور الغربي

يعتبر الخطاب من المصطلحات الأكثر تداولا بين الدّارسين ،وتزامن الاهتمام به مع الثورة المعرفية التي عرفتها علوم اللغة ، فلم يعد الخطاب خاضعا لصرامة أنساق اللغة بل صار محاولة لإعادة تشكيل هذه الأنساق وفق سياق التخاطب ، ولذلك كانت الملابسات والظروف الخارجية أهم عامل يشحذ هذا التفاعل الخطابيّ .

إن مفهوم الخطاب يدخل ضمن تواتر تقابلي شائع: لغة / خطاب. " اللغة تقدم على أنّها مجموعة كاملة، نسبيا قارة العناصر، بينما يفهم الخطاب على أنّه الموضع الذي تمارس فيه الإبداعية، موضع السياقيّة الطارئة التي تمنح قيما جديدة لوحدات اللغة "[1]

إن هذه الرؤية تنطلق من ربط الخطاب بالحيثيات الاجتماعيّة والثقافيّة وبالممارسة الوظيفيّة للغة ضمن شروط تلفظيّة معيّنة، ولهذا لا يمكن اعتبار الخطاب بنية لغويّة تخضع لقواعد معياريّة في التشكيل، إنما هو حصيلة تفاعل اللغة مع سياق التواصل .

يرتبط الخطاب بالدراسة اللسانيّة لظروف إنتاج النص ، فهو إذن " إنتاج لعبارات لغويّة يكون في مجموعه وحدة تواصليّة، ونقصد بالوحدة التواصليّة أن يكون للعبارات اللغويّة المنتجة في مقام معين موضوع معين وغرض تواصليّ معين "[2].

[1] –Maingneau, Initiation aux méthodes de l'analyse de discours, Hachette université, Paris, 1976, p16.

[2]– أحمد المتوكل ، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، الرباط ، 2001 ، ص 79.

إنّ أهم ما يميز الخطاب ليس نوع العبارات اللغويّة ، ولا حجمها ولا عددها إنما اعتباره وحدة التواصل، وبهذا المعنى يمكن أن نقول: إنّ القصة خطاب والمقالة خطاب والمسرحية خطاب والإشهار خطاب ، وكلّ حوار حول موضوع ما خطاب إلى غير ذلك .

يحتكم الخطاب – منطوقا كان أو مكتوبا –إلى المستويات التي يتألف منها النصّ أو الملفوظ وهي منافذ للتحليل اللغوي ، وتتعامل جميعها مع المقاطع فوق الجمليّة ، وبهذا صار "مصطلح الخطاب يستعمل في طرائق مختلفة ليدلّ على أيّ شيء يقع خارج الجملة سواء أكان كتابة أم محادثة"[1].

إنّ هذا التصور المنهجي يفترض حصول تنظيم يتجاوز الجملة ، وهذا يعني أنّ الخطاب لا يرتكز على معيار الكمّ اللفظي فقط،ولكن يعتمد على بنيات من نوع غير نوع الجملة ، ولا يتجلى ذلك " في الوحدات الصغرى ، وإنما في الأبنية الكليّة النصية "[2].

تقوم اللسانيات الخطابيّة على فرضية إمكانية صياغة قواعد تتعلق بتسلسل الجمل . ذلك أنّ الخطاب يتأسس في جوهره على أشكال الانسجام والاتساق ، فالملفوظات تتقاسم فيه المقتضيات نفسها ،كما هو الحال في مقطع السؤال الآتي :

- ما هي آخر رواية قرأتها ؟
- رواية "فوضى الحواس " لأحلام مستغانمي .
- سأذهب إلى المستشفى .

يؤلف المقطع 1+2 خطابا بينما لا يؤلف المقطع 1+3 خطابا نظرا لوجود قطيعة تعيق استمرارية الخطاب .

[1]– منقور عبد الجليل ، النص والتأويل، ديوان المطبوعات الجامعة ، 2010، ص 30.
[2]– صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة ، 1992، ص 07.

وتجدر الإشارة إلى تأخر المباحث اللسانية الحديثة في الاهتمام بالخطاب لانشغالها فترة زمنيّة طويلة بالمستويات اللغويّة الصغرى مثل الجملة أو الكلمة أو ما دونهما ، ولكن سرعان ما استدركت المدارس اللسانيّة اللاحقة هذا النقص ،حيث عرفت " تطورا تدريجيا من النظر في الجملة وأبنيتها المجردة إلى العناية بدلالتها واستعمالاتها تداوليّا وصولا إلى النظر في مفهوم الخطاب خلال السنوات القليلة المنصرمة "[1] وساهمت هذه الدراسات في الانفتاح على كلّ أشكال الإنتاج اللغويّ ، وهيأت الميدان لتبلور ما يسمى اليوم بتحليل الخطاب .

استثمرت أهم تعريفات الخطاب ما أنجزته اللسانيّات وفروعها المختلفة ،وتعتبر الأفكار اللسانيّة العلميّة التي جاء بها دي سوسير المرحلة الحاسمة في هذا التحول المعرفيّ ، فإليه يعود الفضل إلى التمييز بين مجموعة الثنائيات التي تشكل النظام اللسانيّ، ومن أهمها ثنائية لسان / كلام .

" إن التمييز بين اللسان من حيث هو ظاهرة اجتماعيّة بمعزل عن إرادة الفرد المتكلم والكلام من حيث هو عمل فرديّ يمارس فيه المتكلم قدرته التعبيريّة للاتصال بالآخرين يطرح تمييزا بين الحدث الاجتماعيّ والحدث الفرديّ "[2] فالكلام عمل فرديّ ، نابع عن إرادة وذكاء ولكنه رغم ذلك هو تطبيق واستعمال للوسائل والأدوات الصوتيّة ، والتركيبيّة والمعجميّة التي يوفرها اللسان .

وتأثر إميل بنفنست بهذا الفصل المنهجي ، فقابل بين اللسان بوصفه نسقا من العلامات ، والخطاب بوصفه إنتاجا للمرسلات ، فالخطاب إذا قريب من " الكلام أو التلفظ وهو يحيل داخل اللسان إلى كل ما لا يمكن تحديده خارج مستوى استعمال الفاعل المتكلم لهذا اللسان "[3].

[1]- كورنيليا فون راد صكوحي ، لسانيات النص أو: "لسانيات ما بعد الجملة وما بعد الخطاب ،ضمن الكتاب الجماعي : مقالات في تحليل الخطاب، تقديم حمادي صمود ،كلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة ،وحدة البحث في تحليل الخطاب، 2008 ، ص 49.

[2]- أحمد حساني ، مباحث في اللسانيات ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1994، ص 39.

[3]- ماري نوال غاري بريور، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، تر: عبد القادر فهيم الشيباني ،ط1، 2007، ص 49.

ولا يهمل التصور السابق البعد الإجتماعيّ، فمستعملي اللغة ينجزون الخطاب لتبليغ رغباتهم وآرائهم ، فاللسان طبقا لتعريفه بأنه نسق يميز مجموعة لسانية "يقابل الخطاب باعتباره استعمالا محدودا لهذا النسق "[1].

وإذا كان الخطاب يظهر في الاستعمال الفرديّ للغة، فإن ذلك يجعل عملية التخاطب خاضعة لمبدأ المقصدية، فالأداء اللغوي فعل واع صادر من المتكلم وموجه للتأثير في المتلقي ،ولا يمكن فهم الإستراتيجيّة الخطابيّة التي يتبعها المرسل في بناء رسالته اللغوية إلّا بإدراجها ضمن مساهمتها في تأدية الوظيفة التي تسند للخطاب ،فمدار الأمر على استحضار المتلقي في كل إنتاج لغوي .

يتحدد مستوى الخطاب بناء على مستويات المتلقين " فكلما نزع الخطاب إلى التخصص كلما كان ارتكازه على نسق التناص وتقاطع المراجع ، مع كثرة الإشارات والتلميحات الموجزة للخطاب، بينما إذا انتفى التخصص كان ارتكاز الخطاب على نسق اللغة ، ومع ذلك يبقى الخطاب في الحالتين كلتيهما يحتفظ بأدنى مقومات التواصل والإبلاغ "[2]، ويمكن القول : إنّ الخطاب، من هذا المنظور ، وحدة تواصليّة .

2-الخطاب من المنظور العربي

إنّ الخطاب من المصطلحات التي شاع استعمالها في حقل الدراسات اللغويّة والأدبيّة ،ورغم قدم جذور هذه الكلمة في الثقافة العربية إلا أنه مفهوم متجدد، فقد صار اليوم نوع من الترجمة لمصطلح Discourse في الإنجليزية أو نظيره Discours في الفرنسية .

[1]- باتريك شارودو ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري وحمادي صمود ، المركز الثقافي للترجمة تونس، دار سيناترا، 2008 ، ص 181.

[2]- منقور عبد الجليل، النص والتأويل، ص ص 34-35.

يرتد مصطلح الخطاب في العرف اللغوي العام إلى عدة معان، فقد ورد في عدة مواضع في القرآن الكريم وبصيغ متعددة، من ضمنها صيغة الفعل ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾[1].

كما ورد بصيغة المصدر في قوله تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاه الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[2] واعتبر الزمخشري أن معنى فصل الخطاب "الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاسد والصواب والخاطئ وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمنشورات "[3] وتعكس هذه الكفاية اللغوية امتلاك المتكلم لناصية اللغة وقدرته على التعبير عن كلّ ما يخطر بباله داخل مقامات ووضعيات تخاطبية مختلفة ، وهذا ما يضمن نجاعة الخطاب .

ولا يمكن فهم هذه الملكة إلا بالأخذ بعين الاعتبار بأن القدرات اللغويّة متفاوتة من متكلم لآخر ، فهم لا يملكون الكفاءات نفسها في التعبير عن أفكارهم .

حاولت المعاجم العربية القديمة تحديد دلالة الخطاب، واعتبر مادة لغويّة بصيغة المصدر، مأخوذة من الفعل الثلاثي (خَطَبَ)، ومن الجذر نفسه اشتقت مادة (الخَطابة) و(الخُطبة) ويراد بها الجنس الأدبي النثري القائم على المشافهة الذي يسعى لإقناع السامعين بفكرة أو رأي ما .

اعتبر ابن منظور أنّ "الخِطاب والمُخاطبة: مُراجعة الكلام، وقد خاطَبَه بالكلام مُخاطبة وخِطابا وهما يتخاطبان." [4]

فالخطاب هنا يستدعي حضور عناصر التواصل الثلاث: المرسل، المرسل إليه، والرسالة.

---

[1]- سورة هود، الآية 37.

[2]- سورة ص، الآية 20.

[3]- الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار المعرفة بيروت لبنان ، ط3 ، 2009 ، ص 921.

[4]- ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1955، مج01، مادة خطب، ص 361 .

إنّ ما قدمه محلّلي الخطاب من تصورات منهجيّة وأدوات إجرائيّة يلتقي في جوهره مع أبحاث الأصوليون الذي ربطوا الخطاب بأبعاده التداولية، ولم يهملوا ملابسات وظروف الموقف التواصليّ ، وركزّوا على أهمية الأركان الثلاثة التالية :" مخاطِب يأخذ مبادرة الحديث ، ومخاطَب يكون له تأثير في اختيار المخاطِب ألفاظه وتعابيره وأسلوبه ، وظروف جرت فيها عملية الخطاب مما يؤدي إلى نجاحه أو فشله "[1].

كمّا اهتم البلاغيون العرب منذ القدم بالخطاب واعتبروه قائما على ثلاثة أركان هي [2]:

- لفظ مركب تركيبا تاما.
- استعمال متكلم ما لهذا اللفظ.
- علة باعثة على هذا الاستعمال.

أمّا النقاد فاعتمدوا على هذه الأركان في تحليلهم للخطاب، فاهتموا بدلالة التراكيب النحويّة وميزّوا بين خواص التراكيب واختبروا مطابقة الكلام لمقتضى الحال وعدّوا كل قول خاضع لهذا المعيار قولا بليغا وهذا ما تدعو إليه الاتجاهات التداوليّة المعاصرة.

اتسع مفهوم الخطاب ليشمل كل تلفظ يفترض متحدثا ومستمعا، تكون للطرف الأول نية التأثير في الطرف الثاني، فيوظف كلّ الوسائل والآليات المتاحة، وتأثّر طه عبد الرحمن بهذا التصور،

[1]- محمد مفتاح ، دينامية النص تنظير وإنجاز ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2، 1990، ص 196.

[2]- بسمة بلحاج رحومة الشكيلي، قراءة في بنية التفكير البلاغيّ العربيّ انطلاقا من مفهوم الخطاب، ضمن الكتاب الجماعي : مقالات في تحليل الخطاب، تقديم حمادي صمود ، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة، وحدة البحث في تحليل الخطاب، 2008 ،. ص 46.

فاعتبر أن المنطوق به "الذي يستحق أن يكون خطابا هو الذي يقوم بتمام المقتضيات التعامليّة الواجبة في حق ما يسمى بالحجاج "[1].

فكلّما وقفنا على لفظ الخطاب ، وجدناه قائما على علاقة تخاطبيّة بين جانبين فأكثر، يسعى كلّ مخاطِب فيه إلى التأثير في المخاطَب واستمالته بكل الأشكال الممكنة .

3-الخطاب والنّصّ

تداخل مفهوم الخطاب في الدراسات اللسانية والنقدية الحديثة والمعاصرة مع مجموعة من المصطلحات ، ولعل من أهمها النّصّ ، ولم يحسم أمر التشابك بين هذين المصطلحين ، فبعض الدراسات استعملت مصطلح النصّ وهي تقصد الخطاب، ومنها ما استعمل الخطاب وهي تقصد النصّ ، فأين يلتقي هذان المفهومان وأين يفترقان ؟

إنّ أصل الاشتقاق والوضع لمصطلح النصّ في معظم اللغات الأوربيّة الحديثة يرجع كلّها "من أصل واحد هو اللاتينية التي تطلق على النص -Textus- ويعني في هذه اللغة المنقرضة أيضا النسج"[2].

يرى بول ريكور (Paul Ricoeur) أن النصّ خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة " أيّ أنّ النصّ ما نكتبه وما ندونه ، وهي نظرة تلتقي مع وجهة نظر رولان بارت حين أقرّ مصطلح النسيج، بمعنى أن النصّ يضع نفسه باستمرار، وهو نسيج كما تنسج العنكبوت نسجها في شبكة متلاحمة "[3].

تتعدد معاني مصطلح النصّ في اللغة بتعدد استعمالاته، ففي المعاجم العربية تحيل هذه المفردة على معنى الظهور والارتفاع والانتصاب، وهو في معجم لسان العرب يحمل دلالة الرفع حيث يقول:

[1]- طه عبد الرحمن ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1998، ص 226.

[2]- عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي ، دار هومه، الجزائر، 2004، ص 45.

[3]-مولاي علي بوخاتم ، مصطلحات النقد العربي السمياوي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، 2005، ص 258.

" النصّ : رفعك الشيء . نصّ الحديث ينصّه نصّا: رفعه ، وكل ما أُظهِر فقد نُصَّ ... ويقال نصّ الحديث إلى فلان أي رَفَعَه ... والمِنَصّة ما تُظهَر عليه العروس لتُرى "[1] .

وقد اعتمد بعض الدارسين العرب المعاصرين على هذا التعريف المعجمي في التحديد الاصطلاحي لمفهوم النصّ، فأطلقوه على "ما به يَظهُر المعنى أي الشكل الصوتي المسموع من الكلام أو الشكل المرئي منه عندما يترجم إلى المكتوب. " [2]

والملاحظ أنّ مفهوم النصّ في الفكر العربيّ القديم يرتبط ارتباطا وثيقا ببحث الأصوليين الذين كان لهم الفضل في لفت الأنظار إلى دلالة هذا المصطلح ، فاقترن عند أغلبهم بالتعيين واستبعاد التأويل ، وظلّ متصلا بأدلة الأحكام من قرآن وحديث ، لكونهما نصّين مقدمين ، ثم امتدّ ليشمل الأدب كضرب من ضروب الإبداع .

يسجل النص حضورا مألوفا في معاملاتنا اليوميّة ، فهو حاضر في سياقات شتى ولأغراض عدة ، أمّا من الناحية العلمية فمازال موضوع البحث في علوم متعددة ومختلفة مثل التاريخ والفلسفة والقانون والأدب ، ولكن بالرغم من انتشار هذا المصطلح إلاّ أنّ تعريف النصّ وتحديدا ماهيته ظلّ مشروعا غير سهل الضبط .

ترجع صعوبة تحديد هذا المصطلح إلى " قابليته للدراسة من عدة وجوه وإمكانية تطبيق مقاربات مختلفة متنوعة ، ولكن كذلك من حيث أنه وسيط (médium) مفتوح بدون حدود واضحة "[3] .

[1]- ابن منظور، لسان العرب، مج 07، مادة نصص ، ص 97.

[2]- الأزهر الزنّاد، نسيج النصّ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط1، 1993، ص 12 .

[3]- كورنيليا فون راد صكوحي، لسانيات النص أو: "لسانيات ما بعد الجملة وما بعد الخطاب، ص 50.

يرى الاتجاه اللساني البنيوي أنّ النصّ متوالية من الجمل ،أما الاتجاه السميائي فيعتبر النصّ علامة كبرى ، في حين يرى الاتجاه التداولي أن النصّ ليس وحدة فوق الجملة فقط ، بل هو يضطلع بوظيفة تواصلية ، لذلك تعامل التداوليون مع النصّ كفعل كلامي مركب .

يكتسب النصّ انسجامه من خلال اعتباره وحدة للتبليغ والتبادل ، فأيّ عمل كيفما كان نوعه يتكون من متوالية من الجمل المترابطة فيما بينها " وانطلاقا من هذا التحديد نجد فاولر يدخل ضمن النصّ الجوانب الفيزيقية في تشكيل النص مثل التقسيم إلى فقرات وفصول وصفحات "[1].

يفرق بعض الباحثين بين النصّ والخطاب، ويعتبرون النصّ قابل للتحديد والضبط لأنه وحدة ملموسة مقيدة عن طريق حامل معين، وأما الخطاب فيصعب ضبطه وتحديده في عناصر ملموسة "لذلك سنبقى، من الناحية التطبيقية، دائما في حاجة إلى النص "[2] .

وهناك من يرفض هذا الطرح منطلقا من أن المقابلة بين نص مكتوب وخطاب شفوي هو حصر للفرق في الحامل أو الوسيط، وحجب لكون النصّ في أغلب الوقت متعدد السمات، ومن المستحسن " أن نميز بين النصّ والخطاب باعتبارهما الوجهين المتكاملين لشيء مشترك "[3].

وينطلق فان ديك في تمييزه بين المصطلحين من أنّ الخطاب هو في آن واحد فعل الإنتاج اللفظي ونتيجته الملموسة "بينما النصّ هو مجموعة البنيات النسقيّة التي تتضمن الخطاب وتستوعبه، وبتعبير آخر، إن الخطاب هو الموضوع الأمبريقي المجسد أمامنا كفعل، أما النصّ فهو الموضوع المجرد والمفترض، إنه نتاج لغتنا العلمية" [4] .

[1]- سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي النصّ والسياق ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط2 ، 2001 ، ص 12.

[2]- كورنيليا فون راد صكوحي ، لسانيات النص أو: "لسانيات ما بعد الجملة وما بعد الخطاب ، ص76.

[3]-باتريك شارودو، معجم تحليل الخطاب ، ص 554.

[4]-سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص 16.

وأمّا غريماس فلاحظ أنّه غالبا ما تطلق كلمة النصّ مرادفة لكلمة خطاب ، وبالتالي فالسميائيات النصّية لا تختلف عن سيميائيات الخطاب ، وبهذا يظلّ المفهومان "يتداخلان إلى حد الاندماج "[1].

ولم تكن الدراسات النقدية العربيّة المعاصرة بمنأى عن هذا التداخل الحاصل بين المصطلحين ،ويعتبر عبد الملك مرتاض من أهم الدارسين الذي خاضوا في هذه المسألة، فقد بذل جهدا في كتاباته ومؤلفاته الكثيرة، وأثار بقصد قلقا معرفيا عميقا، يجمع بين التنظير والتطبيق، وكان همّه الأكبر الانشغال بتأصيل المصطلح، ووضع الحدود الفاصلة بين المفاهيم المتقاربة، وهذا ما جعله يطرح الإشكال التالي: ما الذي يميز النصّ عن الخطاب؟ وهل النصّ واحد والخطاب متعدد ؟ أم هل الخطاب واحد والنصّ هو المتعدد ؟ وبعد التحليل والمناقشة رست أفكاره عند رفض من يعتبر أنهما يحيلان إلى معنى واحد، ذلك لأن "النصّ هو كل كتابة على وجه الإطلاق، في حين أن الخطاب تصنيف لنوع الكتابة، وتخصص فني داخلي في تجنيسها "[2] وعليه فالنصّ أرحب من الخطاب، وما الخطاب سوى فرع من هذا الأصل الكبير .

ويركز اللغوي محمد محمد يونس علي في تمييزه بين المصطلحين على الأبعاد التداولية لعملية التخاطب، فالخطاب عنده "هو النص اللغوي بعد استعماله ، وهو وسيلة المتخاطبين في توصيل الغرض الإبلاغي من المخاطِب إلى المخاطب " [3].

أما الناقد محمد مفتاح فخالف التصور المنهجي السابق، فانطلق في التفريق الذي قام به بين المصطلحين من اعتبار "الخطاب والتلفظ أعم من القول والنصّ"[4] معللا ذلك بأنّ كل قول أو نصّ يفترض عملية التلفظ والخطاب.

[1]- حسين خمري ، نظرية النص ، منشورات الاختلاف، ط1، 2007 ، ص 60.

[2]- عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص 12.

[3]-محمد محمد يونس، المعنى وظلال المعنى ، دار المدار الإسلامي، ط2، 2007 ، ص 157.

[4]- محمد مفتاح، التشابه والاختلاف (نحو منهجية شمولية)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، 1996، ص 34.

4- السياق والخطاب

تعتبر إشكالية تحديد المعنى من أهم الإشكاليات التي خاض فيها اللغويون ، فحاولوا الكشف عن الآليات التي تتحكم في إنتاج الدلالة ، وعرفت هذه الدراسات منعرجا هاما مع تطور علم الدلالة ، فأعيد الاعتبار للسياق باعتباره أحد الأدوات الإجرائيّة التي تسهم في فهم الملفوظ اللغويّ .

اهتم الباحثون المتخصصون بتحليل الخطاب بجميع الجوانب المتعلقة بالخطاب، واهتموا بالسياق اهتماما لا نظير له ، باعتباره أهم العناصر التي تؤطر فهم الملفوظ وتأويله ،لذلك توجّهت الدراسات اللسانيّة المعاصرة إلى البعد السياقي للغة في مجال الاستعمال خاصة مع ظهور البحوث التداولية. فما السياق وما دوره في فهم عملية الخطاب ؟

4-1 – تعريف السياق

أورد ابن منظور لفظ السياق في مادة (سوق)، يقول: "ساقَ الإبلَ وغيرَها يَسُوقها سَوقاً وسِياقا ، وهو سائقٌ وسَوَّاقٌ ... وقد انساقَت وتَساوَقَت الإبل تَساوُقا إذا تتابعت ...وساقَ إليها الصَّداقَ والمهرَ سِياقا وأَساقه ،وإن كان دراهم أودنانير "[1].

وهكذا يتبين أن السياق جاء بمعنى: قاد – تتابع – أعطى – نزع ، ثم اتسعت هذه المعاني مع الاستعمالات المجازية حيث ربطت لفظة السياق بالحديث، فجاء في أساس البلاغة قول الزمخشري: " هو يسوق الحديث أحسن سياق ، وإليك يساق الحديث . وهذا الكلام مساقة إلى كذا ، وجئتك بالحديث على سوقه : على سرده ..." [2] .

[1]- ابن منظور، لسان العرب، مج 10، مادة سوق، ص 166.

[2]- الزمخشري، أساس البلاغة ، تحقيق: محمد باسل، دار الكتب العلمية لبنان،ط1 ، 1998،ج1، ص 484.

يتكون مصطلح السياق Contexte من السابقة اللاتنية Cun بمعنى: مع، وTextus اللاتنية أيضا التي تعني النص، فهو يتضمن كل ما يحيط بالنص، ولشساعة هذا المجال بقي هذا المصطلح يطرح في تحديد ماهيته مواضيع متشابكة في الوقت نفسه .

تطور مفهوم السياق في المعاجم الغربية ، حيث أصبح مصطلحا يدلّ على مجموع العناصر التي تسبق أو تواكب وحدات لغوية معينة حيث يمكن أن يكون صريحا أو ضمنيا . " وللسياق كما يتبين علاقة بمجموعة من المفاهيم الأخرى خاصة المعنى والتركيب والمرجع "[1].

يعرف جون دوبوا سياق الوحدة اللغوية على أنه : "العناصر التي تسبق أو تلي هذه الوحدة"[2] وهذا ما يطلق عليه السياق اللغوي ، فالوحدات اللغوية لا تنتظم بطريقة عشوائية ،ولكن وفق نظام محدد له دور في إنتاج الدلالة .

ويمكننا القول إنه لا يوجد تعريف موحد للسياق ، فهو خاضع للخلفية الفكرية لكل باحث، وتوجهاته العلمية وزوايا إدراكه للخصائص التي تؤلفه، ومن جملة هذه التعريفات ما ورد في معجم تحليل الخطاب لشارودو ومنغونو: "سياق عنصر ما س هو مبدئيا كل ما يحيط بهذا العنصر. وعندما تكون س وحدة لغوية (من طبيعة وكم متغيرين : صوتم ، صرفم ، كلمة ، جملة ، ملفوظ) فإن محيط س يكون في الآن نفسه من طبيعة لغوية (المحيط اللغوي) وغير لغوية (السياق المقامي الاجتماعي الثقافي) "[3].

لا يتحدد السياق كليا إلّا بمعرفة الظروف الاجتماعيّة المرافقة لاستعمال اللغة ، بالإضافة إلى المعطيات الثقافيّة والنفسيّة والمعلومات الشائعة بين طرفي الخطاب، وكلّ هذه الملابسات تقصي

[1]– علي آيت أوشان ، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء، ط1، 2000، ص 35.

[2]– JEAN Dubois et autres, dictionnaire de linguistique, Larousse – Paris, 1édition, 1994, p 116.

[3] – باتريك شارودو و دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 133.

التأويلات البعيدة، وتدعم المعنى المقصود. علاوة على ذلك يقوم السياق بدور هام في تحقيق اتساق النص وانسجامه فقراءة الخطاب تتطلب وضعه في سياقه ، فالنص لا ينغلق على ذاته، بل ينفتح على العوالم السياقية المتعددة .

ازدهرت البحوث المتعلقة بالسياق حين أوقعت الدراسات اللسانية اللغة في مأزق، وحولّتها إلى سجن مغلق، بإلغائها السياق بحجة أنه يتعلق بعناصر خارجة عن النظام اللغوي. وأمام هذا المأزق، سعى اللسانيون إلى التفكير في تجاوز هذه المعضلة، فظهرت مجموعة من الاتجاهات التي اهتمت بالسياق الخارجي خاصة مع ظهور المدرسة الانجليزية التي بيّنت كيف تساهم العناصر السياقية في فهم النص وفك رموزه .

يحدد رشيد بن مالك السياق في ثلاثة مستويات:

- أولها : على مستوى الكلام : يشتمل المحيط الألسني للوحدة على مجموعة من العناصر الحاضرة في النصّ المجاورة أو المبتعدة عن الوحدة المدروسة .
- ثانيا :على مستوى اللغة تكون كل وحدة ألسنية بمثابة السياق للوحدات الموجودة في رتبة أدنى، ويتموضع سياقها في الوحدة الموجودة في مستوى أعلى . كالفونيم ص يتمظهر في سياق "صديق" وبدوره يتمظهر في سياق "صديق" في جملة "أنت صديق".
- ثالثا :المحيط الألسني أوغير الألسني الذي تتحقق فيه الوحدة [1] .

أمّا الدكتور عبد الفتاح البركاوي فاعتبر السياق Context كل "ما يحيط بالوحدة اللغوية المستعملة في النصّ، كما يعني قيود التوارد المعجمي ، كما يعني النصّ اللغوي الذي يتسم بسعة نسبية

[1]- ينظر، رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السميائي للنصوص (عربي، انجليزي، فرنسي) ، دار الحكمة ، 2000، ص ص 44-45.

ويؤدي معنى متكاملا سواء أكان ذلك النصّ مكتوبا أم ملفوظا ، كما يعني أيضا الأحوال والمواقف الخارجية ذات العلاقة بالكلام "[1].

يقوم السياق بدور أساسي في اشتغال الملفوظات سواء ما يتعلق بأنشطة الإنتاج أو عملية التأويل، فالوحدات اللغوية لا يمكنها وصفها مستقلة عن سياقها ، فيظلّ النشاط اللغوي ظاهرة اجتماعية محددة بالإكراهات الخارجية ، ولذلك غالبا ما نلفي علماء اللسان يستعملون مصطلح "السياق" للدلالة به عموما على مجموع الظروف التي تصاحب ظهور الملفوظ ، وبهذا المعنى ، لا يغدو السياق مكونا من علامات فحسب ، ولكنه يشمل مختلف العناصر التي تسهم في تعمل التلفظ، ويحصرها " جان ميشال آدام " في ثلاثة عوامل : "

- المحيط (الخارج- لغوي) :سياق أوحال التفاعل الحواري والمقصود به حالي التلفظ والتأويل (آخذا بعين الاعتبار أو إهمالا لزمانهما ومكانهما).
- المحيط اللغوي المباشر.
- المعارف العامة المشتركة (التمثيلات الاجتماعية المادية والأبنية الثقافية المسبقة المسجلة في التاريخ وفي الذاتية المشتركة) "[2] .

لقد جمع بذلك الخصائص العامة المشكلة للسياق ، وجعلها في مجالين عامين : لغوي وآخر خارج لغوي ، ثم أضاف إليهما عاملا ثالثا يختص بالمشاركين في العملية التواصلية.

ولكن يجب الإقرار أنّه يستحيل على الباحث حصر السياقات المختلفة مهما اجتهدنا، فالسياق اللغوي مثلا لامتناهي التصور لعدم تناهي احتمالات التوزيع اللساني للوحدات اللغوية صرفا وتركيبا ،

[1] -ينظر، عبد الفتاح البركاوي ، دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث ، دار الكتب ،القاهرة ،1991 ، ص 45.

[2] -Jean Michel Adam , Linguistique textuelle, Des genres de discours aux textes , NATHAN, pp 124 -125.

فهناك " مجموعة لا متناهية من السياقات الممكنة التي يستطيع أحدنا أن يكون له فيها أوضاع مخصوصة ، بمعنى حالة سياق واقعي "[1]

يتسع السياق ليشمل كلّ أجزاء التخطاب الرئيسية : المرسل ،والرسالة ،والمتلقي، فسياق المرسل يتحدد بالظروف والملابسات المحيطة به أثناء إنجاز الخطاب ،وسياق الرسالة يتحدد بالجنس الأدبي الذي تشتغل ضمنه ،ثمّ السياق اللغوي ،فالحضاري العام ، وأمّا سياق المتلقي فيكمن في كلّ ما يحدد هوية من يحاول فهم الرسالة وتأويلها من خصائص نفسية واجتماعية وثقافية . [2]

4-2- السياق في الثقافة الغربية

اهتم علماء اللغة المحدثون بالسياق باعتباره من العناصر الأساسية المساهمة في بناء الخطاب ، وكان لنظرية جاكبسون في التواصل دورا مهما في اعتبار المرجع أو السياق من بين أهم عناصر التواصل.

إنّ المأزق الذي وقعت فيه البنيوية دفع النقاد واللغويون إلى " فتح مستويات التحليل على فاعلية السياق المنبثق من اللغة ذاتها .مما لا ينفي عن البنية فاعليتها ولا يسلبها ديناميكيتها "[3].

إن النظريات اللسانية الصورية ، تعرضت لمجموعة من الانتقادات ،من أهمها إهمال العناصر السياقيّة والجوانب التخاطبيّة في دراسة الإنتاج اللغويّ ، فمعظم اللسانيين يرفضون فكرة الشروط المثالية في التحدث "ومنذ السبعينات توالت الانتقادات للدراسات التي تجعل من الجملة وحدة

[1]-ينظر، فان ديك ، النص والسياق ،ترجمة عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشرق ، المغرب ،2000، ص 258.

[2]- ينظر، المهدي إبراهيم الغويل ، السياق وأثره في المعنى دراسة أسلوبية ، أكاديمية الفكر الجماهيري ،ليبيا ،2011، ص 16.

[3]-حبيب مونسي، نقد النقد المنجز العربي في النقد الأدبي ، منشورات دار الأديب ،2007 ، ص 188 .

للتحليل اللغوي ، وزاد عزوف مختلف الباحثين عن الدراسات التي لا تأخذ في حسبانها العناصر السياقيّة ، والجوانب التخاطبيّة في دراسة اللغة "[1] .

تطورت فكرة السياق في الفكر الغربي مع اللغوي الإنجليزي " فيرث " الذي نظر إلى المعنى على أنه نتيجة علاقات متداخلة، واعتبر أنّ ما يميز اللغة هو وظيفتها الاجتماعية، لذلك دعا إلى ضرورة الاهتمام بالسياق الحالي وما يتضمنه من عناصر مكونة للموقف الكلامي، ومن هذه العناصر شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافي ، وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع – إن وجدوا – وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي ،والعوامل والظواهر الاجتماعيّة ذات العلاقة باللغة والسلوك الاجتماعيّ لمن يشارك في الموقف الكلامي ، وكلّ ما يطرأ أثناء الكلام ممن يشهد الموقف الكلامي من انفعال أو أي ضرب من ضروب الاستجابة ، بالإضافة إلى أثر النص الكلامي في المشتركين[2] . ولهذا فالحدث اللغوي ينطلق من مقام معين ، وكل فعل لسانيّ يرتبط بموقف محدد ، ولا يمكن إدراك الوظيفة الإبلاغية إلا بالوقوف على السياق ، فالموقف الاتصالي هو المتحكم في التشكيل اللغوي .

يَعتبر باتريك شارودو ودومينيك منغنو في معجم تحليل الخطاب أنّ مصطلح السياق يحمل كل ما يحيط بالعناصر اللغوية المشكلة للكلام ، وقد يكون ذلك متصلا بالسياق المقالي أو متصلا بمقام التخاطب ،ويتسع ليشمل الإطار الزمكاني والشروط الاجتماعية التي تؤطر التبادل التواصلي ، ولهذا فالخطاب عند هذين الباحثين " نشاط مشروط بالسياق " [3].

أصبح السياق مصطلحا شائعا في الدراسات اللغوية المعاصرة خاصة مع ظهور الأبحاث اللسانية المتأثرة بالمنهج التداولي الذي يعتبر كل قول يحمل قصدا معينا، فهو يستمد قيمته من

[1]–محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيا ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيوت لبنان، ط1، 2004 ،ص103.

[2]– ينظر، محمود السّعران ، علم اللغة –مقدمة للقارئ العربي– دار النهضة العربية ، د.ت ، ص 311.

[3]– باتريك شارودو و دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب ، ص 133.

الملابسات والظروف المحيطة بالخطاب ، فالأهم ليس نظام اللغة المجرد بل الكيفية التي يستعمل بها المتكلمون هذا النظام.

لا يمكن فهم الكلام إلاّ بربطه بشروط إنتاجه وكلّ ما له علاقة بالموقف اللغوي ، فقد يتضمن ذلك على سبيل المثال " أفعال كلام المشاركين وتكوينهم الداخلي (معرفتهم ، واعتقاداتهم، وأغراضهم ، ومقاصدهم)، كما قد تكون الأفعال المنجزة ذاتها وبنياتها والصفة الزمانية والمكانية للسياق "[1].

لا يتحكم السياق في عملية إنتاج الكلام فقط، بل يمارس سلطته في عمليات التأويل فالمتلقي يستعين بالمعلومات السياقية المحيطة بالخطاب أثناء عملية التأويل ، فالملابسات التي تحيط بالنص تعين القارئ على ضبط مقصدية الخطاب، فالنشاط التأويلي يقوم "على أساس الوضع داخل السياق " [2].

وكلما توفرَ لدى المتلقي قدرا معتبرا من المعلومات ، كانت حظوظه قوية لفهم الرسالة وتأويلها، فالقارئ أو السامع يحتاج إلى الإحاطة بالظروف الخارجيّة من أجل تفادي التأويل الخاطئ ، ذلك أنّ الكلمة لا يمكن أن تفهم إلاّ من خلال السياق ، فللسياق" أهمية كبيرة في تحديد المعنى وتوجيهه، ومعظم الكلمات من حيث المفهوم المعجمي دالة على غير معنى ، فالذي يحدد هذه المعاني ويفصلها هو السياق في مورد النص "[3].

لا يتأسس الخطاب على ما سبق فقط، بل ينفتح على عوالم جديدة من المعاني المبتكرة، ولذلك على القارئ أو الناقد أن يستثمر العناصر اللغوية وغير اللغوية للوقوف على المعاني الدفينة المبثوثة في النص، وهكذا تنتفي الكلمات لكي تحل محلها السياقات التي تحف الكلمة. إنّ النصّ،

[1]–فان ديك ، النص والسياق ، ص 257.

[2]–فرانسوا راستي، فنون النص وعلومه ، ترجمة إدريس الخطاب ، دار توبقال للنشر المغرب، ط1، 2010 ، ص 124 .

[3]– يوسف أبو العدوس، الاستعارة في النقد الأدبي الحديث ، الأهلية للنشر والتوزيع عمان ،ط1، 1997، ص 104.

من هذه الزاوية ، هو" خزان كبير لسياقات بالغة التنوع والتعدد والتجدد. وهذا ما يمنح الذات المؤولة موقعا بالغ الأهمية ."[1]

حدّد هايمز للسياق مجموعة من الخصائص المميزة له، وتتمثل في :

- الباث: وهو المتكلم أو الكاتب الذي يحدث القول .
- المتلقي: السامع أو القارئ الذي يستقبل القول .
- المستمعون : الأشخاص الذين ساهم وجودهم في تحديد معنى الحدث الكلامي .
- الموضوع :محور الحد.
- الحدث : السياق المكاني والزماني للحدث .
- القناة : لفظا أم كتابة أم إشارة .
- الشفرة : اللغة أو اللهجة أو الأسلوب المستعمل.
- طبيعة الرسالة : مناظرة ، خطبة ، قصيدة .
- الطابع : تقييم الكلام .
- الغرض : ماذا كانت الأطراف المشاركة تنوي التوصل إليه كنتيجة للحدث الكلامي[2].

وأمّا ديكرو فيرى أنّ مقام الخطاب situation de discours هو مجموع الظروف التي تؤطر الحدث اللغوي، ويجب أن نفهم من هذا "المحيط المادي والاجتماعي الذي يأخذ الظرف فيه مكانه، والصورة التي تكون للمتخاطبين عنه، وهوية هؤلاء، والفكرة التي يصطنعها كل واحد عن

[1]- -سعيد بنكراد ، السميائيات والتأويل: مدخل لسميائيات ش – س – بورس، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005، ص185.

[2]- ينظر، براون ويول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي ، النشر العلمي والمطابع جامعة الملك سعود السعودية،1997 ، ص 48.

الآخر(بما في ذلك التمثيل الذي يمتلكه كلّ واحد عما يفكر به الآخر، والأحداث التي سبقت التعبير"[1].

والملاحظ أنّ التداولية تهتم بهذه المباحث في مقاربتها للخطاب بوصفها تدرس دور المقام في توجيه معنى العبارة ، فهي تهتم بالاستعمال اللساني ضمن السياق ، و تربط العلامات بالظروف التي تؤطر الخطاب ، لذلك هناك من يطلق على هذا العلم : السياقيّة .

إنّ الاهتمام بالسياق والتنظير له كأداة إجرائية قد أخذ مسارا عميقا مع البحث التداولي بمختلف اتجاهاته ، حيث سمحت هذه البحوث بتحديد و دراسة العلاقات الموجودة بين العناصر غير اللغوية والإنجاز اللغوي ،وأكدّت على حقيقة أنّ " أي استغناء عن السياق سيجعل قناة التواصل متوترة ."[2]

وفي ظل هذه الظروف ، ازدهرت نظرية أفعال الكلام (Les actes de langages) كنظرية تداولية تهتم بالملابسات السياقية المحيطة بالملفوظ ، فاللغة مع هذا التصور ليست وسيلة للتواصل فقط ، وإنما هي أيضا وسيلة للتأثير في الآخرين وتغيير سلوكاتهم ومواقفهم ، فكلّ خطاب موجه إلى مخاطب معين يسعى إلى استمالته وإقناعه بفعل ما .

كان للجانب الوظيفي للكلام حضورا عند فان ديك ، فقد رفض التيارات اللسانية السائدة لاهتمامها بالملفوظات اللغوية من حيث بناها فقط ، ودعا إلى عدم إهمال وظائف الخطاب ، فالنصّ سلسلة من الأفعال الكلامية التي ترتكز على السياق التداولي الذي يتألف من جميع العوامل النفسية والاجتماعية وهي تشمل " المعرفة التي يملكها مستعملوا اللغة ، ورغباتهم وإرادتهم وأشياؤهم المفضلة

[1]- أوزوالد ديكرو وجان ماري سشاييفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، ص677.

[2]-علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري ، ص 63.

وآراؤهم وكذلك علاقاتهم الاجتماعية ... وفي بعض الحالات يمكن أن تكون هناك أيضا قيود مؤسسية على إتمام فعال كلامية معينة "[1].

4-3 السياق في الثقافة العربية

اهتمّ علماء العربية القدامى بدراسة السياق ،ويتضح ذلك من خلال بيئة المفسرين والأصوليين والنحاة والنقاد والبلاغيين، أما أصحاب البيئة الأولى فاستفادوا من سياق الحال واستثمروه في الوصول إلى دلالات النص القرآني ، فقد كان لأسباب النزول دورا هاما في توجيه المعاني القرآنية ، كما لم يهملوا السياق اللفظي في فهم حقائق التنزيل ، فمن أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولا من القرآن .

استطاعت مقاربات علوم القرآن أن تضع الكثير من الآليات والأدوات الإجرائية التي تشكل جوهر نظريات تحليل الخطاب المعاصرة ، ومن أهم منجزاتها استثمار فاعلية السياق في فهم الخطاب، فقد كان لذلك مكانته في علوم القرآن "ينهض به علمان قائمان برأسيهما هما : علم معرفة أسباب النزول وعلم معرفة المكي والمدني ."[2]

أما الأصوليون فاهتموا في بحوثهم بمقصدية الخطاب ،وربطوا الدلالة بقصد المرسل ،واعتنوا بالسياق الخارجي باعتباره يعين السامع على الفهم الصحيح ، فللسياق دور مهم في إنجاز الكلام وتأويله ، وعليه يعتمد المتلقي في فهم الخطاب .

اعتمدّ الجهد الأصولي في تحديده للمعاني من الألفاظ بطريقتين: "

- إما بالحصول على المعنى المطلق عن طريق الألفاظ والعبارات المطلقة (الدلالة الأصلية للفظ) أو المعنى الأول.

[1]-المرجع السابق، ص ص 82-83.

[2]-محمد عبد الباسط عير، النص والخطاب (قراءة في علوم القرآن)، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2009 ، ص 24.

- وإما بالوصول إلى المعنى عن طريق الألفاظ والعبارات المقيدة (الدلالة التابعة) أو المعنى الثاني "[1] .

كان هذا الجهد المبذول منصبا على قواعد الفهم والاستنباط من النص الشرعي ، ولتحقيق ذلك استعان الأصوليون بمختلف الآليات التي تعين على تعيين مقصدية الخطاب، واعتبر السياق من أهم هذه الأدوات الإجرائية ، فهو أساس تماسك النص وانسجامه، وبالاستعانة به يتمّ تعيين المحتمل وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم .

في حين لم ينظر النحاة إلى اللغة على أنها شكل منعزل عن العوامل الخارجية التي تحيط بالكلام، بل هي ضرب من النشاط الإنساني الذي هو محصلة التفاعل مع المحيط وظروفه. هذا الوعي المنهجي بنظام اللغة جعلهم يتفطنون مبكرا إلى أن الكلام " له وظيفة ومعنى في عملية التواصل الاجتماعي، وأن هذه الوظيفة وذاك المعنى لهما ارتباط وثيق بسياق الحال، أو المقام وما فيه من شخوص وأحداث "[2] .

ورغم أنّ النحاة انشغلوا بالمقال وأصوله التركيبية إلا أنّ ذلك لا يعني إهمالهم للمقام الخارجي وما يحيط بالحدث اللساني من ملابسات تتصل بطرفي الخطاب أو ظروف الكلام ، حتى و لو أنّ هذه العناية جاءت بقدر ، وذلك في معرض الحفاظ على أصول النظام النحوي ، وأمثلة ذلك كثيرة منها أن سيبويه لا يستقيم عنده أن تقول: "هذا أنت "ويجيز " هذا هو" معتمدا على بعد خارجي محض، إذ يقول: "لأنك لا تشير إلى المخاطب إلى نفسه ولا تحتاج إلى ذلك، وإنما تشير له إلى غيره"[3] وتبقى هذه العناية بالمقام مرتبطة بوصف الظاهرة النحوية وتقعيد قواعدها وما يجب أن تكون عليه فردّوا مظاهر العدول إلى أصول تركيبية تتوافق مع القواعد التي يضعونها .

[1]- علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، ص 115.

[2]- كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، دار الثقافة العربية، ط2 ، 1994، ص 66.

[3]- سيبويه، الكتاب، ج 1، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي، مصر، ط3، 1988، ص141.

ارتكز النقاد في مقاربتهم للشعر على مصطلحات كثيرة ،بعضها ذو بعد تداولي كضرورة ملاءمة القول للمقام بحسن اختيار الألفاظ والعبارات ومراعاة ظروف القول ، كمّا دعا بعضهم إلى احترام مبدأ التأدب دون التصريح به ، وهذا ما نجده عند ابن طباطبا الذي ركّز على ضرورة التزام الشاعر هذا المفهوم التداولي " باختيار الألفاظ والعبارات المناسبة لمقامات المخاطبين . كما أن على الشاعر أن يجتنب كل ما يخالف المقتضيات التداولية للمقام " [1].

إنّ هذا المبدأ هو مبدأ عملي يوجه القول الشعري ، فالشاعر إذا مدح غيره احترز من عبارات ومعان معينة لأن المقام يستدعي تقديم اعتبارات الغير على اعتبارات الذات ،فالشروط التداولية للعملية الإبداعية مقدمة على غيرها من الشروط .

أبان البلاغيون عن دور السياق في التشكيل اللغوي ، وأهميته في توجيه معاني الكلام وأغراضه ،فقد اهتدوا إلى جملة من المصطلحات التي تنظر بوعي عميق للأبعاد التداولية للحدث اللساني ، كفكرة مقتضى الحال التي بني على أساسها علم المعاني الذي يراعي دور السياق في تفاوت التراكيب والأساليب .

فضلا عن مصطلح المقام الذي يقصد به " مجموعة العناصر التي تتوافر في موقف تخاطبي معين وأهمها زمان التخاطب ومكانه وعلاقة المتكلم بالمخاطب وخاصة الوضع التخابري القائم بينهما"[2] .

تعرض البلاغيون العرب للسياق بنوعيه اللغويّ والمقاميّ في إطار معالجتهم لفكرة "لكل مقام مقال"، فإليهم يرجع الفضل في الكثير من المصطلحات والمفاهيم التي يتوهم أنها نتاج النظريات

[1]– عبد الجليل هنوش، ابن طباطبا العلوي والتصور التداولي للشعر، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية جامعة الكويت ، الحولية الحادية والعشرون، 2001، ص 65.

[2]– أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط ، 2006، ص 172.

اللسانية الحديثة والمعاصرة ، فمفهوم التداولية مثلا أتى "ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة مقتضى الحال " [1] .

ولعل الجاحظ من البلاغيين الأوائل الذين ربطوا البلاغة بمراعاة المقام " وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال "[2]. فلبلوغ الرسالة إلى ذهن السامع يجب مراعاة أحوال المتلقين ومستواهم، فالكلام طبقات كما أن الناس أنفسهم طبقات فلا تتكلم إلّا بمراعاة أقدار المستمعين .

ويمثل المقام أساس المشروع البلاغي للجاحظ ، فبلاغة المتكلم تحصل بمراعاة سياق الخطاب ،فعلى قدر حنكته " في تدبير مقام كلامه ،وفي إيقاع النسبة بينه وبين ما يقول، يكون نجاحه "[3] ولا تتأتى هذه السياسة في القول إلّا لمن ملك ناصية البلاغة.

وكان لأفكار عبد القاهر الجرجاني دورا مهما في إرساء مفاهيم تداولية جديدة ، فالنحو عنده مثلا ليس قواعد شكلية مجردة، إنما هو وسيلة المتكلم " لإبراز الصور الذهنية والمعاني التي تأتلف داخل السياق "[4] .

وفي هذا دعوة غير مسبوقة لجميع الباحثين للأخذ بعين الاعتبار السياق ، فالنحو لا معنى له بدون مراعاة العلاقات السياقيّة والمقاميّة، والبنية الإبلاغية للجمل لا يمكن فهمها بمعزل عن الملابسات التي رافقت الحدث اللساني ، فالكلام يتم بمراعاة اختيار الكلمات ونظمها وفق ترتيب مخصوص ، فلا مزية بين الألفاظ إلا بحسن الموضع ، فاللفظة قد تكون ملائمة لمعاني جاراتها ، وقد

[1]–صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص21.

[2]– الجاحظ ، البيان والتبيين، ج1، تح: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت ، 2005 ، ص 136.

[3]–قالط العنزي، المفاهيم الحجاجية والتداولية في تعريف الصناعة الخطابية في البيان والتبيين للجاحظ ،مجلة جذور السعودية ، العدد 38، أكتوبر 2014 ، ص 30.

[4]– يوسف أبو العدوس، الاستعارة في النقد الأدبي الحديث ، ص118 .

تكون قلقة مستكرهة لعدم مؤانستها لأخواتها ، ومعنى الكلمة أو العبارة لا يتحدد إلا بفضل الإطار النحوي والبلاغي التي ترد فيه ، وهذا ما أطلقت عليه الدراسات الحديثة مصطلح السياق اللغوي .

فطن عبد القاهر الجرجاني إلى دور السياق في تحديد المعنى في كتابه (دلائل الإعجاز في علم المعاني) حيث اعتبر أنّ الألفاظ المفردة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض. فأكدّ أن النظم " يكون في معاني الكلم دون ألفاظها وأن نظمها هو توخي معاني النحو فيها."[1]

وهذا الطرح المتميز يقترب من آراء فيرث Firth الذي يعتبر أن المعنى لا يتحدد إلا بتسييق الوحدات اللغوية المشكلة للكلام ، فمعاني الكلمات والتراكيب تتحدد عن طريق ربطها بالسياقات والمواقف المختلفة التي ترد فيها .

أكد عبد القاهر الجرجاني في أكثر من موضع على أهمية المقام وتأثيره على المقال دلاليا وتركيبيا في إطار نظرية النظم التي استوعبت آراءه في وضع جسور تقاطع بين النحو والبلاغة ، منطلقا من "النظر إلى التراكيب على أساس صورتها الظاهرة المنجزة في إطار من التفاعل بينها وبين مقتضيات المقام ."[2]

وبهذا قدّم عبد القاهر نظرية لغوية مكتملة ، استوعب فيها أفكار من سبقه ، وأتاح لمن جاء بعده أن يستثمر منجزه ، ولا شك أن الزمخشري في " الكشاف" استطاع أن يطبق نظرية النظم تطبيقا دقيقا للوصول إلى فهم التراكيب القرآنية ، وإظهار جمالها وروعتها ،ومن أمثلة ذلك ما جاء في

[1]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، تح: أبو فهر محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، ط 3، 1992، ص415.
[2]–عبد الحميد السيد ، دراسات في اللسانيات العربية ، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، 2004 ، ص 129.

تفسيره لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً﴾[1].

فإن قلت لم قدم الإناث أولا على الذكور، ثم رجع فقدمهن ؟ قلت: "لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى (الآية48) وكفران الإنسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده ،ثم عقب بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد ، فقدم الإناث لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم "[2].

وواضح أن الزمخشري أقام تفاعلا بين النصّ وسياقه ليكشف عن أسرار تراكيب التعبير القرآني، وكثيرا ما كان يستعين في تفسيره بالمقام الخارجي كأسباب النزول، أو الاعتبارات العقدية أو ملابسات وقرائن أخرى .

إنّ هذه الأفكار القيمة نجدها أيضا عند السكاكي في كتابه مفتاح العلوم ، حيث اعتبر في مؤلفه أن الصياغة اللغوية تراعي ما يكتنف الكلام من ظروف وأحوال ، فمقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، فمقتضى الحال هو ما يؤطر المتكلم أثناء الإنجاز اللغوي" فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين مقام الذم ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل ...ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام "[3] .

فالظروف والملابسات المحيطة بالنشاط اللغوي تساهم في فهم مقصدية الخطاب، ولا يمكن تحليل التركيب اللغوي إلاّ باعتباره خادما للمعنى، خاضعا لمقامات الكلام المختلفة .كما التفت

[1]- سورة الشورى، الآيتين 49-50.

[2]-الزمخشري ، الكشاف، ص 982.

[3]-السكاكي، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط1، 2000، ص 256 .

السكاكي إلى ما يحيط بالمخاطب ، فالإفادة من الخطاب لا تتحقق إلا بمراعاة السامع وما يتصل به من أحوال، ولذلك يبني المتكلم خطابه على أساس ما يلائم مقامات الكلام المتعلقة بالمخَاطب من حيث مستواه الفكري ووضعه الثقافي ، فإذا ألقى خبره مثلا لمن هو خالي الذهن مما يلقى إليه لم يحتج إلى تأكيد كلامه أمّا إذا توجه المخاطب بخبره لمتردد شاك فيه أكدّ خطابه مؤكد واحد " أما إذا كان المخاطَب منكرا لحكم الخبر وحاكما فيه بخلافه استلزم ذلك تأكيد الكلام بأكثر من مؤكد كي يقتنع ويتم التأثير فيه "[1].

استثمر السكاكي فكرة الأحوال والمقتضيات في تأسيسه لعلم المعاني ، فاعتبر أنّ هذا العلم يتتبع "خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره " [2]، ففي باب التقديم والتأخير على سبيل المثال، اعتبر أن ترتيب عناصر الجملة لا يمكن فهمه إلا بربطه بسياق التلفظ فلكل مقام تركيب مخصوص، ولا يمكن للمتلقي أن يصل إلى قصد المتكلم إلا إذا أخذ بعين الاعتبار السياق بنوعيه المقالي والمقامي ، وتتضح هذه الرؤية المتميزة في سعي صاحب " مفتاح العلوم " إلى الوصول إلى تمام مراد الحكيم تعالى وتقدس " ولله در أمر التنزيل وإحاطته على لطائف الاعتبارات في إيراد المعنى على أنحاء مختلفة ، بحسب مقتضيات الأحوال ، ولا ترى شيئا منها يراعى في كلام البلغاء من وجه لطيف إلا عثرت عليه مراعى فيه من ألطف وجوه "[3].

إنّ السكاكي من بين علماء العربية الذين اهتموا بدور السياق في بناء الكلام وتوجيه المعنى وتحديد قصد المتلفظ بالخطاب في إطار نظرية قائمة بذاتها أساسها فكرة "مقتضى الحال" التي تتقاطع مع العبارة التداولية " لكل مقام مقال"، ويرى الباحث سعد عبد العزيز مصلوح أنّ هذه

[1] –باديس لهويمل ، السياق ومقتضى الحال في مفتاح العلوم –مقاربة تداولية– ، مجلة المخبر ، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري ، جامعة بسكرة الجزائر ، العدد التاسع، 2013 ، ص 174.

[2] – السكاكي، مفتاح العلوم ، ص 247.

[3] – المصدر نفسه، ص 344.

الفكرة تعد "مشروعا طيبا يمكن الانطلاق منه وإعادة النظر فيه لصياغة طراز يتسم بالدقة والشمول في ضوء نظرية التواصل الشعري Poetic Communication واللسانيات النفسانية والاجتماعية"[1] .

لا يقتصر مفهوم السياق عند العلماء العرب القدامى على العناصر الدلالية التي تستفاد من السياق، بل يتسع ليشمل سياق الموقف أو المقام الخارجي الذي يشمل الظروف والملابسات الخارجيّة التي تصاحب النصّ، وهذا ما أطلق عليه في التراث العربي: الحال والمقام والموقف، فبشر بن المعتمر في صحيفته المشهورة يقول: "وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار الحالات "[2].

ولعلنا لا نبالغ إذا زعمنا أنّ دراسات العلوم العربية التي قامت حول السياق " كانت من السبق والعمق معا بحيث تتفوق على نظيرتها التي قامت في العصر الحديث في المعرفة الغربية "[3].

وقد تنبّه إلى هذه الحقيقة الكثير من المحدثون فاعتبروا أنّ فكرتي المقام والمقال التي جاء بها البلاغيون القدامى هي أساس النظرية السياقيّة التي يروج لها الفكر الغربي المعاصر .

4-4 أنواع السياق:

لا يتحقق المعنى الذي يودّ المرسل أن ينقله للمتلقي عن طريق اللفظ فقط، بل بمساهمة الظروف المحيطة بالحدث اللسانيّ، فالسياق هو الذي يوجه دلالة الخطاب، ويقيد التأويل اللاّمتناهي، وللسياق نوعان:

[1]-سعد عبد العزيز مصلوح ، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية ، عالم الكتب القاهرة ،ط1، 2006 ، ص 78.

[2]-الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 135.

[3]- عيد بلبع ، السياق وتوجيه دلالة النص، بلنسرية للنشر والتوزيع، ط1، 2008 ، ص 120.

أ-السياق الداخلي: يرتبط بعملية التلفظ، ويظهر من خلال العناصر اللغوية وطريقة تركيبها، ويتعلق بالبنية الداخلية للغة وطريقة ترتيب وتركيب الوحدات اللغوية، فهو" حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة "[1].

وعند الحديث عن المعاني التي تستفاد من سياق التركيب ،لا يتمّ الاقتصار على المعاني المعجمية فقط بل يجب الأخذ بعين الاعتبار المعاني النابعة من خصوصية الارتباطات التي تميز تركيب لغوي ما. "إنّ التذوق الكامل للنص الأدبي وإدراك الأبعاد الجمالية فيه لا يتم إلّا بملاحظة تفاعل الدلالات ونشاط السياق داخل التركيب لأنه بدون ذلك لا يتحقق الربط بين أجزاء النص"[2] .

يتحدد هذا النوع من السياق بمعرفة أوجه نظم الكلام وأسرار التراكيب اللغوية، فمعنى وحدة لغوية ما يتحدد من خلال ما يسبقها وما يلحقها من وحدات لسانية، فالتتابعات اللغوية في الخطاب تساهم في الكشف عن المعنى، وتعين المتلقي على ضبط المعنى الأرجح داخل الخطاب، وتصون القارئ من الوقوع في التأويلات البعيدة، فالسياق اللغوي هو البوصلة التي تتبعها القراءة الفعالة للنص، وبدونها يقع المتلقي في التعسف التأويلي، فالخطاب لا يتأسس إلّا من خلال الأبنية الكلية للنصّ .

لا يقوم المستوى الدلالي للحدث اللساني على محصلة علاقات عناصره اللغوية فحسب بل بالأخذ بعين الاعتبار عدة أمور منها " الأحداث اللغوية نفسها أي العبارات المنطوقة بالفعل ، وكيفية نطق الجملة أو الجمل، من حيث التنغيم والنبر"[3] فالظواهر الأدائية المرتبطة بالجانب التعبيري للغة مهم في تحديد معنى العبارات التي يستعملها المتكلم .

[1]-سالم عباس خدادة ، النقد والسياق ، مجلة العلوم الإنسانية ، ع 2 ، جامعة البحرين ، 1999 ، ص 113.

[2]-المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى ، ص 73.

[3]- يحي أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة ،مجلة عالم الفكر، م 20 ، ع 3، 1989 ، ص 83.

فللنبر مثلا وظيفة في النظام اللغوي، وعن طريق الهيكل التنغيمي "يتحدد طابع الحدث اللساني إن كان استفهاما أو تعجبا أو نداء أو سخرية أو غير ذلك، إذ لكل تركيب لغوي قالب أدائي خاص به "[1] وخلاصة القول أنّ هذا الضرب من السياق يضفي على الكلام ظلالا من الدلالات .

ب–السياق الخارجي : وهو ما يسمى بسياق الحال أو السياق غير اللغوي الذي يجري من خلاله الحدث اللساني ، ويشمل كل المعينات الخارجية التي توجه معنى الخطاب .

يمثل هذا السياق " مجموعة الملابسات الخارجية التي تحكم عناصر الموقف اللغوي، من سياقات نفسية تمثل دوافع المرسل أو تحكم استجابة المتلقي ، أو سياقات ثقافية تتعلق بالمحيط الثقافي الذي يحكم المرسل والمتلقي والرسالة "[2].

فجملة العناصر المكونة للموقف الكلامي تشارك بصفة موضوعية في بناء معنى النص أو الخطاب، فكل فعل لساني يرتبط بموقف معين، وتظل الظروف الخارجية دائما المحرك الأساسي للتشكيل اللساني ، فكل دلالة لغوية مرتبطة به .

يطلق على هذا النوع من السياق مصطلح المقام ، وقد ورد استعماله ضمن حقل التداوليات في مقابل مفهوم السياق " بوصفه يشير إلى كل ما يحيط بالملفوظ (طرفي التبادل اللفظي ، وضعيتهم النفسية ، الموضوعات المحيطة بهم وكل أنواع الظروف)، في الوقت الذي يؤلف فيه السياق محيطا ذا طبيعة لسانية "[3].

[1]– عبد الحليم بن عيسى، البنية التركيبية للحدث اللساني ،منشورات مختبر اللغة العربية والاتصال، جامعة وهران، ص 87.

[2]–فاطمة الشيدي ، المعنى خارج النص: أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب، دار نينوى ، دمشق، 2011 ، ص 07.

[3]– ماري نوال غاري بريور ، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات ، ترجمة: عبد القادر فهيم الشيباني ، ص 98 .

إنّ أهم ما يميز المقام هو أنه ذو طبيعة غير لغوية ، فهو سياق خارج لساني Contexte extra-linguistique، يعين على ضبط مقصدية النصّ، ويساهم في تحقيق نجاعة الخطاب، لذلك يحتل مكانة مهمة في بلاغة الحجاج .

اتفق معظم الباحثين على تحديد السياق –غالبا- في مستويين داخلي وخارجي ، والملاحظ أنه يتولد عنهما عدة أنواع نحو السياق النفسي والاجتماعي والثقافي ... وهذا ما جعل " التوصيفات السياقية تأخذ منحى يتجه إلى استحالة الحصر ، ولا نتحدث هنا عن مشكلة نسبية الوصف بقدر حديثنا عن العشوائية –إن صح التعبير – التي تميز استعمال الإضافات الملحقة بمصطلح السياق "[1]

يقسم فان ديك مثلا السياق إلى عدة مستويات هي كالآتي :

- **السياق التداولي** : يعتمد على تأويل النص باعتباره فعلا للغة ،أو متتالية من أفعال اللغة كالوعود والتأكيدات والتهديدات... فكل عبارة متلفظ بها ينبغي ألاّ توصف فقط من جهة تركيبها الداخلي والمحدد لها "بل ينبغي أن ينظر إليها كذلك من جهة الفعل التام الإنجاز المؤدي إلى إنتاج تلك العبارة " [2].

إنّ هذا النوع من السياق "يبحث عن الطريقة التي يتم من خلالها ربط هذه الجملة بجملة أخرى في النص ."[3] وهو يتألف من العوامل النفسية والاجتماعية التي تحدد نسقيا ملاءمة الأفعال الكلامية .

- **السياق الإدراكي أو المعرفي** : ويركز فان ديك فيه على فهم النص، ويعتبر أنّ الملفوظ اللغوي يتضمن عوامل تمكن القارئ من معالجة النص في مواقف خاصة، ويربطه بالاستعداد

[1]– صالح دريسي ، المبادلات السياقية في كتاب "البرهان في علوم القرآن " للزركشي، منشورات مخبر تحليل الخطاب، 2012 ، ص 38.

[2]–فان ديك ، النص والسياق ، ص 18.

[3]–فان ديك، النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص ، ضمن نظرية الأدب في القرن العشرين ، تر: محمد العمري ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، 1997 ، ص 67.

الإدراكي الذي يدخل في صميمه" معارفنا وآراؤنا وأفكارنا في الفكر الحاضر هذه المعارف نسميها أطرا"[1] وهي تلعب دورا هاما في تفسير النصوص ، وتسهم في تحديد ما هو مهم عند القارئ.

- **السياق النفسي الاجتماعي Le contexte socio-Psycologique**: المقصود به المفعول الذي تحدثه النصوص على مستعملي اللغة .
- **السياق الاجتماعي**: وهو يتعلق بعلاقة اللغة بالسياق الاجتماعي ، فالنص كفعل كلامي "لا يحدده المقام الاجتماعي فقط ، وإنما المقام الاجتماعي نفسه تحدده كيفية استعمال اللغة "[2] فالنص يؤثر على المقام الاجتماعي ، وكذلك يؤثر المقام الاجتماعي على النص .
- **السياق الثقافي**: يعتبر النص ظاهرة ثقافية ، إذ من خلاله يمكن أن نستخلص "المحادثات المستعملة في مقامات خاصة ودور أعضاء المجتمع وحقوقهم وواجباتهم والقواعد والأعراف السائدة بينهم ... "[3] وعليه فتحليل النص يساعدنا في التحليل العام للثقافة .

وفي الأخير يشير فان ديك إلى أن فهم وتحليل مختلف وظائف النص يتطلب مقاربة شاملة تربط بين مختلف هذه المستويات .

[1]-علي أوشان ، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، ص 85.

[2]-المرجع نفسه، ص 87 .

[3]-فان ديك ، النص بنايته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص ،ص ص 76 -77.

ثانيا –التداولية والخطاب

1– تعريف التداولية

تعتبر التداوليّة ملتقى لمصادر معرفية وتيارات فكرية مختلفة ، إذ يعنى بها الكثير من الفلاسفة والمناطقة والسوسيولوجيين والسيكولوجيين ، فهي تتسع لتشمل الأبحاث المتعلقة بالدلالة والتواصل "وتطغى على موضوع الخطاب لتصبح نظرية عامة للنشاط الإنساني "[1]

يفرض الحديث عن التداولية الإشارة إلى العلاقات القائمة بينها وبين العلوم المتشابكة معها مفاهيميا ، فقد اعتبرت "حلقة وصل هامة بين حقول معرفية عديدة ، منها : الفلسفة التحليلية ممثلة في فلسفة اللغة العادية ، ومنها علم النفس المعرفي ممثلا في نظرية الملاءمة Théorie de pertinence على الخصوص ، ومنها اللسانيات وعلوم اللغة بطبيعة الحال " [2].

التداولية هي ترجمة لما ينعت باللغة الأجنبية بالبراغماتية pragmatique وقد تعدّدت التسميات العربيّة المقابلة لهذا المصطلح فقيل علم التداول ، وعلم التخاطب، والمقامية والسياقية وغيرها من المصطلحات . وفضّل بعضهم مصطلح التداولية للمعاني التي يحملها لفظ التداول في التراث العربي وهي تجتمع في "التحول والتناقل: الذي يقتضي وجود أكثر من حال ينتقل بينهما الشيء، وتلك حال اللغة متحولة ... ومتنقلة بين الناس يتداولونها بينهم "[3].

جسّدت الدراسات التداولية تحولا معرفيا ومنهجيا في دراسة اللغة، حيث لم يعد الاهتمام ببناء أنساق لسانيّة كلية مسؤولة عن الإنتاج اللغويّ ، بل تحولّ البحث إلى تحليل الظواهر المرتبطة

[1]– ينظر، بوجادي خليفة ، في اللسانيات التداولية –محاولة تأسيسية في الدرس العربي القديم –، بيت الحكمة ، الجزائر ،ط1، 2009، ص ص 63-64.

[2]– مسعود صحراوي ، في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر ، ضمن الكتاب الجماعي التداوليات علم استعمال اللغة ، تنسيق وتقديم حافظ إسماعيلي علوي ، عالم الكتب الحديث ،ط2، 2014 ، ص 32.

[3]–بوجادي خليفة ، في اللسانيات التداولية –محاولة تأسيسية في الدرس العربي القديم – ، ص 148.

باستعمال النسق اللغويّ، فالتداوليون يركّزون جهودهم على فهم القضايا المرتبطة بالتواصل الإنسانيّ من قبيل السياق الكلاميّ والمقاصد، والحجاج ، والاستلزام الحواري والأفعال الكلامية .

تعود فكرة نشأة هذا الفرع اللساني الجديد إلى شارل موريس CHARLES MORRIS الذي ميز في أبحاثه اللغوية بين التركيب الذي يبحث في العلاقات بين العلامات، والدلالة التي تبحث عن المعنى القائم بين مختلف العلامات "والتداوليّة التي تعني في رأيه بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها"[1].

والتداوليّة كما يقسمها الباحثون ثلاثة أنواع :

أ–التداولية اللفظية (لسانيات التلفظ): وتعنى بالعلاقات الموجودة بين بنية الملفوظ وخصائص عملية التلفظ : المتكلم والمخاطب وصفة الخطاب .

ب– التداولية التخاطبية (نظرية أفعال الكلام): تأسس هذا الاتجاه بفضل أعمال أوستن وسيرل ، فالملفوظ عندهما هو مجموعة من الأفعال الكلامية .

ج–التداولية التحاورية : وتبناها غرايس ،وتعنى بقوانين التبادلات الكلاميّة .[2]

يعتبر المكون التداوليّ من بين أهم مكونات اللغة، ويسعى البحث التداوليّ للكشف عنه من خلال وصف معنى الملفوظات في سياقها " فالملفوظ نفسه (الوالد ليس هنا) مثلا يؤول حسب السياقات،كملفوظ تهكمي، أو كدعوة لاحترام النظام، أو كنتيجة لمحاججة ..."[3] فالتداولية تحاول

[1]–آن روبول وجاك مرشلار ، التداولية اليوم علم جديد في التواصل ، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني ، مراجعة: لطيف زيتوني ، المنظمة العربية للترجمة ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ،لبنان، ط 1، 2003 ، ص 29.

[2]–فيصل مفتن كاظم ، التداولية في النحو العربي ، مجلة أبحاث ميسان ، المجلد الثاني ، العدد الرابع ، 2006 ، ص 37.

[3]– مانجينودومينيك، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ص101.

الإحاطة بالعديد من الأسئلة من قبيل :من يتكلم ؟كيف نتكلم بشيء ونحن نريد قول شيء آخر ؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم ؟

وههنا تجدر الإشارة إلى أنّ العمل التداوليّ عرف منعرجا هاما مع جون أوستين John Austin الذي ركّز في أعماله على فلسفة اللغة ، ورغم أنّه لم تكن له النية في خلق توجه لساني جديد إلاّ أن أبحاثه المتعلقة بدراسة أفعال اللغة أسهمت بشكل كبير في وضع اللبنات الأساسية لأهم البحوث التداولية . وعرفت فكرته القائلة : "إنّ كل قول يعد فعلا " تطورا مع سيرل Searl الذي اهتم بالأثر التداولي للخطاب ، معتبرا أن المتكلم عندما يتكلم يحاول أن يوصل معلوماته إلى مخاطبه بدعوته إلى التعرف على مقصده ، ويضرب سيرل مثالا على ذلك بقول أحدهم "صباح الخير" فدلالة هذا الخطاب هي الغرض المدرك من التحية ، فالمقصود إذن ليس هو المعنى الحرفي وإنّما المعنى المتضمن من الملفوظ ، ويعني هذا أنّ "أيّ ملفوظ يمكن استخدامه لإحداث أثر تداولي مطلوب "[1]فالقول وسيلة لإيصال مقصد متضمن في القول يتجاوز المستوى الخام للملفوظ.

تمثل التداولية عند ديلر وريكاناتي "دراسة تهتم باللغة في الخطاب ، وتنظر في الوسميات الخاصة به ، قصد تأكيد طابعها التخاطبي"[2] فهي تنظر للغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية في نفس الوقت ، ومادام كذلك فالتداوليّة تهتم بالوقائع الحقيقية في علاقاتها بسياقاتها، وهي تسعى جاهدة لإيجاد القوانين الكلية التي تتحكم في الاستعمال اللغويّ .

2- مفاهيمها:

تقوم التداولية على مجموعة من المفاهيم ،من أبرزها :

[1]- فيليب بلانشييه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع سورية، ط1، 2007، ص140.

[2]- المرجع نفسه، ص ص 18-19.

2-1- نظرية أفعال الكلام: انطلقت هذه النظرية في تصوراتها من أن عددا كبيرا من الجمل لا تخضع لمعيار الصدق والكذب، وإنما تنجز فعلا، وهي لا تصف العالم بقدر ما تتوخى تغييره ،" فالفعل الكلامي هو عبارة عن أداء لفعل معين كأن يكون أمرا بضرورة القيام بعمل ما أو وعد بإنجاز عملا آخر أو حكما لفعل معين بحالة شعورية تجد طريقتها التجسيد اللساني "[1].

بناء على هذه الملاحظة يمكن التمييز بين الملفوظات الوصفية والملفوظات الإنجازية ، ويمكن تمثيل ذلك بالخطاطة التالية :

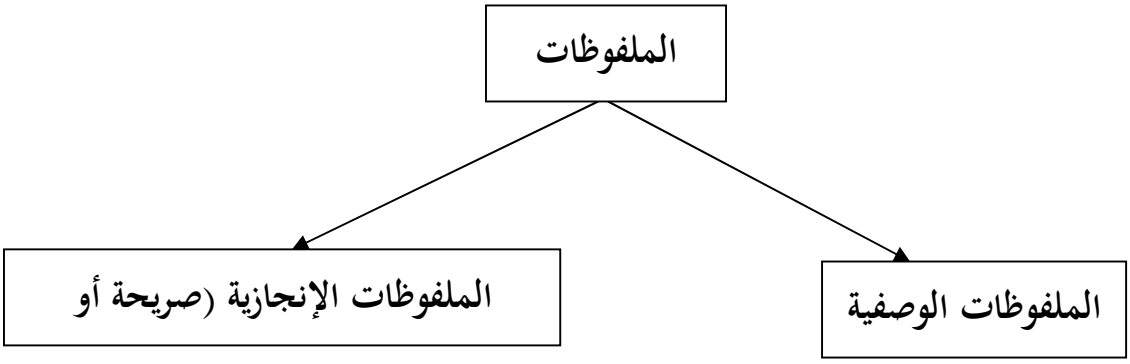

توصّل "أوستن" في آخر أبحاثه اللغوية إلى تقسيم الفعل الكلامي الكامل إلى ثلاثة أفعال فرعية:فعل القول(قول شيء معين) ، والفعل المتضمن في القول(إنجاز فعل ما) ، الفعل الناتج عن القول(الآثار المترتبة على ذلك) .

ففي فعل القول ينتج المتكلم ملفوظا يتوفر على دلالة ، وفي الفعل اللاقوليّ ينجز بالقول شيئا، ويترتب عن كلّ ذلك أثرا في المستمع مثل "جعل شخص ما يعتقد أن شيئا ما هو كذلك ، إقناعه بالقيام بأمرها، إغضابه، شدّ أزره"[2] وتبعا لهذه المعايير ميّز أوستن بين الأفعال الحُكمية والتنفيذية والتعهدية والسلوكية والعرضية .

[1]-نعمان بوقرة ، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، جدارا للكتاب العالمي، عمان الأردن، ط1 ، 2009 ، ص ص 89 - 90 .

[2]-صابر الحباشة ، لسانيات الخطاب الأسلوبية التلفظ والتداولية ،دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص 204 .

إن الفعل الكلامي هو ما ينجزه الإنسان بالكلام ، وإذا طبقنا هذا المعنى على اللغة العربية "فإن المقاصد والمعاني والإفادات التي تستفاد من صيغ التواصل العربيّ وألفاظه: كمعاني الأساليب العربية المختلفة ، خبرية كانت أم إنشائية ، ودلالات حروف المعاني ، ودلالات الخوالف، وأصناف أخرى من الصيغ والأساليب العربية ... هي التي تمثل الأفعال الكلامية في التراث العربي" [1] ويمنح هذا التصور أفقا رحبا لاستثمار هذا المفهوم التداولي المعاصر في قراءة النصوص التراثية.

إنّ الخطاب الأدبي وفق هذه المقاربة ليس مجرد خطاب حامل لمجموعة من المعلومات بل هو عبارة عن أفعال كلامية تتوخى التأثير في وضع المخاطَب بفضل الطاقة الإنجازية التي تحملها ملفوظات المتكلم .

2-2- نظرية الملاءمة :Théorie de la pertinence :

وهو مفهوم تداولي أرسى معالمه كل من الباحث اللساني الفرنسي سبربر Sperber واللساني البريطاني ولسون D.WILSON، و"لعل أهم ميزة تتميز بها نظرية " الملاءمة " تصورها للسياق، إذ لم يعد شيئا معطى بشكل نهائي أو محددا قبل عملية الفهم، وإنما يبنى تبعا لتوالي الأقوال."[2] وحسب الإفتراضات السياقية التي تستمد من المحيط الخارجي الذي يجرى فيه التواصل اللساني .

2-3- مبدأ القصدية : L'intentionnalité :

يتجلى هذا المبدأ في " الربط بين التراكيب اللغوية ومراعاة غرض المتكلم والمقصد العام من الخطاب، في إطار مفاهيمي مستوف للأبعاد التداولية للظاهرة اللغوية "[3].

---

[1]- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة «الأفعال الكلاميّة» ، دار الطليعة بيروت، ط 1، 2005 ، ص 10.

[2]-مسعود صحراوي، في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي ، ضمن الكتاب الجماعي : التداوليات علم استعمال اللغة ، عالم الكتب الحديث، ط 2 ، 2014 ، ص 50 .

[3]- مسعود صحراوي ، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة «الأفعال الكلاميّة» ، ص 10.

2-4- الاستلزام الحواري : L'implication conversationnelle :

وظهر هذا المفهوم مع غرايس الذي حاول أن يضع قواعد للخطاب على أسس تداولية تأخذ بعين الاعتبار كلّ ما يتعلق بعملية التخاطب، فهو يؤكد أن التأويل الدلالي للكثير من الجمل "يصبح متعذرا إذا تم الاقتصار فيه فقط على المعطيات الجاهزة . الأمر الذي يتطلب تأويلا دلاليا آخر ،ومن ثمة يتم الانتقال من المعنى الصريح إلى معنى غير مصرح به: معنى مستلزم حواريا "[1] وعليه فهذا الاستلزام هو آلية من آليات إنتاج الخطاب .وتجدر الإشارة أنه تفرع عن هذا المبدأ التداولي قوانين أخرى ، لعلّ من أهمها مبدأ التعاون الذي مفاده أن على أطراف الحوار أن تتعاون فيما بينها على تحقيق الهدف من الحوار الذي دخلا فيه .

2-5- متضمنات القول Les implicites :

وهو مفهوم تداولي إجرائي يتعلق برصد الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب ، وهي ترتكز في معظمها على الافتراضات المسبقة pré-supposition ، فكل تواصل لساني ينطلق من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهم " وهي محتواة ضمن السياقات والبنى التركيبية العامة "[2]، وهناك نمط آخر من متضمنات القول هو الأقوال المضمرة Les Sous-entendus، وهي لا تتحدد على أساس معطيات لغوية فقط ، بل ترتبط بوضعية الخطاب ومقامه ومثال ذلك قول القائل "إنّ السماء ممطرة " فالسامع لهذا الملفوظ قد يعتقد أن المتكلم أراد أن يدعوه إلى :

- المكوث في البيت .
- أو عدم نسيان المظلة عند الخروج .
- أو الانتظار حتى يتوقف المطر

[1]-العياشي أدراوي ، الاستلزام الحواري في التداول اللساني ،منشورات الاختلاف ، ط1 ، 2011 ، ص 18.

[2]- مسعود صحراوي ، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة «الأفعال الكلاميّة» ، ص31 .

وقائمة التأويلات مفتوحة مع تعدد السياقات والطبقات المقامية التي ينجز ضمنها الخطاب.

2-6-أفعال الكلام وقواعد التخاطب

وفحواه أنه " كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري "[1]ويلاحظ أوستين أن كل فعل كلامي يمتاز بثلاث خصائص :

- إنه فعل دال.
- إنه فعل إنجازي.
- إنه فعل تأثيري .

تهتم اللسانيات التداولية La linguistique pragmatique بالخطاب الحواري وخصائص التفاعل التواصلي المميزة له ، فإذا كانت التداولية استحضرت الإنسان في اللغة "فإنها استحضرت معه قيمة التفاعل وكيّفت معه المعتقدات لكي يصير الاستعمال التداولي استعمالا حجاجيا واستدلاليا من حيث اضطلاعه بالدورة الحوارية كما يقتضيه التفاعل التواصلي بين أطراف الحوار"[2] فالقيمة التفاعلية للحوار تتحدد بالاستعمال التواصلي للعلامات ، وهو استعمال ذو طبيعة حجاجية، فطرفا الخطاب يستعملان فيه كل الوسائل والآليات المنطقية والبلاغية لأهداف إقناعية .

إنّ للسياق دورا مهما في تحليل الوحدات الحوارية الكبرى، فهي تمتاز بالتعدد السياقي، فأطراف الحوار يتعدون القصد الإخباري للأقوال إلى معاني تداولية تتحكم فيها ظروف الخطاب وملابساته. والسياق الأكثر تأثيرا في بلورة الخطاب الحواري هو السياق التفاعلي الذي يساهم في

[1]- المرجع السابق، ص 40.

[2]-محمد نظيف ، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، أفريقيا الشرق، 2010، ص 39.

تطور مضامين التخاطب. "كما أن هذا السياق يساهم في توضيح بعض الدلالات الغامضة التي يصل إليها الحوار"[1] .

ويعتبر التأويل جزءا مهما من السياق التفاعلي، فالتأويل الذي يمارسه المحاور هو الذي يضمن تسلسل عملية التخاطب ، فهو يساهم في تطور المضامين وتعدد الرؤى، ويخلق الاختلاف بين أطراف الحوار ، والاختلاف أقدر على تكوثر الخطاب.

حاول غرايس تتبع قواعد الحوار ، فحصرها في أربعة أقسام يندرج كل قسم منها في تحت مقولة خاصة ، وهي الكم والكيف والإضافة (أو العلاقة) والجهة ، وهذه الأقسام الأربعة من قواعد التخاطب هي :[2]

1-قاعدتا كم الخبر، وهما :

أ- لتكن إفادتك المخاطب على قدر حاجته .

ب- لا تجعل إفادتك تتعدى القدر المطلوب .

2- قاعدتا كيف الخبر ، وهما :

أ- لا تقل ما تعلم كذبه .

ب- لا تقل ما ليست لك عليه بينة .

3- قاعدة علاقة الخبر بمقتضى الحال ، وهي :

- ليناسب مقالك مقامك .

[1]-محمد نظيف ، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي ، ص 43.

[2]-طه عبد الرحمن ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، ص ص 238-239.

4- قواعد جهة الخبر، وهي :

أ- لتحترز من الالتباس

ب-لتحترز من الإجمال

ج- لتتكلم بإيجاز

د- لترتب كلامك

إنّ هذه القواعد التخاطبية المتفرعة على مبدأ التعاون هي ضوابط الحوار التي تضمن تحقيق الفائدة التواصلية من التفاعل اللساني ، بحيث تصل المعاني من المتكلم إلى السامع دون غموض أو التباس، ورغم أن مبدأ التعاون والقواعد المتولدة منه فتحت الباب واسعا للتداوليات اللسانية إلا أنّها تهتم بالجانب التبليغي فقط، وتهمل الجانب التهذيبي لذلك حاولت روبين لاكوف Robin LAKOFF استدراك هذه النقائص بوضعها لمبدأ التأدب ، وجعلت له القواعد التهذيبية الثلاث الآتية :[1]

- **قاعدة التعفف:** ومقتضاها هو "لا تفرض نفسك على المخاطب"، وتوجب هذه القاعدة على المتكلم استعمال كل ما من شأنه تقريب المسافة من المخاطب .
- **قاعدة التشكك** : ومقتضاها هو لتجعل المخاطب يختار بنفسه، وتقتضي هذه القاعدة بأن يتجنب المتكلم أساليب التقرير ويأخذ بأساليب الاستفهام كما لو كان متشككا في مقاصده.
- **قاعدة التودد:** ومقتضاها لتظهر الود للمخاطب.

[1]- ينظر، المرجع السابق، ص 241

ويتبين أن قواعد التهذيب المتعلقة بالتخاطب ترتكز على المبدأ التعاوني الذي جاء به "غرايس" إلا أنها تقدم التهذيب على التبليغ .

أما المبدأ التداولي الثالث ، فهو" مبدأ التأدب الأقصى " الذي أورده ليتش LEECH الذي يدعو فيه المتكلم من الإكثار من الكلام المؤدب والتقليل من الكلام غير المؤدب لربح الغير وعدم خسارته ، وبهذا يتفادى المنازعة والمخالفة ، وكل ما من شأنه أن يمنع التعاون الحواري .

اهتم البحث التداولي بتحليل الخطاب الحواري ، معتبرا التفاعل التواصلي تفعيلا للكفايات l'actualisation des compétences التي تؤطر التخاطب ، وأول هذه الكفايات الكفاية اللسانية la compétence linguistique التي تقوم على تخير اللفظ المناسب للمعاني التي يراد إيصالها ، وبهذا يتم تفادي انزلاقات الفهم الخاطئ لدى أطراف الحوار.وتتقاطع الكفاية اللسانية مع الكفاية المميزة la compétence distinctive التي تساعد على الوقوف على كل المصطلحات والتعابير التي تبين طبيعة مواقف المحاور اتجاه مختلف المسائل ، إنّها " تفرز كل العناصر التي تساعد على معرفة الهوية والانتماء "[1] .

وهناك الكفاية الثقافية أو الموسوعية وتتضمن "مجموع المعارف الضمنية التي يملكونها عن العالم"[2].

أما الكفاية الإيديولوجية فهي تؤطر الخلفية الفكرية لأطراف الحوار، وتعكس تقييم المتكلم للعالم المرجعي، وتتشكل الكفاية التداولية la compétence pragmatique من "مجموع المعارف التي يملكها متكلم حول اشتغال مبادئه الخطابية"[3] فهي إذن تعكس مدى التزام المتكلم

[1]-محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، ص 195.

[2]- أ.مولز – ك . زيلتمان – ك . أوريكيوني ، في التداولية المعاصرة والتواصل- فصول مختارة -، ترجمة وتعليق: محمد نظيف ، أفريقيا الشرق المغرب ، 2014 ، ص 54.

[3]- المرجع نفسه ، ص131.

بالمبادئ التي تمكنه من المشاركة الصادقة في التبادل الكلامي، وينبثق عن هاته الكفاية النشاط الحجاجي الذي يحضر في كل تبادل حواري.

3- الخطاب بين التخييل والتداول:

انحصر التأمل في الخطاب الأدبي العربي البليغ منذ القدم على الشعر مما أفرز الكثير من المصطلحات التي حاولت فهمه وكشف أسراره ، ويرجح الدارسون أن يكون مصطلح " البديع "الذي استعمله ابن المعتز عنوانا لكتابه في القرن الثالث للهجرة ، أقدم تأمل في الخطاب الأدبي من منظور الخصوصية التعبيرية، فهو أهم تأليف توجه "إلى استخلاص السمات الفنية والجمالية التي تحدد أدبية الأدب في النظام البلاغي العربي ."[1] فكان هذا العمل أهم إنجاز في تاريخ التأسيس للشعرية العربية .

ثم توسعت البلاغة العربية لتحيط بالأنواع الخطابية الأخرى، فصار موضوعها الخطاب الاحتمالي بنوعيه التخييلي الشعري ، والتداولي الخطابي . وهو الإنجاز الذي تحقق على يد مجوعة من النقاد والبلاغيين كالجاحظ الذي اهتم ببلاغة الخطابة، وانطلق في تأسيسه لنظرية البيان على قدرة المتكلم على التأثير في السامع لإيقاع التصديق وتحقيق المقاصد ، فمدار الأمر حسب عبارته المشهورة هو الفهم والإفهام ، وهو اعتبار جعله يهتم بالتنظير لمقومات الخطاب الإقناعي انطلاقا من مراعاة المقام وأحوال المخاطبين يقول : "والمعنى ليس يشرف من أن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة ، بل مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من مقال "[2] فالبلاغة في جوهرها قائمة على مراعاة وظيفية الخطاب ونجاعته ، فالمتكلم يراعي في كلامه الغايات والمقاصد التي يرسمها لخطابه.

---

[1]- مصطفى الغرافي ، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال " منهاج البلغاء وسراج الأدباء "، عالم الفكر، العدد 1، المجلد 40، يوليو- سبتمبر 2011، ص 254.

[2]-الجاحظ ، البيان والتبيين، ج1، ص 91.

وأمّا حازم القرطاجني فبنى مشروعه النقدي على أساس شعري لا يهمل الأبعاد القصدية للخطاب ، فعلى الرغم من أنه وجّه كتابه (المنهاج) نحو بلاغة الشعر تخصيصا ، فإن الدارس لا يعدم عنده اهتمام بمقاصد العملية الإبداعية مما يفتح بلاغته على المجال التداولي بشكل عام .

ومن القضايا التي تكشف هذا الاهتمام : [1]

أ- إلحاحه على وظيفة النص الشعري ، بالنظر إلى مقاصد منجزه .

ب- اهتمامه بالمقام التواصلي الذي يدخل في سياق التبليغ الخطابي .

ت- انشغاله بقضية التداخل بين الخطابات ، من خلال المقارنة بين التخييل والتصديق .

ث- عنايته بالغرض بوصفه معيارا موجها في قراءة النص الشعري .

إنّ النظرية الشعرية عند حازم تومئ بأنه يعتبر النصّ الأدبي مزجا بين الشعر والخطابة، إذ يلتقيان في الغرض والمقصد، وهو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر بمقتضاه ، ولكن كلّ نوع خطابي يعتمد على وسائل محددة من التأثير، فلا يجوز للشاعر أن يخطب إلاّ في القليل من كلامه ، ولا يجوز للخطيب أن يشعر إلاّ في القليل من كلامه، وتتفق هذه النظرة البلاغية مع آراء هنريش بليث الذي يعتبر أن" النصّ الشعري يحتوي عناصر شعرية وعناصر إخبارية، وإذا وقعت انزلاقات في تراتبية الوظائف النصية ، تبعا لتغيير في نمط التلقي، فقد ينتج عن ذلك شعرنة نص أو ضياع شاعريته ... وينبغي ترتيب الصور اللسانية حسب الهيمنة الوظيفية "[2].

إنّ البعد التداولي للبلاغة يتولد من اهتمامها بمفهوم المقام الخطابيّ ، فالظاهرة البلاغية ظاهرة لغوية متجسدة في الخطاب خاضعة لشروط القول ومقصدية الكلام ، وعليه يهتم المخاطب بالإقناع أولا ثم التعبير الجيد لاحقا، وبهذا الاعتبار " فالبلاغة تمثل منهجا للفهم النصي مرجعه التأثير، وعندما

[1]- مصطفى الغرافي ، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال " منهاج البلغاء وسراج الأدباء "، ص 256.

[2]- هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية ، تر: محمد العمري، أفريقيا الشرق ، 1999 ، ص103.

نفكر، وفق المفاهيم البلاغية، فإننا ننظر إلى النص من زاوية نظر المستمع / القارئ، ونجعله تابعا لمقصدية الأثر "[1] .

تفطن البلاغيون العرب منذ القدم إلى أن البلاغة تتسع لبلاغات مخصوصة، فيغدو كل نوع من الخطابات الأدبية متملكا لخصائص نوعية فارقة تشكل بلاغته المخصوصة، ومن الإشارات والتنبيهات التي تكشف عن هذا الوعي المبكر ما أورده الجاحظ في تحديد البلاغة مأثورا عن ابن المقفع " البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون ابتداء ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون خطابا، ومنها ما يكون رسائل"[2]، إن هذا التفريع ينطلق من استثمار جميع أصناف البيان، ومختلف مظاهر الكلام وتتجاوز ذلك ليشمل مختلف الأنظمة السيميائية التي تساهم في بناء المعنى .

إن هذه الرؤية تتقاطع مع البلاغة الجديدة في تركيزها على الجمع بين المتعة والفائدة وفي إعادتها الاعتبار للكثير من أنواع الخطابات التي ظلّت مهمشة في الدراسات الأدبيّة، ولاقت هذه الآراء انتشارا في ظل ظهور المقاربة التداوليّة للخطاب التي عرفت في ميدانها الإجرائي بدراسة الجانب الوظيفي والسياقي، ومجمل العلاقات الموجودة بين المتكلم والمخاطب مع التركيز على البعد الحجاجي والإقناعي داخل النص .

اهتمّت التداولية بالخطاب، واعتبرت أنه من التعسف الاكتفاء بمستوى محدد من مستوياته اللغوية وإهمال المستويات الأخرى، إذ لا يمكن فهم النظام اللغوي مثلا بإقصاء المستوى التداولي، فسياق التلفظ هو الذي يحدد معنى الملفوظات "أي أن المعنى كقيمة للملفوظ لا تتحكم فيه اللغة

[1]-المرجع السابق، ص 24.

[2]-الجاحظ، البيان والتبيين ، ج1، ص 78.

بقدر ما يتحكم فيه مستعملوها"[1] ولذلك صارت مرجعية الاستعمال هي أساس فهم وتأويل الخطاب.

إنّ المقاربة التداولية هي من أهم المقاربات التي انفتحت على ظروف العملية التخاطبية فحتى الشعر مثلا لم يعد لعبا بالألفاظ ولا نقل تجربة ذاتية فحسب "وإنما يهدف فوق ذلك كله إلى الحث والتحريض. وبهذا المفهوم الأخير، تشمله نظرية الكلام فعل، أو التداولية، وتعني هذه النظرية أن التحدث يقصد به تبادل الأخبار، وفي الوقت نفسه، يهدف إلى تغيير وضع المتلقي وتغيير نظام معتقداته "[2].

لم تقتصر قراءة النص الأدبي على البنيات الداخلية المغلقة ، بل انفتحت على القراءة السياقية التي تأخذ بعين الاعتبار الظروف والملابسات التي تحف عملية التخاطب ،وبهذا ركّز العمل النقدي على مقصدية الخطاب ،ووقف على دورها في بناء النصوص وإنتاج الدلالة، فالأبعاد التداولية المميزة للإنتاج اللغوي هي البوصلة التي توجه المعنى لذلك لا تتشكل لغة النص بطريقة عشوائية، بل وفق نظام يستثمر الوظائف السياقية للتأثير على المتلقي .

إن الحديث عن الأثر الذي يحدثه الخطاب في السامعين أدى ظهور اتجاه تداولي جديد يبحث في الآليات اللغوية التي تساهم في الإقناع ، ويطلق على هذا الاتجاه : التداولية الحجاجية ، وخير من يمثل هذا الاتجاه ديكرو(Ducrot) الذي أضفى بعدا إقناعيا على الملفوظ ، ويركز تحليل الخطاب على ضوء هذه المقاربة على البعد الحجاجي في النص باستكشاف العوامل الحجاجية اللغوية والتشديد على السلم الحجاجي الذي يوجه مسار الحجاج .

[1]-عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب : مقاربة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1 ، 2004 ، ص 23.

[2]-محمد مفتاح ، في سيمياء الشعر القديم ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط1، 1989، ص55.

استحضرت هذه البحوث التداولية التفاعل الحاصل بين طرفي الخطاب، واهتمت بقصدية الحجاج و"صار الاستعمال التداولي استعمالا حجاجيا واستدلاليا من حيث اضطلاعه بالدورة الحوارية كما يقتضيها التفاعل التواصلي بين أطراف الحوار."[1] فالمتكلم يوظف كل الآليات المنطقية والبلاغية المتاحة لأهداف إقناعية بهدف تحقيق التفاعل الإيجابي .

[1]-محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، ص 39.

ثالثا : ماهية استراتيجيات الخطاب وأنواعها

1- مفهوم الإستراتيجية

تعدّ الإستراتيجية مصطلحا عسكريا بالأساس، فهي مأخوذة في أصلها من الكلمة الإغريقية strato التي تعني الجيش أو الحشود ثم سرعان ما وجد لها طريقا إلى ميادين الاقتصاد والتعليم ليصير أخيرا مستخدما في مجال الأفكار وأنظمة الخطاب المعرفي، وقد استخدم ميشال فوكو مصطلح تكون الإستراتيجيات[1].

فالإستراتيجية تعني فن الإدارة والقيادة ونتيجة للتطور الفكري صار لكل حقل من الحقول المعرفية إستراتيجياته الخاصة التي تلائم اعتباراته ومعطياته، ولضمان نجاح الإستراتيجية ينبغي توافق وتآزر وتكامل كافة الإستراتيجيات المختلفة " لكي تؤدي مجتمعة ومتظافرة إلى تحقيق الهدف العام"[2].

وضمانا لهذا التكامل والتظافر، اهتمت الاستراتيجية بوضع طرق محددة لتناول مشكلة ما أو للقيام بمهمة من المهمات ، فهي في جوهرها " مجموعة عمليات تهدف إلى بلوغ غايات معينة ، أو هي تدابير مرسومة من أجل ضبط معلومات محددة ، والتحكم بها "[3].

تتعدد الاستراتيجيات بتعدد الظروف المحيطة ، فما يكون مناسبا في موقف ما ، قد لا يكون في موقف آخر . فهي إذن تتنوع بتنوع العناصر السياقية.

[1]- ينظر، ميشال فوكو، حفريات المعرفة، تر: سالم يغوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 1987، ص 60.

[2]- الحواس مسعودي، النصوص الحجاجية ، مجلة اللغة والأدب العربي ، جامعة الجزائر ، العدد 14 ، ديسمبر 1999، ص278.

[3]- عبد الرحمن العبدان وراشد درويش، استراتيجيات تعلم اللغة العربية بوصفها لغة ثانية، مجلة أم القرى، العدد 16، 1997، ص 324.

إنّ الإنسان لا يستطيع أن يمارس أفعاله في وضع مستقل عن سياق المجتمع الذي ينتمي إليه ، بل هو ينجز كلامه بمراعاة " الأطر التي تحف بعمله أولا أي عناصر السياق وتمكنه من تحقيق هدفه ثانيا "[1].

وبهذا التصور ،تكون الإستراتيجية خاصية إنسانية ذات بعد تخطيطي ، تتحقق بفضل العقل، وتتجسد بتسخير الأدوات والآليات المختلفة للوصول إلى الغرض المنشود ،ولا يتمّ ذلك إلّا بالمفاضلة بين الإمكانيات المتاحة ،ويلعب السياق دورا مهما في ترجيح طريقة على أخرى .

2-ماهية إستراتيجية الخطاب:

يتسع مفهوم الإستراتيجية ليشمل مختلف مجالات الحياة كالمجال الاجتماعيّ ، والمجال التعليميّ والمجال السياسيّ أو الاقتصاديّ ، فكلّها يخضع للتخطيط المسبق للوصول إلى النتائج والأهداف المرجوة .

يسعى المتكلم جاهدا أثناء إنجاز خطابه لتحقيق أهدافه بإتباع خطط معينة هي التي يمكن أن نسميها استراتيجيات، وهي تظهر من خلال أنساق لغوية محددة ،وترتبط دوما بظروف إنتاج الخطاب .

يعتبر مانغينو وشارودو من أهم الباحثين الذين اهتموا بالإستراتيجية الخطابية، وانطلقا في تصورهما من اعتبارها قائمة على الخيارات الممكنة للمتخاطبين أثناء الإنتاج اللغوي ففي تحليل الخطاب تكون الاستراتيجيات " راجعة إلى ذات (فردية أو جماعية) تُحمل على اختيار (عن وعي أو عن غير وعي) عدد من العمليات اللغوية " [2] .

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب : مقاربة لغوية تداولية، ص 52.

[2]- باتريك شارودو و دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص 533.

تتبوأ الاستراتيجيات مكانة مهمة في الخطاب، فهي تحدد الطرائق التي يستعين بها منجز الخطاب في توصيل مقاصده ، ويمكن الوقوف على خصوصية الإستراتيجية الخطابية بفهم الاختيارات الأسلوبية والبلاغية التي يعتمد عليها المتكلم في بناء خطابه .

تعنى استراتيجيات الخطاب بطريقة تعامل المتكلم مع النظام اللغوي ،فهي تنطلق من خصائص استعمال النسق اللساني ،وعلاقته بفاعلية السياق ،وأثره على بنية الخطاب ومعناه ، وهذا لا يتحقق إلّا بالاستفادة من البحوث التداولية التي تحاول إيجاد تفاسير لبعض الأنساق اللغوية المبثوثة في النص ، فخصائص الخطاب " تتحدد بواسطة بنية المتداولين للغة والمستعملين لها، وبواسطة إجازات قوى فعل الكلام وتناول المعلومات في كل تجاوز " [1].

إنّ هذه المقاربة تنظر للغة بكونها إنجازا اجتماعيا مخططا له من طرف المتكلم، فبفضلها يتمّ إقامة العلاقات بين الأفراد، وقد " تتجاوزها في التعامل اليومي بين الناس إلى التبليغ والإقناع"[2].

وبهذا يمكن إدراك أنّ إستراتيجية الخطاب تنطلق من الكفاءة التداولية لمستعملي اللغة، فالمخاطِب يبحث عن المسار المناسب لتوصيل مقاصده وتحقيق نجاعة خطابه، لذلك يستثمر ظروف إنتاج القول، منطلقا من أنّ هناك دائما "سياقا عاما وراء أي خطاب لغوي "،[3] ولا يمكن للخطاب أن يتشكل إلّا وفق أحوال السامعين ومستوياتهم .

إنّ الخيارات التي يأخذ بها المتكلم في حديثه ليست عشوائية، بل تمتاز بالطابع الموضوعي والمنطقي ، فلا يقوم البعد الدلالي للحدث اللساني على العلاقات التي تفرزها عناصره اللغوية فحسب

[1] –عمر معراجي ، النص بين الدلالة والتداول ، منشورات دار القدس العربي ، 2011 ، ص 171.

[2] – عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص 10.

[3] –محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص) ، المركز الثقافي العربي ، ط3 ، 1992 ، ص 70.

"بل يستمد أيضا من علاقات الموقف الاتصالي الذي يقوم هو الآخر على عناصر متعددة تتلاقى مع المعطى التعبيري" [1].

إنّ للخطاب أنماطا مختلفة ، ولا تتحدد الإستراتيجية إلاّ حسب نمط الخطاب الذي تتحكم فيه " تظافر مجموعة من الوسائط أهمها أربعة هي : موضوع الخطاب وهدفه وبنيته وأسلوبه "[2] فليس للخطاب الحجاجي مثلا البنية والأسلوب الذين للخطاب السردي أو الخطاب العلمي .

يجب ربط إستراتيجية الخطاب بالوظيفة الأساسية التي تؤديها اللغة في ذلك الخطاب ، ومن هذا المنظور تعد العبارات اللغوية مفردات كانت أم جملا " وسائل تستخدم لتأدية أغراض تواصلية معينة ، وتقارب خصائصها البنيوية على هذا الأساس "[3] ، ومادامت أهداف الناس متباينة ،فإنه من الواجب تنويع الاستراتيجيات ، لأنّ ذلك هو السبيل الوحيد للتأثير على الجمهور الكوني .

يجب الأخذ بعين الاعتبار أن للغة من المنظور التداولي وظيفتين رئيسيتين هما :

- **الوظيفة التعاملية** :وهي ما تقوم به اللغة من نقل ناجح للمعلومات المتعلقة بالوقائع والأقوال، حيث يركز المرسل فيها جهده على بناء الخطاب ليستطيع المرسل إليه أن يأخذ منه المعلومات الصحيحة والدقيقة .
- **الوظيفة التفاعلية:** لا يستعمل المتكلم اللغة لأداء وظيفة مرجعية فقط بل يستعملها في أغلب الاستعمالات لأداء وظيفة تداولية تتفاوت بحسب القصد، فقد يوظفها لتثبيت العلاقات الاجتماعية أو إحداث التأثير في السامعين .[4]

[1]- عبد الحليم بن عيسى ، البنية التركيبية للحدث اللساني، ص 83.

[2]- أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي ، الأصول والامتداد ، ص 32.

[3]- المرجع نفسه ، ص 20.

[4]- ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية ، ص ص 18-19.

وتجدر الإشارة أنّ المرسل يتلفظ بخطابه على أساس اختيار ما يعبر عن مقصده ، فيوظف العلامات اللغوية وغير اللغوية، ويستثمر جميع عناصر السياق، ويستعين بكل الإمكانات البلاغية والأسلوبيّة والمنطقيّة التي تضمن تحقيق الأثر المطلوب لدى المتلقي، ولا يمكن إهمال دور المقومات المقامية في تحقيق نجاعة هذا المسار الخطابي .

فالخطاب الناجح هو الذي يراعي المراحل الآتية :[1]

- إدراك السياق الذي يجري فيه التواصل بكل أبعاده المؤثرة .
- تحديد العلاقة بين السياق والعلامة المستعملة ليتم اختيار الإستراتيجية الخطابية الملائمة .
- التلفظ بالخطاب

وإجمالا ، يمكن القول بأنّ المرسل يشكل خطابه بمراعاة المعطيات السياقية واختيار العلامات المناسبة واستغلال القوة الإنجازية للأفعال الكلامية .

3- معايير تصنيفها

يتوخى المتكلم لتحقيق أهدافه استراتيجيات متعددة قد تفوق الحصر ، ومع هذا يمكن تصنيفها حسب ثلاثة معايير : طبيعة العلاقات التخاطبية بين أطراف الحدث اللساني ،لغة الخطاب ، وهدف الخطاب.

تعتبر العلاقة بين طرفي الخطاب من العناصر الهامة المكونة للسياق ،فهي تتحكم في الاختيارات اللغوية للمتكلم وتؤطر عملية التلفظ بالخطاب، وعلى ضوء هذا المعطيات يمكن فهم الإستراتيجية التضامنية التي يتبعها المرسل مع أصدقائه ومع من تجمعه بهم الألفة، كما يمكن فهم الإستراتيجية التوجيهية التي تعلي من سلطة المتكلم وتحقق قصدية التوجيه بفضل مجموعة من الأدوات والأساليب اللغوية كأساليب الأمر والنهي، التحذير والإغراء.

[1]- المرجع السابق، ص 63.

ومن المظاهر التي تتجسد فيها العلاقة بين المرسل والمرسل إليه ما يسمى بظاهرة التأدب في الخطاب، وفرعت لاكوف ثلاثة قواعد عن هذا المبدأ سمتها قواعد تهذيب الخطاب إذ يتلفظ المتكلم بخطابه وفقا لواحدة منها أو أكثر وهي :

- **قاعدة التعفف:** وهي لا تفرض نفسك على المرسل إليه، فلتبق متحفظا ولا تتطفل على شؤون الآخرين.
- **قاعدة التخيير أو التشكك** : وهي لتجعل المخاطب يتخذ قرارات بنفسه ودع خياراته مفتوحة .
- **قاعدة التودد** : وهي لتظهر الود للمرسل إليه[1].

وتضبط هذه القواعد الجانب التهذيبي من التخاطب ،ولا يمكن إسقاطها لفهم الخطاب الذي يسعى فيه المتكلم لإظهار الود أو التخلق مع الآخرين .

يتمثل المعيار الثاني لتصنيف استراتيجيات الخطاب في دلالة الشكل اللغوي على المعنى المقصود لدى المرسل، ويكون القصد إما قصدا مباشرا وإما قصدا غير مباشر يفهم من سياق الخطاب، وعليه يمكن الحديث عن إستراتيجيتان خطابيتان مختلفتان، تركز الأولى على المعنى الحرفي، في حين تعتمد الإستراتيجية الثانية على التلميح، وتربط البحوث التداولية هذا المعنى بالقوة الانجازية المستلزمة من عبارة لغوية ما، و"يمكن أن يدلّ عليها بواسطة مؤشرات ذات طبيعة متباينة، من هذه المؤشرات: التنغيم والرتبة ونمط معين من الأدوات تحتل غالبا صدر الجملة وفعل ينتمي إلى زمرة الأفعال الإنجازية."[2]

[1]- ينظر، طه عبد الرحمن ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص ص 240-241.

[2]- أحمد المتوكل ، آفاق جديدة في النحو الوظيفي ، سلسلة بحوث ودراسات ، رقم 5 ، 1993، ص 81.

يمكن القول: إنّ قصد المرسل لا يحدده الشكل الخطابي فقط، فقد يطابق شكل الخطاب قصد المرسل وقد لا يطابقه، وقد تفطن عبد القاهر الجرجاني مبكرا لذلك فاعتبر الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده و"ضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثمّ تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل به إلى الغرض .ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل "[1].

ففي النوع الأول تصل إلى المعنى من ظاهر اللفظ بغير واسطة، وفي النوع الثاني يكون المقصود هو معنى المعنى ، فاللفظ يدلك على معنى معين ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر .

وأمّا المعيار الثالث لتصنيف الاستراتيجيات فهو الهدف من الخطاب، فالمرسل لا ينتج خطابه اعتباطا، بل ينتجه من أجل تحقيق هدف معين، ونقصد بالهدف ما يسعى المتكلم إلى تحقيقه بأفعاله، فلا يمكن فهم أي نشاط لغوي إلاّ بربطه بالدوافع التي تقف وراءه ، وهذا يؤدي إلى اعتبار " أنّ لكل خطاب هدفا "[2] فهو الباعث على التلفظ .

يقوم اختيار الإستراتيجية الخطابية المناسبة على التصور الذي يعتمد على أفضل السبل الفعلية التي من أجلها يتم تحقيق الهدف ، فالمرسل يحاول جاهدا لتحقيق أغراضه وأهدافه ، ومنها الإقناع الذي يستلزم إستراتيجية معينة يمكن أن نسميها إستراتيجية الإقناع التي توظف آليات متعددة مثل الآليات الحجاجية التي تتخذ فيها الأقوال "أدلة تساق أمام المرسل إليه حتى يقنعه دون تلاعب بعواطفه، أو تغرير به، ويوظف لها كافة العمليات شبه المنطقية التي تتجسد باللغة الطبيعية"[3].

[1]- عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 262.

[2]- عبد الهادي بن ظافرا لشهري ، استراتيجيات الخطاب : مقاربة لغوية تداولية ، ص 149.

[3]- محمد يحياتن ، تحليل الخطاب من خلال نظرية الحديث والتلفظ ، مجلة اللغة والأدب ، جامعة الجزائر ، العدد 14 ، ديسمبر 1999 ، ص 337.

وقد لا يصرح المرسل بهدف الخطاب ، فينجزه عبر إستراتيجية محددة تستثمر أدوات وقرائن مختلفة لتحقيق مآرب كثيرة دون التلفظ بمضمونها صراحة ، فما تنجزه الملفوظات من وظائف هو تجسيد للأهداف المتوخاة ، وهكذا " قد يحقق هدف المرسل دون أن يشعر المرسل إليه بذلك "[1].

يعد شميث من أهم الباحثين الذين صنّفوا الخطاب حسب معيار الهدف ، فالخطاب يكون إخباريا إذا كان الغرض منه إبلاغ خبر ، وقد يكون الخطاب توجيهيا إذا كان " الهدف الأول عن وضع النص : إثارة أورد فعل "[2].

إن للهدف أثر هام في تحديد الأدوات اللغوية التي تصب في الإستراتيجية المناسبة ويظهر ذلك في المستويات اللغوية المختلفة من مستوى صوتي وتركيبي ودلالي وصرفي .

4- أنواع الاستراتيجيات

تتأسس عملية التخاطب على مرسل ومرسل إليه ، ويتوجب على كل منهما مراعاة قوانين خطابية محددة لتحقيق نجاعة الخطاب ، ومدار الأمر على اختيار الإستراتيجية المناسبة لقصد المتكلم، ويتم ذلك وفق استعمال أساليب وأدوات لغوية تؤدي هذا الغرض ، ومن أهم هذه الاستراتيجيات:

4-1 استراتيجية الإقناع

يرمي المرسل إلى التأثير على المرسل إليه وإحداث تغيير في موقفه الفكري والعاطفي، ولتحقيق ذلك يستعين بإستراتيجية تداولية تعرف بإستراتيجية الإقناع ،وينبني هذا الفعل الواعي على "افتراضات سابقة بشأن عناصر السياق خصوصا المرسل إليه والخطابات السابقة والخطابات المتوقعة "[3].

[1]-عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية ، ص 151 .

[2]- عبد الرحمن بودرع ، نظرية تحليل النص من خلال الأصول اللسانية، مجلة الموقف، المغرب ، العدد 05، 1988، ص139.

[3]- عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب : مقاربة لغوية تداولية ، ص 444.

تركز الوظيفة الإقناعية على الأثر الذي يحدثه الخطاب لدى المتلقي ، فالمتكلم يستعمل اللغة لغايات نفعية، فسلوكه التخاطبي "يتحدد بقصد معين ، وكل سلوك قاصد يعتبر عملا بحيث يضبطه المبدأ التالي : ليكن سلوكك موجها بهدف معين " [1] .

يتشكل الخطاب الإقناعي وفق الإستراتيجية التي تحقق الهدف والغايات المتوخاة من عملية التخاطب، فمدار الكلام على استدراج المستمع إلى الإذعان والتسليم ، فلا انتفاع بإيراد الألفاظ الفصيحة ولا المعاني اللطيفة دون أن تكون مساهمة في تحقيق أغراض الخطاب .

إن توظيف آليات الإقناع في الحدث اللساني يرجع إلى عدد من المسوّغات، فمما يرجح استعمالها هو أن تأثيرها التداولي في المرسل إليه أقوى وديمومتها أبقى، فهي تمتاز بالشمولية، إذ تمارس على جميع الأصعدة، وتعمد على تنامي الخطاب، ولذلك صارت الإستراتيجية الحجاجية من أهم ملامح الخطاب المعاصر باعتبارها سلطة مقبولة لدى الجمهور .[2]

يعتبر الإقناع من أهم شروط التداول اللغوي، فالمرسل عندما يطالب غيره بمشاركة اعتقاداته فإن مطالبته لا تكتسي صبغة الإكراه " وإنما تتبع في تحصيل غرضها سبلا استدلالية متنوعة تجر الغير جرا إلى الاقتناع برأي المحاور، وقد تزدوج أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع، فتكون إذ ذاك، أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب، وتوجيه سلوكه لما يهبها هذا الإمتاع من قوة في استحضار الأشياء ونفوذ في إشهادها للمخاطب "[3] .

تفطن الإنسان منذ القدم لنجاعة الإستراتيجية الحجاجية ، ومن مظاهر ذلك اعتماد الإنسان العربي في الجاهلية على بناء كلامه وفق نظام محدد للخطاب يتوخى التأثير في المستمعين ، ونذكر من هذه المنجزات الخطابية: المنافرات القبلية التي تؤكد هذا المنحى البلاغي المتميز، ومع مجيء الإسلام

[1]- طه عبد الرحمن ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي ،ط2، 2000، ص ص 154-155 .

[2]- ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب : مقاربة لغوية تداولية ، ص ص 445-446.

[3]- طه عبد الرحمن ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، ص 38.

تنامت الخطابات التي تجسد هذه الإستراتيجية، خاصة أن القرآن جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى " فهو كتاب إصلاح وهل الحجاج إلا إصلاح يكون على وجه ما أو تهيئة لحصول ذلك الإصلاح " [1].

فالغرض الأكبر للذكر الحكيم هو إصلاح الأمة بأسرها ، بدعوة الناس إلى التوحيد وإصلاح أخلاقهم وتزكية نفوسهم ، وهي أغراض انبثقت من النص القرآني وارتبطت بأحوال المجتمع .

إنّ الصفة الأساسية التي وصف بها القرآن وجعلته يعتبر كتاب حجاج هي صفة التغيير التي سعى من خلال تعاليمه السماوية إلى إحداثها في المجتمع الإنساني ، فهو يتوخى التأثير في نفوس سامعيه ، وردّ ابن القيم الجوزية على من قال بخلو القرآن من كل حجة بقوله " ويظن جهال المنطقيين وفروع اليونان أن الشريعة خطاب الجمهور ولا احتجاج فيها ، وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطريقة الخطابة، والحجج للخواص، وهم أهل البيان يعنون أنفسهم ومن سلك طريقهم وكل هذا من جهلهم للقرآن، فإن القرآن مملوء بالحجج والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصنائع والميعاد "[2].

ينطلق القرآن الكريم في علاقته بمتلقيه من موقع المحاجة والسعي إلى الإقناع، فأسلوب القرآن ذو بعد حجاجي، والحجاج فيه ناشئ عن طريقة له في القول فضلا عن نشوئه من مضامين هذا القول ، فالنظر إلى المفردة القرآنية يقتضي " أن نأخذ بعين الاعتبار دورها الدلالي في التأثير والإقناع"[3] فهي قادرة على ذلك بفضل ما لها من قيم مختلفة بعضها مستمد من اللغة نفسها وبعضها مستمد من الاستعمال والتداول .

[1]– عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط 2 ،2007 ، ص ص614-615.

[2]–ابن القيم الجوزية ، مفتاح السعادة ، دار الكتاب العلمية ، بيروت لبنان ، ج 1 ، ص 220.

[3]– عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، ص 68.

وكان أدب الخطبة، وما زال، من أهم أنواع الخطاب الذي ينتجه المتكلم للإقناع، ولكن لم يبق الإقناع حكرا على هذا الفن، بل تعداه إلى الخطابات الأخرى كخطاب المناظرة الذي يستدعي "مستمعون مخصوصون، يجمع بينهم التنافس بين خطابات متعارضة، ينبغي الاختيار فيما بينها ويتعلق الأمر في كل حالة بترجيح كفة حكم ما على حكم آخر، وفي كل وضعية من الأوضاع المذكورة ، ثمة مناظرة تستدعي الحسم في قرارها "[1].

وبالرجوع إلى البحوث التداولية نفهم أهمية إستراتيجية الإقناع ومدى حضورها في مختلف الخطابات ، فاللغة تحمل في بنيتها الوظيفة الحجاجية، فالإقناع حاضر في كافة أشكال التخاطب، فحتى الشعر الغنائي لا يخلو من الأقاويل الإقناعية "فلا وجود لخطاب بريء يؤسسه صاحبه لغاية تأسيسه لا يروم عبره غاية تتجاوزه ولا ينشد به الفعل في متلق يخاطبه "[2] فالوظيفة النفعية من أهم أهداف الخطاب .

كان للإستراتيجية الإقناعية حضورا في الدرس التداولي ،ويتضح ذلك من خلال أعمال عدد من الباحثين أمثال أوستن وسيرل وديكرو وغيرهم ، وتتفق جهودهم في اعتبار الخطاب فعالية حوارية توظف الخطاب من أجل التأثير .

إنّ نظرية الأفعال الكلامية هي من أهم مجالات البحث التداولي التي تهتم بالقوة الإنجازية للملفوظات، فهي لم تهمل الطاقة الحجاجية لهذه الأفعال ،ولكنها تعتبر أنها "لا تستمد فعاليتها إلاّ من الشروط الاجتماعية لإنتاج وإعادة إنتاج المعرفة باللسان "[3] فقوة الأفعال الكلامية مستمدة من سياق الخطاب .

[1]- بول ريكور ، البلاغة والشعرية والهيرمينوطيقا ، ترجمة: مصطفى النحال ، مجلة فكر ونقد ، العدد 16 ، فبراير، 1999 ، ص109.

[2]- سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه ، عالم الكتب الحديث ،ط2 ،2011 ، ص ص 67-68.

[3]-محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ،دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1 ،2008، ص 191.

تعتبر آن روبول A.Reboul أنّ أوستين يميز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية العمل الأول هو العمل القولي، ويتحقق ما إن يتلفظ بشيء ما، أما الثاني فهو العمل المتضمن في القول ، وهو العمل الذي يتحقق بقولنا شيئا ما، وأما الثالث فهو عمل التأثير بالقول وهو العمل الذي يتحقق نتيجة قول شيء ما[1] .

وبهذا يتضح أن الكلام يتضمن فعلا حجاجيا، يظهر من خلال التلازم و الإقتضاء بين أفعال الكلام، ويتجسد في الآثار المترتبة عن الفعل، فاللغة "ليست أداة أو وسيلة للتخاطب والتفاهم والتواصل فحسب، وإنما اللغة وسيلتنا للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية"[2].

وانطلاقا من هذه المعطيات، يتضح أن الفعل الكلامي الأدائي يرتبط بالحجاج من خلال الإنجاز ، فالمرسل يسعى من خلال هذه الأفعال للتأثير على الآخرين ، ودفعهم إلى تعديل سلوكاتهم وعاداتهم وأفكارهم .

4-2 الإستراتيجية التضامنية:

يختار المرسل إستراتيجية خطابه انطلاقا من طبيعة علاقاته مع غيره، فقد تكون هذه العلاقة قائمة على السلطة فيوظف الإستراتيجية التوجيهية، وقد تتدنى درجة سلطة المتكلم فيستعين بإستراتيجية أخرى تدعى الإستراتيجية التضامنية.

تتجسد هذه الإستراتيجية من خلال أساليب وأدوات لغوية معينة ، تؤسس للتآزر والتضامن مع المرسل إليه ، ويظلّ استعمال الإستراتيجية التضامنية مرهونا بقصد المرسل وبهدف الخطاب وسعي المتكلم ومحاولته التقرب من المتلقين، وهكذا تتحقق للتضامن سمته الغالبة من أنه "يقلّص المسافات

[1]- ينظر، آن روبول وجاك موشلار ،التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، ص ص 31-32.

[2]- أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة ، ترجمة: عبد القادر قنيني ، أفريقيا الشرق .1991 ، ص 06.

ويقلل الدرجات، ممّا يضيق معه إطار الفرقة وتنتفي معه عوامل التشتت، حتى تصبح العلاقة في نهاية الخطاب أفضل منها في بدايته . "[1]

يتلفظ المرسل بخطابه ذي البعد التضامني بوضع نفسه مكان الآخر في إطار العلاقة التخاطبية، فمهما تكلم أحد إلا وأشرك معه المخاطب في إنشاء كلامه "كما لو كان يسمع كلامه بأذن غيره، وكأن الغير ينطق بلسانه " [2].

وإذا كانت العلاقة بسيطة أو غير موجودة بين طرفي الخطاب، فإن المرسل يسعى إلى تأسيسها، فدور المتكلم في هذا الخطاب هو تأسيس العلاقات مع الآخرين والسعي الجاد للمحافظة عليها .

يرتكز استعمال الإستراتيجية التضامنية على الإخلاص، ويتم إضفاء الشرعية على هذه القيمة عبر الخطاب الذي يعكس تودد المرسل للغير ، ويعتمد هذا المبدأ التجرد من الأنانية ، ويقتضي ذلك "بأن يقدم المتكلم حقوق المخاطب على حقوقه ، وليس في هذا التقديم حط من مكانة المتكلم ولا إضاعة لحقوقه" [3].

ولما كان التخاطب وفق هذه الإستراتيجية قائما على التعامل الأخلاقي ، لزم وضع مجموعة من القواعد التداولية التي تؤطر هذا النوع من الخطاب، فوضع غرايس مبدأ التعاون ،ووضعت لاكوف مبدأ التأدب ، وأسسا براون وليفنسن مبدأ التواجه الذي يعكس أهمية التهذيب في التأسيس لعلاقة تخاطبية مع الآخرين ، وأما ليتش فوضع مبدأ التأدب الأقصى الذي تتفرع عنه مجموعة من القواعد أهمها :[4]

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب : مقاربة لغوية تداولية، ص 258.

[2]- طه عبد الرحمن ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، ص 50.

[3]- ينظر، طه عبد الرحمن ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، ص 252.

[4]-ينظر، المرجع نفسه ، ص ص 246-247.

- **قاعدة اللباقة** ، وصورتاها هما على التوالي :
  - قلّل من خسارة الغير .
  - أكثر من ربح الغير .
- **قاعدة الاستحسان** ،وصورتاها هما :
  - قلل من ذم الغير.
  - أكثر من مدح الغير.
- **قاعدة الاتفاق** ، وصورتاها هما :
  - قلّل من اختلاف الذات والغير .
  - أكثر من اتفاق الذات والغير .

إن هذه القواعد هي التي ترسم خطة المتكلم لإضفاء بعد تهذيبي على عملية التخاطب فهي تحافظ على العلاقة التي تربط المخاطِب بالسامعين .

نخلص مما سبق أن الإستراتيجية التضامنية تعتمد على مخاطبة المرسل للمرسل إليه بتأدب، فالمتكلم الذي يبني خطابه وفق هذه الإستراتيجية يبتعد عن الضغط على السامعين، ويحرص على الاقتراب من الآخرين بقصد الحفاظ على علاقته الحسنة معهم.

4-3 الإستراتيجية التوجيهية

لا تخضع جميع الخطابات للإستراتيجية التضامنية، فالبعض منها لا يناسبه التأدب والتهذيب، بل يحتاج إلى أن يظهر المرسل سلطته في عملية التخطاب بشكل أو بآخر، حتى يستطيع توجيه المرسل إلى أفعال وسلوكات محددة ،ويطلق على هذا النوع من الخطط الخطابية بالإستراتيجية

التوجيهية، فالخطاب فيها " يعد ضغطا وتدخلا، ولو بدرجات متفاوتة ، على المرسل إليه ، وتوجيهه لفعل مستقبلي معين "[1].

تحتاج هذه الخطابات أحيانا إلى إغفال مبدأ التهذيب أثناء الإنتاج اللغوي لأنّ الهدف من هذا التلفظ ليس الحفاظ أو التأسيس لعلاقات مع الآخرين ، بل توجيههم ، لذلك يتشكل الخطاب من خلال استعمال أدوات وأساليب لغوية تركز على المرسل إليه .

إنّ استعمال المرسل للإستراتيجية التوجيهية هو مؤشر على ابتعاده عن الإستراتيجية التضامنية، فالمتكلم يفعل سلطته في هذا النوع من الملفوظات لفرض آرائه ومواقفه على المستمع، منطلقا من أنّ الخطاب الذي لا تتوفر فيه سلطة المرسل يؤدي إلى الفشل، فالكلام لا يحقق أغراضه "إذا لم يتوفر المتكلم على السلطة التي تخول له أن يتفوه بالكلمات التي ينطق بها " [2] لذلك اعتبرت سلطة المخاطِب شرطا أساسيا في نجاعة الخطاب التوجيهي، وقد تكون هذه السلطة في الخطاب مصرحا بها أو غير مصرح بها .

هناك عدد من المسوغات ترجح استعمال الإستراتيجية التوجيهية دون غيرها ، أهمها :[3]

- الطابع الرسمي في العلاقات التواصلية .
- الحفاظ على التراتبية التي تضمن استمرار الاحترام والوقار .
- الشعور بالتفاوت الفكري أو الاعتبار الاجتماعي .
- إصرار المرسل على تنفيذ قصده عند إنجاز الفعل .

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب : مقاربة لغوية تداولية، ص 322.

[2]- بيير بورديو، الرمز والسلطة ، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 2 ، 1990، ص ص65-66.

[3]- ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب : مقاربة لغوية تداولية ، ص ص 328-329.

- الحفاظ على مستوى العلاقة بين طرفي الخطاب غير المتكافئين في المرتبة، فالمرسل يستعين بهذه الإستراتيجية لفرض هيبته .

يستعين المتكلم في الخطاب التوجيهي بالأفعال اللغوية التي تعينه على تحقيق أهدافه ،ويدرج سيرل الأفعال التوجيهية ضمن الأفعال الإنجازية ، ويعتبر أنّ توظيفها في الخطاب يؤدي إلى " توجيه المتلقي إلى فعل شيء ما ،أو التأثير عليه ليفعل شيئا معينا "[1] والأفعال التي تمثل هذا الصنف كثيرة منها : الأمر الذي هويعكس سلطة المرسل على من هو دونه ، لذلك من أشهر معانيه الدلالة على الوجوب ، ولكن قد يخرج من دلالة التوجيه إلى مقاصد أخرى . كما يعتبر النداء من أهم الأساليب التوجيهية لأنه " يحفز المرسل إليه لردة فعل تجاه المرسل "[2].

وفي الأخير نخلص أنّ المرسل يستعمل الإستراتيجية التوجيهية في بناء الخطاب الذي يتطلب إظهار السلطة لنجاحه، ولكن يبادر أحيانا إلى الاستعانة بالاستراتيجيات الخطابية الأخرى خاصة الإستراتيجية التضامنية لما تحمله من أبعاد اجتماعية تضمن نجاعة عملية التخاطب .

4-4 الإستراتيجية التلميحية

يستطيع المرسل أن يعبر عن مقاصده وفق إستراتيجية خطابيّة تعتمد على التصريح المباشر بأهداف التلفظ ، ولذلك تعتمد فيه دلالات الخطاب على اللغة الجاهزة ، ولكن قد يعدل المخاطِب عن هذا النوع من الخطط الخطابية ، فيستثمر الطاقة الكامنة للسياق في التلميح عن مقاصد خطابه ، ممّا يفعل آليات التأويل للفهم .

[1]-علي محمود حجي الصرّاف ، في البراجماتية: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1، 2010 ، ص 62.

[2]- عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب : مقاربة لغوية تداولية ، ص 360.

تعرف الإستراتيجية التلميحية بأنها الإستراتيجية التي يعبر فيها المرسل من غير طريق التصريح المباشر والدلالة الظاهرة ، بل ينقل قصده عبر طرق دلالية غير مباشرة يحتاج معها المرسل إليه إلى إعمال آليات الاستدلال للوصول إلى القصد الأصلي فهي إستراتيجية يحتاج فهمها إلى الانتقال من المستوى الصريح للخطاب إلى المستوى المضمر الذي يدل عليه عادة السياق بمعناه العام .[1]

تسعىّ الإستراتيجية غير المباشرة إلى التعبير عن قصد المتكلم باستثمار ملابسات وظروف الحدث اللساني، ولكنه رغم ذلك ليس للمرسل الحرية المطلقة في استخدام أي لفظ لتوليد مفهوم جديد ، " بل لا بدّ من علاقة مناسبة بين المعنى الوضعي ومراد المتكلم بحيث يمكن للمتكلم أن يَبين عن مراده للسامع بحكم أن علاقات من هذا النوع معهودة بينهما ."[2] وهكذا يمكن القول : إن المعاني الضمنية للخطاب تؤطرها مجموعة من العلاقات التي تعين السامع على التأويل الصحيح للملفوظات .

إن الرجوع إلى المنجز النقدي القديم يثبت أنّ البلاغة كانت ميدانا خصبا للإستراتيجية التلميحية، حيث رصدت بعض آلياتها كالمجاز بأنواعه، والتشبيه والكناية، ومخالفة الأصل في التراكيب بالتقديم والتأخير. وكان عبد القاهر الجرجاني من أبرز العلماء الذين تناولوا هذه الإستراتيجية بشيء من الدراسة والتحليل، فعرض في مؤلفاته إلى بلاغة التلميح، وعقد فصلا في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره، وأقرّ أن لهذا الضرب اتساعا وتفننا إلا أنه على اتساعه "يدور في الأمر الأعم على شيئين: الكناية والمجاز "[3].

كما كانت هذه الإستراتيجية أساسا للكثير من مباحث الفقه وأصول الفقه، إذ لا يخلو أي مصنف في هذه العلوم من اعتبارها، فمباحث الحقيقة والمجاز كانت المدخل لهذه الدراسات.

---

[1]-ينظر، المرجع السابق ، ص370.

[2]- محمد محمد يونس علي ، علم التخاطب الإسلامي ، دار المدار الإسلامي، ط1 ، 2006 ، ص 114.

[3]- عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 66.

تعتمد هذه الدراسات على مفهوم الخطاب بمعناه الواسع الذي يقابل منطوق الخطاب أي بما يمكن أن يفهمه المرسل إليه من الخطاب الملفوظ ، فمصطلح "المفهوم هو دلالة اللفظ على حكم شيء، سواء أكان الحكم المدلول عليه موافقا للمنطوق به، أم كان مخالفا له، فإذا كان موافقا للمنطوق به سمي مفهوم موافقة، وأما إذا كان مخالفا للمنطوق به سمي مفهوم مخالفة"[1] أما في المنجز النقدي الغربي فيرى سيرل أن التأدب من أبرز الدوافع لاستعمال الإستراتيجية غير المباشرة في الطلب، " ومن سمات التأدب محاولة تجنب الوقوع فيما يسمى بالمحرمات اللغوية "[2].

وما يمكن ملاحظته هو أنّ هنالك أفعال كلامية منجزة ومباشرة وأخرى أفعال منجزة غير مباشرة تستدعي من المتلقي "بذل بعض الجهود في عملية الفهم والتي منها الارتكاز على قوة وطول التعقيدات المقدمة من قبل الباث والقدرة الفائقة المستعملة من قبل المتلقي قصد الكشف عن حقيقة تلك الاستدلالات "[3].

أدى انتشار هذه النظريات التداولية المهمة إلى ظهور مجموعة من المفاهيم التي تؤطر الاستعمال اللغوي ، ونذكر منها مفهوم الاستلزام الحواري عند غرايس القائم على المعنى المستفاد من السياق، فهو حلقة الوصل بين المعنى الحرفي الصريح والمعنى المتضمن في شكل الخطاب ، ويختلف مفهوم الاستلزام عن مفهوم الاقتضاء، فالاستلزام مفهوم لساني برجماتي، يتغير بتغير ظروف إنتاج العبارة اللغوية " والإقتضاء يمتاز بكونه لا يتغير بتغير ظروف استعمال العبارة ، فهو ملازم لها في جميع الحالات والأحوال "[4].

يستثمر المرسل كفاءته التداولية في الإنتاج اللغوي، فهو ينطلق في توظيفه للإستراتيجية التلميحية من أن هناك طرقا مختلفة لتقول شيئا وأنت تعني به شيئا آخر: منها السخرية، وأساليب

[1]- ينظر، إدريس بن خويا ، البحث الدلالي عند الأصوليين ، مطبعة بن سالم الأغواط ، ط1 ، 2009 ، ص 97.

[2]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب : مقاربة لغوية تداولية ، ص 372.

[3]- عمر معراجي ، النص بين الدلالة والتداول، ص 202.

[4]- محمود عكاشة ، النظرية البرجماتية اللسانية، مكتبة الآداب القاهرة ، ط1 ، 2013 ، ص 87.

المجاز "ولكل أداة خصائصها، ونظامها لتجسيد العلاقة بين المنطوق والمفهوم. وبالتالي فهي إمكانات متاحة. " [1].

[1]– عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، ص 384.

الفصل الثاني: الحجاج : مقاربة نظرية

- أولا: ماهية الحجاج

- ثانيا : الحجاج في الفكر الغربي

- ثالثا : الحجاج في الفكر العربي

أولا– ماهية الحجاج

إنّ الإلمام بنظرية الحجاج كلّها يتسم بالصعوبة، و يرجع ذلك إلى انفتاحها على مختلف العلوم واستمرار تشكلها في عصرنا ،و رغم ذلك سنحاول تحديد مفهوم الحجاج و علاقته بالمصطلحات المقاربة له ، وسنقف على أهم مجالاته و مدى حضوره في الفكر الإنساني .

1–الدلالة اللغوية للحجاج

ورد مصطلح الحجاج في القرآن الكريم من خلال صورته الفعلية " حاج " وما اشتق منها ، وذلك في عدة مواضع منها قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّه يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وقوله أيضا :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

وكلها جاءت بمعنى التخاصم والتغالب من أجل الإقناع أو الإذعان لأحد الطرفين .

وبالعودة إلى المعاجم العربيّة القديمة ، نجد ابن منظور يربط الحجة بالقصد، إذ يقول "حَاجَجتُه أحاجُّه حِجَاجًا ومُحَاجَّةً حتى حَجَجتُه : أَي غَلَبتُه بالحُجّج التي أَدلَيتُ بِها... والحجّة : البرهان، وقيل الحجّة ما دُوفِع به الخصم... واحتجّ بالشيء: اتخذه حجّة ، قال الأزهري: إنّما سميت حجّة لأنها تُحَجُّ أَي تقصد لأنّ القصد لها وإليها "[3].

---

[1]– سورة آل عمران، الآيتان : 65 – 66.

[2] – سورة البقرة، الآية : 258.

[3]– ابن منظور ، لسان العرب، مج 02، مادة حجج ،ص 228.

يظهر من هذا أنّ الحجاج يكون لخصومة ، و الجدال هو المظهر الذي يجسّد صورة الخطاب الحجاجي. ومن خلال ما سبق يمكن حصر الدلالة المعجمية للحجة في الجدل و البرهان.

2- الحجاج في الاصطلاح

تباينت المفاهيم المرتبطة بهذا المصطلح باختلاف الخلفية المعرفية لكلّ باحث ، فالحجاج مفهوم يصعب حصره، فهو يتميز بكثرة الحقول المعرفية التي تناولته " إذ نجده متواترا في الأدبيات الفلسفية والمنطقية، والبلاغية التقليدية وفي الدراسات القانونية والمقاربات اللسانيّة والنفسانيّة والخطابيّة المعاصرة"[1].

انطلق الباحثون في تحديد مصطلح الحجاج من زاويتين: الأولى تعنى بدراسة العلاقة بين المتكلم والمتلقي، وما تحمله هذه العلاقة من استعمال آليات الإرسال ومراعاة حال المتلقين ، أما الثانية فتعتبر" الحجاج بنية نصية ، و هنا يتم التركيز فقط على الجوانب اللغوية "[2].

والجدير بالذكر أن الحجاج ليس موضوعا محضا، وليس ذاتيا محضا لأن "من مقوماته حرية الاختيار على أساس عقلي "[3].

حاول كلّ من بيرلمان Perelman وتيتيكاه Tyteca حصر موضوع الحجاج في "تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم "[4].

---

[1]-محمد طروس ، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الناشر للثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2005، ص 6.

[2]- -يمينة ثابتي، الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي ، مجلة الخطاب ، دار الأمل الجزائر ، ع 2، 2006 ، ص 286.

[3]- بلقاسم دفة، إستراتيجية الخطاب الحجاجي – دراسة تداولية في الإرسالية الإشهارية العربية، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، العدد العاشر، 2014، ص 497.

[4] - Chaim Perelman et Lucie Olberchts-Tytica, Traité de l'argumentation – La nouvelle rhétorique, préface de Michel Meyer – 5ème ed . Edition de l'université de Bruxelles 1992 , p5.

فالخطاب الحجاجيّ مبني على قصدية التأثير في المتلقي و استمالته نحو المسألة المعروضة ، فهو مرتبط بالإقناع ، فالمحاجج يعرض دعواه مستثمرا مختلف الوسائل اللغويّة والمنطقيّة والبلاغيّة الممكنة للتأثير في موقف المخاطب. و يظلّ الاختلاف هو الباعث على الحجاج، ولذلك فهو لا يكون إلاّ فيما هو محتمل، وعلى هذا الأساس فالحجاج جنس خاص من الخطاب "يبنى على قضية أو فرضية خلافية يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيا قاصدا إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية "[1].

ويربط فرونسيس جاك Francis Jaques الحجاج بالحوارية فهو " اشتراك في البحث عن الحقيقة انطلاقا من المحتمل لغرض الوصول إلى القبول ، عن اختيار ، من طرف المتحاورين "[2].

أمّا الحجاج عند ديكرو Ducrot فهو ملازم لكلّ خطاب يستعمل اللغة الطبيعية باعتباره إستراتيجية لغوية تكتسب بعدها التداوليّ من التفاعل النّصّي مع الأحوال المصاحبة للخطاب، وبهذه المقاربة أسّس للحجاج اللغوي، فركّز على المعنى الفني الاصطلاحي للفظ الحجاج Argumentation انطلاقا من أسبقية الحجاج على الإخبار، ويتحقق ذلك بفضل "العلاقات المودعة في الخطاب والمدرجة في اللّسان ضمن المحتويات الدلاليّة "[3].

إنّ هذه النظرية ترى أنّ الحجاج يكمن في اللغة ، فالأفعال القوليّة التي تشكل الخطاب تحمل وظيفة حجاجيّة ، وتحليل الخطاب وفق هذه المقاربة يركز على الجانب اللغوي، ويجعل الحجاج ماثلا "كشكل من أشكال التواصل والتخاطب والحوار " [4] فالإقناع ليس مجموعة أساليب وتقنيات شبه

[1] – –محمد العبد ، النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع ، مجلة الفصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر، العدد60، 2002 ، ص 44.

[2] –محمد العمري ، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق ،2005، ص 217.

[3] – صابر الحباشة ، الحجاج في التداولية، ثقافات، مجلة كلية الآداب بجامعة البحرين، 2011، ص 203.

[4] – عبد السلام عشير ، عندما نتواصل نغير :مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل و الحجاج ، إفريقيا الشرق، المغرب، 2007 ، ص12.

منطقية أو رياضية فقط كما اعتبرها بريلمان وزميلته تيتيكا ، بل هو أيضا كامن في البنية الداخلية للغة بفضل الروابط و العوامل الحجاجية وغيرها من القرائن اللفظية التي توجه الخطاب .

يقوم النشاط الحجاجي على عنصرين هامّين هما: الباث والمتلقي، والباث هو منشئ الخطاب الذي يسعى دائما إلى حمل المتلقي على التسليم بما يطرحه من أفكار وآراء، ولا يتحقق هذا الخطاب الإقناعي إلّا بالاستناد إلى الوظائف الحجاجية التي قوامها الحجة، فهي الدليل الذي يلتمسه المخاطب في إنتاج الفعالية الخطابية، وعليه تقوم بنية الحجاج النظرية على عدة أركان هي[1] :

- طرفا الحجاج.
- القضية المتنازع عليها .
- خطاب الحجاج .
- الإقناع .

جمهور الحجاج : المخاطبون والمتلقون

تتكون كل علاقة حجاجية عند باتريك شارودو من ثلاثة عناصر :

أ–قول الانطلاق: مقدمة منطقية أو خبرا يشكل كلاما عن العالم يشترط فيه " أن يمثل إشكالا بالنسبة إلى شخص ما من حيث مشروعيته "[2] .

ب–قول الوصول: وهو ما ينتج عن قول الانطلاق، فالمحاجج يسعى لاستدراج المتلقي للتسليم بهذا القول النهائي من خلال إضفاء شرعية منطقية للعلاقة الحجاجية التي تربط بين المقدمات والأطروحة التي يسعى الخطاب إلى إثباتها.

[1]–هيثم سرحان ، الخطاب الحجاجي في شعر بشار بن برد ، مجلة جامعة أم القرى ، العدد 11 ، نوفمبر 2013 ، ص 80.

[2]– باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، تر: أحمد الودرني ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، لبنان، ط1، 2009 ، ص13.

ج- قول العبور

إن العبور من قول الإنطلاق أ1 إلى قول الوصول أ2 لا يتم بطريقة عشوائية ، بل "ينجز بواسطة قول يبرز الصلة السببية التي توحد بين أ1 و أ2 . إن هذا القول يمثل كونا من الاعتقاد حول الطريقة التي تتحدد بها الأفعال فيما بينها على مستوى التجربة أو معرفة العالم "[1].

و يمكن أن نمثل ذلك بالخطاطة التالية :

قول الانطلاق أ1 ——— قول العبور ———◄ قول الوصول أ2

هكذا يتحدد الحجاج في كونه نشاطا قوليا ، يهدف الفاعل المحاجج من خلاله إلى التأثير في المتلقي بالانطلاق من أخبار و وقائع و حقائق مشتركة تعتبر مركز العلاقة الحجاجية التي تؤسس لإقامة الدليل .

إن هذه المكونات المختلفة تأتلف فيما بينها لتفسح المجال لأشكال من البرهنة نوجزها في :

- **الاستنتاج** : و فيه يكون القولان أ 1 و أ2 في علاقة سببية موجهة من السبب إلى النتيجة كقولنا : المطر ينزل إذن آخذ مطريتي .
- **الشرح** : تعتمد البرهنة في هذه الحالة على تأسيس علاقة سببية بين قول الانطلاق و قول الوصول، و يشترط أن يكون يمثل القول الذي يسعى المتكلم إليه الأصل و الحافز و العلة كقولنا غادرت المكان لأنهم أغلقوا في وجهي الباب .
- **التجميع** : " تتمثل خاصيته في الجمع بين أ 1 و أ 2 في علاقة من التضاد أو التطابق "[2] مثل قولنا عن طريق التوسع : إن أصدقاء أصدقائي هم أصدقائي.

[1]-باتريك شارودو ،الحجاج بين النظرية والأسلوب ، ص 22.

[2]-المرجع نفسه، ص 42.

- **الاختيار التعاقبي** : وهو من بين أهم أشكال البرهنة، ويعتمد المحاجج في هذا النوع الخطابي على إمكانية الاختيار بين علاقتين حجاجيتين أو يبين التنافر الذي قد ينتج عن الوصل بينهما نحو قولنا "أنا أو الفوضى"، فهذا القول الحجاجي يدفع السامع إلى الرضوخ والأخذ برأي المتكلم حتى يتفادى الخيار الصعب .
- **التنازل الحصري** : ويتمثل ذلك في تقديم قول الإنطلاق على أنه حق و ذلك من تصحيح العلاقة الحجاجية " ونجد هذا الشكل من البرهنة في مقامات التبادل الجدلي الذي ننسب من خلاله (أو نتظاهر بأننا ننسب) إلى الطرف الآخر بعض الأقوال كي يتسنى الطعن فيها على نحو أفضل أو تصحيحها ."[1]

إن المنطق الحجاجي هو الذي يساهم في انتظام الخطاب الإقناعي، ولا يعني ذلك أنه بنية نصية منغلقة لا تنفتح على خارج النص بل يستعين به الفاعل المحاجج في إنتاج خطابه مراعيا مخاطَبه ومقامه ليضمن نجاعة هذه الاستراتيجية الخطابية .

و يقودنا هذا إلى تحديد الجهاز الحجاجي باعتباره متركبا من ثلاثة أطر :

- **الخبر**: يتكون من قول أو مجموعة من الأقوال التي تتعلق بالواقع من خلال علاقة حجاجية.
- **الحكم** : ويظهر موقف المحاجج من الخبر ويتخذ دائما اتجاها حجاجيا معينا قد يكون متفقا مع الخبر وقد يكون مختلفا معه، ويتحكم ذلك في الإستراتيجية الاقناعية التي ينبني عليها هذا النوع من الخطاب.
- **الإقناع**: إن الموقف الذي يتبناه المتكلم من الخبر يظهر من خلال أحكامه، وحتى لا تكون تلك الأحكام عشوائية فإن المحاجج يحاول جاهدا لإقامة دليل على ما تبناه من مواقف، وذلك ضمن إطار برهاني يطلق عليه الإقناع، وهو يرتبط " بمقام التواصل الذي

[1]-باتريك شارودو ، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ص 47.

يتنزل فيه الفاعل المحاجج . وتبعا لذلك المقام و المشروع الكلامي للفاعل سيقع تسخير مكونات الجهاز ."[1]

إن هذه الإستراتيجية الاقناعية تعتمد على استعمال أساليب مختلفة تساهم في التدليل على صحة الحجاج ، و يمكن تقسيمها حسب تصور شارودو إلى ثلاثة أنواع :

أ-الأساليب الدلالية:

"وتتمثل في استعمال حجة تنهض على مواضعة اجتماعية" [2] ويمكن حصرها حسب باتريك شارودو في خمسة مجالات:الحقيقة ، الجمال، الأخلاق ، المتعة ، والذرائعية .

ب-الأساليب القولية:

وتتمثل في استعمال المقولات اللغوية في إنجاز الخطاب لإحداث التأثير في المخاطَب كالمقارنة والوصف والاستشهاد .

ج- أساليب البناء:

وتتمثل في تقسيم عناصر الجهاز الحجاجي وتوزيعها وفق نسق متدرج على امتداد الملفوظ " بطريقة تسهل وسم مفاصل البرهنة على اختلافها (بناء خطي) أو فهم الخلاصات الحجاجية (بناء تبويبي) "[3].

وبعد أن قدّمنا بعض تعريفات الحجاج نشير إلى خاصية انفتاحه على مجالات مختلفة وعوالم متباعدة، فهو يوظف اللغة ويستثمر آليات البلاغة ويجنّد استراتيجيات ونظريات الإقناع و يعيد الاعتبار للوظيفة الاجتماعية التي تؤديها اللغة، ويولي اهتماما بالغا بالمخاطَب والمقام، ويتقاطع مع آليات

[1]-باتريك شارودو ، الحجاج بين النظرية والأسلوب، ص 65.
[2]- المرجع نفسه ، ص 75.
[3]- نفسه، ص 102.

الاستدلال، وبهذا فأدواته وآلياته الإجرائية تتسع لتستفيد من منجزات العلوم الأخرى كالمنطق، والبلاغة واللسانيات بفروعها المختلفة ، وعلم النفس وعلم الاجتماع .

إنّ الخطاب الحجاجي هو بالأساس خطاب "يعرض فيه صاحبه نظريّة أو فكرة أو رأيا فيحيل على موقف له من المجتمع أو من بعض قضاياه وهو من وجهة ثانية خطاب موجّه إلى متلقّ قد يكون فردا أو مجموعة "[1] وغايته في ذلك هو الإقناع أو الحمل على الإذعان معولاّ في ذلك على سلطة الخطاب .

3-أصناف الحجاج

قد يبني المتكلم خطابه بمراعاة ما لدى المستمع من حجج قد يواجهه بها ، وقد لا يضع المتكلم تلك الحجج في الحسبان، وبمراعاة هذا المعيار يمكن تصنيف الحجاج إلى أصناف ثلاثة هي:

أ- الحجاج التجريدي . ب- الحجاج التوجيهي . ج- الحجاج التقويمي

3-1- الحجاج التجريدي :

هو استدلال تكون فيه العلاقة الحجاجية قائمة على "الإتيان بالدليل على الدعوى على طريقة أهل البرهان ، علما بأنّ البرهان هو الاستدلال الذي يُعنى بترتّب صور العبارات بعضها على بعض بصرف النظر عن مضامينها و استعمالاتها "[2] .

3-2- الحجاج التوجيهي :

ويقصد به "إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل بأقواله من حيث إلقاؤه لها "[3]، فالمحاجج يعرض دعواه دون أخذ اعتراض السامع بعين الاعتبار، لذلك تمتاز الحجة

[1]- سامية الدّريدي، الحِجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص 43.
[2]- طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي أو اللسان والميزان، ص 226.
[3]- المرجع نفسه، ص 227

الموجهة باكتفائها بقصدية المتكلم فقط و إهمال قصدية المستمع، و يظهر ذلك من خلال اقتصار عمل الباث على إيصال الحجج فقط دون انشغال بتلقي المخاطب لأقواله و رد فعله عليها .

3-3- الحجاج التقويمي :

يعرفه طه عبد الرحمن بقوله " والمقصود بالحجاج التقويمي هو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرد من نفسه ذاتا ذاتية ينزلها منزلة المعترض على دعواه ، فها هنا لا يكتفي المستدل بالنظر في فعل إلقاء الحجة إلى المخاطب ، واقفا عند حدود ما يوجب عليه من ضوابط وما يقتضيه من شرائط ، بل يتعدى ذلك إلى النظر في فعل التلقي باعتباره هو نفسه أول متلق لما يلقي "[1] .

فالمحاجج في هذا النوع من الحجاج يبني خطابه على مقتضى ما يفترضه من اعتراضات متوقعة لدى المتلقي ، فيستبق ردّ فعله فيستحضر حججا مضادة و أجوبة لاستفساراته ،و بهذا يجمع بين فعل الادعاء و فعل الاعتراض .

على أنّ أنواع الحجاج و مراتبها " لا تقتصر على هذا القدر ، بل تجاوزه إلى تضمن النوع الواحد رتبا فرعية " [2] فقد تكون العناصر المستدَل عليها متساوية فيطلق على هذا النوع الحجة المساوية ، و قد تتفاوت بطريق أولى فيطلق عليها الحجة العليا ، و قد تتفاوت بطريق أدنى فيطلق عليها الحجة الدنيا .

4- علاقة الحجاج بمجاله المفهومي :

ارتبط الحجاج عبر مساره التاريخي بمصطلحات كثيرة كانت تتقاطع معه في المفاهيم، و لعلّ من أهمها :

[1] -المرجع السابق، ص 228.

[2] - محمد حمودي، الحجاج وإستراتيجية الإقناع عند طه عبد الرحمن مقاربة أبستمولوجية، مجلة حوليات التراث، العدد 12 ، 2012، ص 113.

4-1-الحجاج و الجدل

يتقاطع مفهوم الحجاج مع مفهوم الجدل عند العرب القدماء ، فابن منظور مثلا يعتبر أن الجدل هو مقابلة الحجة بالحجة ، فجعله مرادفا للحجاج صراحة بقوله " هو رجل محجاج أي جَدِلٌ "[1].

و المجادلة عنده هي المخاصمة، فالجدل يحيل إلى معنى النزاع و الغلبة بواسطة الأدلة و الحجج .

وفي كتب علوم القرآن ما يدعم هذا الترادف، فبدر الدين الزركشي ت 794 هـ في كتاب البرهان في علوم القرآن ، وجلال الدين السيوطي ت 911 هـ في كتابه الإتقان في علوم القرآن عقدا فصلا لجدل القرآن و أكثرا داخله من استخدام ألفاظ المحاجة و الحجاج و الإحتجاج .[2]

ويعتبر "أبو الوليد الباجي" ت 474 هـ من الذين وقعوا في مماهاة الحجاج بالجدل ، فرغم أنه وسم مؤلفه بـ " المنهاج في ترتيب الحجاج " إلاّ أنه اعتبر في المقدمة أنّ عمله هذا هو كتاب في الجدل، ولم يكتف بذلك فقط ،بل جعل الحجاج علما لا يستقل في أركانه وطرائقه عن الجدل ، يقول الحجاج " من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال و تمييز الحق من المحال ، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجّة ، ولا عُلم الصحيح من السقيم ولا المعوّج من المستقيم "[3].

ورغم هذه المماثلة الواضحة بين حدّ الحجاج و معنى الجدل إلاّ أنه من العرب المعاصرين من يفصل بين المصطلحين، فعبد الله صولة رغم أنه يقرّ أن الجامع بينهما هو المخاصمة إلا أنه يفرق بين المصطلحين معتبرا أنّ المخاصمة في الحجاج " قائمة على الباطل عادة كما أشار إلى ذلك ابن عاشور معتمدا مدونة القرآن، في حين أن الجدل منه ما هو حق و منه ما هو باطل "[4] .

---

[1]-ابن منظور،لسان العرب، مج02 ،مادة حجج، ص 228.

[2]- ينظر، عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن ، ص 13.

[3]-أبو الوليد الباجي ، المنهاج في ترتيب الحجاج ، تح: عبد المجيد التركي ، دار الغرب الإسلامي ، ط3 ، 2001، ص 8.

[4]-عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن ، ص 11.

أما فلاسفة اليونان فالحجاج عندهم ليس هو الجدل، وقد سعى أرسطو إلى الوقوف على التداخل الحاصل بين هذين المصطلحين مرتكزا في ذلك على استفادة الحجاج من الجدل والخطابة ، ففي حقيقة الأمر يميز أرسطو بين الحجاج الجدلي و الحجاج الخطبي إذ مجال الأول فكري خالص لأنه يعتمد على الأدلة العقلية، أمّا الثاني " فمجاله توجيه الفعل والتوجيه إليه وخلق الاعتقاد. "[1] فهو حجاج يروم إقناع المتلقي، فغايته ليست فكرية محضة بل عملية بشكل واضح ، وهذا النمط يوسع من دائرة الحجاج ويجعله يشتغل على كل ما هو ممكن ومحتمل لذلك " يوظف الإمكانات الهائلة للغة الطبيعية المتسمة بالمرونة والالتباس فيمزج بين الإقناع والاستمالة و التأثير "[2].

يتقاطع الحجاج مع الجدل في السمة الحوارية ، و في مختلف آليات الاستدلال المميزة للخطاب، إلاّ أنّ ذلك لا يعطي مشروعية لاعتبار الحجاج مرادفا للجدل، لأنّ ذلك يضيّق مجال الحجاج، و يغرقه في الصرامة المميزة للجدل من حيث هو صناعة منطقيّة محضة ، فالحجاج يظل يشتغل في دائرة أوسع من الجدل .

4-2-الحجاج و البرهان:

يلتبس الحجاج بجملة من المصطلحات، ومنها البرهنة، ويعزى هذا الارتباط إلى اتساع مجال الحجاج و ارتباطه في آلياته الإجرائية بالمنطق والاستدلال الصوري، وإذا عدنا إلى المعاجم العربيّة القديمة فإننا نجدها تكاد لا تفرق بين البرهان و الحجاج، يقول ابن منظور "البرهان الحجة الفاصلة البيّنة ،يقال بَرهَنَ يُبَرهِنُ برهنة إذا جاء بحجّةٍ قاطعة لِلَدَد الخصم "[3] فهذا التعريف ينظر إلى البرهان كنمط من الحجاج له مميزات خاصة كالقطعية .

[1]-محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص 52.

[2]-عبد العالي قادا ، بلاغة الإقناع ،دار كنوز المعرفة ، ط1 ، 2016 ، ص 24.

[3]-ابن منظور ، لسان العرب ،مج 13 ،مادة برهن ، ص 51.

أما المحدثون فيطلقون لفظ البرهان "على الحجة العقلية والحجة التجريبية معا. والمقصود بالحجة التجريبية الحجة التي تستند إلى التجارب والأشياء والحوادث ، كحجة الأستاذ الذي يبرهن على صحة دعواه بإقامة التجارب في الصف أو كحجة المحامي الذي يثبت صحة دعواه بإبراز بعض المستندات، أو تبيين بعض الحوادث "[1].

يرتبط البرهان بالحجاج من حيث أنه إذا أعدنا الخطاب الحجاجي إلى أبسط صورة " وجدناه ترتيبا عقليا للعناصر اللغوية ترتيبا يستجيب لنية الإقناع "[2] فالمحاج يستند إلى البرهنة للتأثير في المتلقي وحمله على الإذعان بأقل جهد و في أقصر وقت .

ورغم هذا التقاطع على مستوى الخطاب إلاّ أنّ البرهان يظلّ " أقرب إلى الصواب واليقين والحقيقة، فهو حجة قاطعة و بيّنة فاصلة ، كما أنه لا يحيل على معاني المشاركة والمبادلة والتفاعل المرتبطة بالحجاج " [3] فالاستدلال البرهاني يروم الحقيقة ، ويتغاضى عن أحوال المتلقي عكس الحجاج الذي يعتمد على فاعلية المتغيرات المقامية، فهو يأخذ المخاطَب ومقامه بعين الاعتبار لأنّه مرتبط بغاية الإقناع، لذلك اعتبر الحجاج فعلا تداوليا يرتكز على الظروف السياقية .

إذا كان البرهان يستند على صرامة الاستنتاج المنطقي، فإن الحجاج لا يستند على ذلك فقط، بل يستند على قوة الحجة بالجمع بين شكل الخطاب ومضمونه، ولذلك فهو "من الأقوال التي تستهدف إقناع المخاطب أو بناء معرفة مشتركة عبر الفهم والإفهام." [4] فيظلّ إمكانية التسليم بنتائجه أمرا نسبيا بالنسبة إلى المخاطب، وعليه لا يسعى المحاجج لبيان الصحة المنطقية لاستدلال ما، وإنّما يعرض دعواه موجّها الملفوظ نحو وجهة محدّدة لإقناع المتلقي باستعمال مختلف الآليات والتقنيات الحجاجيّة التي ترتكز على الأبعاد التداولية للملفوظ، ولذلك يركّز الخطاب الحجاجيّ على مجموعة من الكفايات التي يجب أن

[1]- جميل صلبيا، المعجم الفلسفي، ج 1، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، 1994، ص ص206 - 207 .

[2]-سامية الدريدي ،الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني هجري بنياته وأساليبه، ص27.

[3]-عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع ، ص 19.

[4]-حسان الباهي، اللغة والمنطق بحث في المفارقات ، مكتبة الفكر الجديد ، ط1، 2015 ، ص115.

تتوفر في منتج الخطاب " فإذا كان لا دخل له البتة في نجاعة البرهنة و صحة الاستدلال المنطقي ، فإنه يصبح أساسيا متى تعلق الأمر بتقنيات الإقناع في الخطاب الحجاجي "[1] .

إن الخطاب الحجاجي ليس خطابا برهانيا خالصا ،و لتوضيح ذلك نتوسل بالمثالين التاليين :

المثال الأول :

- كل اللغويين علماء .
- زيد لغوي
- إذن زيد عالم .

المثال الثاني :

- انخفض ميزان الحرارة.
- إذن سينزل المطر

وواضح أن المثال الأول يتعلق بقياس منطقي، أما المثال الثاني فإنه لا يعدو أن يكون حجاجا تداوليا أو استدلالا طبيعيا غير برهاني[2]، فالحجاج إذاً لا يملك الصرامة الشكلية التي تتوفر عليها البرهنة .

ويفرق طه عبد الرحمن بين البرهان والحجاج من عدة جوانب أهمها ارتكاز البرهان على مبدأ الاستدلال على حقائق الأشياء فقط، وارتكاز الحجاج على مبدأ الاستدلال على حقائق الأشياء مع أخذ مقاصدها بعين الاعتبار " بمعنى أن الحجاج يزدوج فيه طلب معرفة الواقع وطلب الاشتغال بقيمته"[3] ولذلك يمتاز الخطاب الإقناعي بكونه خطابا مبنيا وموجَّها و هادفا .

[1]–سامية الدريدي ، الحجاج في الشّعر العربي بنيته وأساليبه ، ص 34.

[2]– ينظر، مسعود صحراوي ، في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ص 60.

[3]–طه عبد الرحمن ، اللسان و الميزان ، ص 230.

4-3-الحجاج و التواصل

إن الاهتمام المتزايد بالحجاج يرجع إلى ارتباطه بمجال التواصل، فالحجة التي يستند عليها المتكلم تتعلق بالرسالة و ظروف إنجازها " فالحجة كانت ولا تزال تعتبر محتوى أو شكلا من المحتوى التواصلي. سواء تم التصريح بذلك أم لا "[1].

ولذلك يختار المخاطِب حججا ملائمة لثقافة المتلقي وخصائصه الاجتماعية والنفسية، فالمحاجج يبني خطابه على " أنساق سميائية متنوعة ذات أبعاد ثقافية مخصوصة "[2] .

يعتبر طه عبد الرحمن من أهم العلماء الذين اهتموا بمعالجة هذه الإشكالية بضبطه المصطلحات المرتبطة بهذه القضية، فهو يفرق بين الوصل وهو نقل الخبر، والإيصال وهو نقل الخبر مع أخذ المتكلم بعين الاعتبار، والاتصال و هو نقل الخبر مع اعتبار المتكلم و المستمع معا[3] .

وانطلاقا من هذه الخلفية المعرفية ، ميّز طه عبد الرحمن بين ثلاثة نماذج تواصلية للحجة :

- **النموذج الوصلي للحجة** : تمتاز الحجة في هذا النوع بكونها حجة مجردة باعتبارها بناء استدلاليا يستقل بنفسه ، ويتوسل هذا النموذج بأدوات النظرية الإعلامية التي تجعل الناقل والمنقول إليه عاملين تقنيين فتفصل المضمون الخبري عن صورته .
- **النموذج الايصالي للحجة** : يجعل هذا النموذج من الحجة قولا استدلاليا يتوجه به المتكلم إلى مستمع، و لذلك فهي حجة موجهة وظيفتها التواصلية هي الإيصال ، فرغم أنها تهتم بقصدية المتكلم إلاّ أنّها تهمل قصدية المستمع .

[1]-فيليب بروتون وجيل جوتييه ، تاريخ نظريات الحجاج ، تر: محمد صالح الغامدي ، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز ، ط1، 2011 ، ص 13.

[2]- لحويدق عبد العزيز ، الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث الأردن، ط1، 2010، ص 336.

[3]- ينظر، طه عبد الرحمن، التواصل والحجاج، سلسلة الدروس الإفتتاحية الدرس العاشر، ص 5.

- **النموذج الاتصالي للحجة:** وهو النموذج الذي تتضح فيه الفعالية التخاطبية بوضوح، وتكون فيه الحجة فعلا مشتركا بين المتكلم والمستمع، فهي خاضعة لتوجيه المخاطِب وتقويم المخاطَب.[1]

و يمكن تمثيل ذلك بالخطاطة التالية :

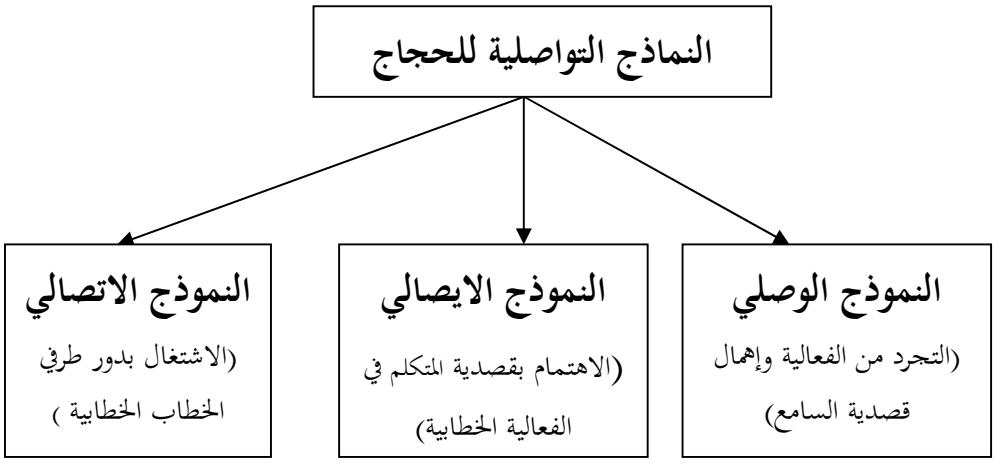

4-4-الحجاج والإقناع

إنّ الترابط بين الحجاج والتواصل يتسع ليشمل ذلك الذي يقوم بين الحجاج والإقناع، وإذا عدنا إلى المعاجم العربيّة القديمة فإننا نجد أنّ الإقناع ارتبط بالرضا، ففي لسان العرب "قَنِعَ بنفسِه قَنَعًا وقَناعةً: رَضِيَ... والمِقنَعُ، بفتح الميم: العَدلُ من الشهود، يقال: فلان شاهدٌ مَقنَعٌ أَي رِضاً يُقنَع به"[2].

أما اصطلاحا فيربط حازم القرطاجني الإقناع بالتأثير، ويحصر القصد منه في"حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده "[3].

وفي تحليل الخطاب ينظر إلى الإقناع "على أنّه نتاج سيرورات عامة من التأثير، فالخطاب الإقناعي هو خطاب تمّ بناؤه بقصد الإقناع "[4] ففي الفعل الإقناعي يستثمر المتلفظ كل الطرق والوسائل اللغوية

[1]- ينظر، المرجع السابق، ص 06.

[2]- ابن منظور ، لسان العرب ، مج08، مادة قنع، ص297.

[3]-حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ،تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، 2008، ص19.

[4]-حسن المودن ، بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقيّ لبلاغة الإقناع ،دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2014 ، ص 22.

والمنطقية التي تضفي مشروعية على كلامه ،فالحجة لها غاية إقناعية لأنها تبحث عن إقناع المتلقي بفكرة ما أو جعله يتخذ سلوكا معينا ، وعليه فتحليل الحجج يكون دائما مرتبطا بنجاعتها في تحقيق الإقناع.

يتأسّس الخطاب الحجاجيّ على البعد الإقناعيّ، وذلك ما ذهب إليه فينو Vignaux حين اعتبر "الخطاب الحجاجي خطابا غائيا، وينفي أن يكون كل خطاب غائي حجاجيا بالضرورة لأن هناك خطابات ذات غاية شخصية خاصة لا تهدف إلى إقناع الآخر كالخطاب الشعري و بعض أنواع السير الذاتية والمذكرات والكتابات الحميمية أمثلة لخطابات غائية ليست حجاجية "[1].

ولكن إذا انطلقنا من أنّ الحجاج ناجم عن اللغة فإنه يجب تقبل أنه محمول في كل الخطابات، فالخطاب الأدبي أيا كان جنسه شعرا أو نثرا يحتوي في بنيته مؤشرات الحجاج بأبعاده التداولية المعروفة فحتى الشعر فعل قاصد، يسعى صاحبه من خلاله لإيصال رسالة ترمي إلى تعديل موقف المتلقي أو تغييره، ولا يتأتى له ذلك إلا بالمزاوجة بين أساليب الإقناع و الإمتاع ولذلك " ساغ للشاعر أن يخطب لكن في الأقل من كلامه ، وللخطيب أن يشعر لكن في الأقل من كلامه "[2].

إنّ كلمة حجاج خلافا لكلمتي إقناع وتبكيت "تدلّ على العمليّة القوليّة لا منتهاها وهذا يشير إلى المنزلة التي تقع هذه الكلمة فيها "[3] فالإنسان لا يحاجّ للمحاجة الخالصة بل لتحقيق أثرا بالقول.

ينحصر الهدف الذي يسعى إليه المحاجج في الإقناع ، لذلك يسخر جميع الوسائل اللسانيّة والبلاغيّة والمنطقيّة لدفع المتلقي للتسليم بالنتائج . وبناء على ذلك كان " الحجاج هو الآلية الأبرز التي يستعمل المرسل اللغة فيها وتتجسد عبرها إستراتيجية الإقناع "[4].

---

[1]– محمد طروس ، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية و المنطقية و اللسانية ، ص 90.

[2]– حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، ص325.

[3]– هشام الريفي ، الحجاج عند أرسطو ،ضمن الكتاب الجماعي : أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، إشراف حمّادي صمّود ،كلية الآداب منوبة تونس، ص 159.

[4]– عبد الهادي بن ظافر الشهري ، إستراتيجيات الخطاب ، ص 456.

فما يميز الخطاب الحجاجيّ هو أنه خطاب ذو غاية إقناعية يروم دفع المتلقي لتبني فكرة ما أو تغيير اعتقاداته انطلاقا من حجج تراعي مقام المتلقي وملابسات الخطاب ، فالإقناع هو الفعل التأثيري الذي يسعى النشاط الحجاجي لبلوغه، ولذلك فعندما يتمّ التحدث عن بلاغة الإقناع ، فإن ذلك يتمّ انطلاقا من هدف الخطاب .

ثانيا: الحجاج في الفكر الغربي

سنتتبع المنجز الغربي من خلال أشهر الدارسين الذين أسسوا للنظرية الحجاجية، ولعل من أشهرهم :

1-أرسطو

لقد تبلورت البلاغة اليونانيّة في جو الديمقراطيّة ، فكان المقصود منها الإحاطة بقوانين الخطاب حتى " يصير الخطيب قادرا على التأثير في الجمهور "[1]. فنشأت الريطوريقيا rhétorique التي زوّدت الخطيب بكل الوسائل والإمكانيات التعبيرية التي تساعده على إيقاع التصديق في النفوس، وإقناع الجمهور وانتزاع موافقته. فالبلاغة ارتبطت بالخطابة في أثينا حتى قبل ظهور أرسطو، واستندت مند ميلادها الأول على قصد الإقناع .

"وفي هذا المناخ الديمقراطي الذي يكفل حق التعبير والمطالبة بالحقوق برز السوفسطائيون باعتبارهم تيارا فكريا في المجتمع الإغريقي ، فكانوا من المعلمين الأوائل لفن الإقناع "[2] ولكنّهم استعانوا بالمغالطة و التناقض لتحقيق مصالحهم ، و لذلك سعى أرسطو للتصدي لاستراتجياتهم المضلّلة .

يعدّ أرسطو المؤسس الحقيقي لبلاغة الإقناع ، و قد سبق عصره بآرائه الرائدة في هذا المجال حيث استثمر الأفكار السائدة في عصره للوصول إلى مبادئ منظّمة ومعايير محدّدة تحدد ما يميز الأنماط القولية الإغريقية .

كان هذا المشروع الحجاجيّ ردّ فعل على انتشار تيار السفسطائيين الذين كانوا " يمارسون سلطة الحجاج حينئذ و يقصدون بذلك إلى الحصول على سلطة في المجتمع و كانوا يعلمّون الشّباب من ذوي

[1]- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة : دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، ط3 ، 2006، ص 62.
[2]-عبد العالي قادا ، بلاغة الإقناع ، ص 44.

اليسار مسالك الإقتدار على الخطابة "[1] ولذلك حاول أرسطو في كتاباته التصدي لهذا النوع من الحجاج القائم على التملق و الإثارة والتسلط بالقول والإقناع بما يخالف المشهور، لذلك بلغ الأمر عند أفلاطون إلى حد اعتبار "وظيفة الخطابة هي تحقيق اللذة لا الخير، لذة خادعة لا تفيد الإنسان، ولا الشعب " [2] لأنها اعتمدت عند السفسطائي على أهواء الخطيب وإيهام السامعين .

حارب أرسطو السفسطائيين في طريقة إنتاجهم للقول، وسعى جاهدا لكشف الاستراتيجية الحجاجية التي خدعوا بها الناس، فوقف على الخلل المستكن فيها ، ورصد المناورات القوليّة التي اعتمدوا عليها في هزم خصومهم ، كما أحصى أغاليطهم المتنوعة ، وركّز في ذلك على " إنتاج الحجاج عندهم وما يتعلق به من آليات، وخاصة الشّراك القولية التي كانوا ينصبونها للإيقاع بخصومهم." [3] ثمّ قام بصياغة أنماط من الحِجاج المضاد للعبتهم الحجاجيّة المفضلة .

يتشكل" الأورغانون " الحجاجي الأرسطي من ثلاثة مصنّفات :

أ – المواضع Topiques

ب – التبكيتات السوفسطائية Les réfutations Sophistiques

ج – الخطابة Rhétorique .

قدّم أرسطو في " المواضع " و"الخطابة " القواعد اللازمة لإنتاج ما اعتبره حجاجا حقيقيا يتسع لكلّ ما هو ممكن ومحتمل ، ففي " التبكيتات السوفسطائية " اهتم بنقد الحجاج السوفسطائي وفضح مغالطاته " وأقام بذلك جهازا لإنتاج حجاج مضاد "[4].

[1]–هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص 61.

[2]– عبد العالي قادا ، بلاغة الإقناع ، ص 54.

[3]–محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص 34.

[4]– هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، هشام الريفي، ص 156.

وإذا كان أفلاطون يُعلي من الطرح الفلسفي ويقصي القول الخطبي، من خلال ربطه الممارسة الحجاجيّة بالمنهج الجدليّ فقط، فإنّ أرسطو رفض ذلك بل حاول إخراج الخطابة من هذه الأزمة ، فاعتبرها " من الأدوات الأساسية التي لا يمكن لأي مجتمع أن يستغني عنها "[1] وسعى أرسطو إلى تتبع الخصائص التي تميز بين المناقشة الجدليّة والخطبة ، إذ اعتبر أنّ النمط الأول " يمارس في فحص قضايا الفكر، وفحص جوانب من الأحكام المتعلقة بالسلوك كما يمارس في توجيه الفعل وإن كانت ممارسته أدخل في البحث الفكري ، أما الثاني فمجاله هو توجيه الفعل و تثبيت الاعتقاد وصنعه "[2] . فالحجاج الخطبي ذو غاية إقناعيّة ، يسعى فيها الخطيب لرفع المسافة بين السامع و الحكم قصد التأثير في السامع، ودفعه للتسليم به .

يعتبر أرسطو البلاغة فنّا خطابيّا بامتياز، إذ يستخدم فيها المتكلم مختلف الأدوات الحجاجيّة للتأثير في الآخرين، و إقناعهم ذهنيّا ووجدانيّا ، يتحقق ذلك الحجاج عبر مجموعة من الوسائل الأدائية يمكن حصرها في ثلاثة أضرب: ضرب يطلق عليه الإيتوس ويعني ذلك أنّ " القائل حجة بخُلقه "[3] فحظّ الخطاب من الإقناع يكون أوفر كلّما كان المتكلم مشهورا بالأخلاق المحمودة .

ورغم أنّ هذه الخصائص ذات الطبيعة العقلية والأخلاقية قادرة على الحمل على الإذعان إلاّ أنها " تظل صفات عامة لا يمكن التقيد بها في تناول كافة الخطابات الحجاجية التي يزخر بها عالمنا المعاصر: الخطاب السياسيّ، والخطاب الدينيّ، والخطاب الإشهاريّ، والخطاب الأدبيّ." [4] فمظاهر الإيتوس تتشكل أيضا وفق الإطار النوعي للخطاب .

[1]- عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع ، ص 60.

[2]- أرسطو طاليس، الخطابة ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات الكويت ، دار القلم لبنان ، 1979 ، ص 08.

[3]- هشام الريفي ، الحجاج عند أرسطو، ص 145.

[4]-محمد مشبال ، البلاغة العربية وإستراتيجية الإيتوس في النص القرآني ، ضمن الكتاب الجماعي : بلاغة الخطاب الديني ، إعداد وتنسيق محمد مشبال، منشورات الاختلاف، ط1، 2015، ص 188.

ويتحقق الحجاج عبر ضرب آخر يعرف بالباتوس ، وهو يتعلق بالمخاطَب، فالإقناع لا يتحقق إلاّ من خلال التهيئة الإنفعاليّة والاجتماعيّة للمستمعين من أجل استدراجهم و توريطهم ،فالحجاج في الخطاب الإقناعيّ "بناء تؤخذ فيه ملامح السّامع بعين الاعتبار بالدرجة الأولى"[1] وعليه يجب على الخطيب أن يعرف الأحوال العاطفية لمستمعيه حتى يصل إلى إقناعهم .

ويتجسّد الحجاج من جهة أخرى عبر ضرب ثالث يطلق عليه اللوغوس وهو مما يأتي من اللغة ذاتها " من وجوه الاستدلال المتحقق بالقياس والاستقراء وما يتضمنه من التصديقات، تيسّر له السبيل إلى المنظومة الفكريّة والأخلاقيّة و الجماليّة التي يعقد عليها المخاطب " [2] .

تحولّت الخطابة عند أرسطو إلى صناعة مدارها الإقناع، وموضوعها مرتبط بالقضايا المحتملة والمسائل الخلافيّة القابلة للنقاش، يحاول فيها الخطيب التأثير في السامعين بتجنيد واستغلال كل الوسائل المتاحة التي تمكن من تحقيق الإقناع .

وبهذا التصور، صارت صناعة للقول الضامن لقيم العدل والخير وهي قيم مركزية في المجتمع الانساني، وتنحصر مهمة الحجاج الخطبي في "تحريك الفعل و توجيه الجمهور" [3] نحو هذه القيم .

اعتمد أرسطو في تصنيفه للخطابة على أسس مقاميّة، فأخذ بعين الاعتبار حال المتلقي والقضايا المحكوم فيها، وعلى هذه الأسس ميّز بين ثلاثة خطابات بلاغية :

- **أولا: الخطاب الاستشاري:** يتمثل غرضه في إصلاح المجتمع وتحقيق الخير والنفع لأفراده، وتكون الخطابة فيه "متعلقة بالخطاب السياسيّ وبالمداولات الجماعية " [4].

[1]-هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص 147.

[2]- حمادي صمود ، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ، ضمن : أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، كلية الآداب منوبة تونس، ص 13.

[3]-عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة ، منشورات ضفاف، ط 1، 2013، ص 53.

[4]-عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، ص 65.

- **وثانيا الخطاب القضائي أو المشاجري:** وهو " الجنس الذي حظي أكثر من غيره بالدراسة والتحليل في البلاغتين القديمة والحديثة . وموضوع هذا العلم يدور بين ثنائية العدل والظلم "[1]، فالقضاء هو المجال الخصب للحجاج .
- وثالثا: **الخطاب البرهاني التثبيتي:** ومجاله "المحافل الجماهرية والمناسبات الكبرى ،وقد تكون مدحا أو ذما " [2]. والهدف منه الدفاع عن القيم الأخلاقية و بيان الشريف والفاضل .

هذه الأنواع الثلاثة من الخطابة يتناسب كل واحد منها مع نوع من أنواع لحجج، فالخطبة المشورية Discours délibératif تناسبها حجة الإيتوس وفيها يجب على الخطيب أن يتحلى بحسن الخلق .

وأما الخطبة التثبيتية Discours épidictique فتناسبها حجة الباتوس، فعلى الخطيب أن يكون عالما بالنفس حتى يستطيع إثارة المشاعر والإنفعالات في نفوس السامعين فيحقق بذلك الإقناع .

وأما الخطبة المشاجرية Discours judiciare فتناسبها حجة اللوغوس أي الكلام نفسه [3].

ويمكن تلخيص الخصائص المميزة لكل نوع خطابي في الجدول التالي :

نوع الخطابة	المستمع	الحجة المناسبة
المشورية	أعضاء المجلس	الإيتوس
التثبيتية	الجمهور	الباتوس
المشاجرية	القضاة	اللوغوس

[1]-محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص50.

[2]-عبد اللطيف عادل ، بلاغة الإقناع في المناظرة ، ص 55.

[3]-ينظر، عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ، مسكيلياني للنشر والتوزيع ،ط1 ، 2011 ، ص 73.

إنّ البلاغة الأرسطية تربط بين الأدب والحياة ،لذلك اهتمت بنوعية المسار الحجاجي في التجمعات التي عرف بها المجتمع الأثيني، فمعظم القضايا التي تثيرها تبني عملية الإقناع على عقلنة الخطاب دون إهمال تأثير الأهواء "لذلك شملت مجمل أنماط الخطابات : البرهاني والاستشاري و القانوني المحيلة على القسمة الثلاثية المعروفة للأنواع الخطابية ، وأعطت الأولوية للغة أو اللوغوس "[1].

وفي حقيقة الأمر لا يمكن إدراك وظائف هذه الأنواع الخطابيّة إلاّ في ضوء الأبعاد التداوليّة المحيطة بها كالقرائن الخاصة بالأمكنة والأزمنة وأنماط السّامعين " فالمشاورة والمشاجرة والتثبيت مصطلحات تحدد الأهداف بالقول الخطبية (Macro buts illocutoires) عند الإغريق وهي أهداف تتحقق في طقوس مؤسساتية "[2] .

اعتبر أرسطو أنّ الخطابة تسعى للإقناع الممكن ، ويتحقق هذا الإقناع الممكن بما في القول من حجج خطبية وبفضل عناصر بنائها القائمة على "ثلاثة: 1-وسائل الإقناع أو البراهين 2-والأسلوب أو البناء اللغويّ 3-وترتيب أجزاء القول، ثمّ هناك عنصر الإلقاء الذي اعتبره الدارسون للخطابة بعد أرسطو ، ومنهم البلاغيون العرب عنصرا مستقلا ، ويتضمن الحركة و الصوت"[3] .

إنّ إنتاج القول الإقناعي قائم في جوهره على البحث عن مواد الحجاج والبصر بالحجة حتى يوفق المحاجج في اختيار ما يناسب سياق الخطاب ومقامه، وبعد الظفر بالحجج " لا بدّ من التفكير في ترتيب تلك الحجج و وضع كلّ واحدة في المكان المناسب لها "[4] حتى يضمن التأثير على السامع ، ثم يبحث المحاجج عن الألفاظ المناسبة التي تضمن نجاعة الخطاب .

---

[1]- آمنة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2011، ص5.

[2]-هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ص 142.

[3]- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري لدراسة الخطابة العربية- الخطابة في القرن الأول نموذجا، أفريقيا الشرق، 2002، ص 20.

[4]- حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم،ص15.

تعتبر الحجة النواة المركزية لبلاغة الإقناع عند أرسطو، ويمتاز هذا النوع من الحجاج في معظم الحالات بالموضوعية " لأنه ينبني على العلاقات المنطقية والمحايثة للخطاب "[1] فالمحاجج يتوسل في بناء خطابه على نوعين من الأدلة :

أ- **الحجج و الأدلة غير الصناعية:** وهي عناصر جاهزة ،يستعملها الخطيب لضمان التأثير على السّامع، وتحقيق المقاصد "لذلك هو يتبناها إذا خدمت مقصده... بل و يؤولها خدمة لذلك المقصد "[2] . ويقابل هذا النوع من الحجج عند العرب ما يطلق عليه الشاهد الديني أو الأدبي، وهو يتجلى في الخطاب من خلال الاقتباس من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، كما يظهر من خلال إدراج أبيات الشعر والأمثال والحكم .

ب- **الحجج والأدلة الصناعية:** والمقصود بها تلك التصديقات غير الجاهزة التي يأتي به المتكلم، فهي تظهر قدرة الخطيب الخطابية على الاستدلال الحجاجي، وتحقيق قصد الإقناع، ويعتمد المتكلم فيها على ما أطلق عليه أرسطو بالمواضع باعتباره مستودعا للحجج.

يعتمد المحاجج على الحجج المنتمية إلى المنطق، فيستعين بأداتين أساسيتين هما: " القياس المضمر ويقابله في المنطق الصوري الاستنباط، والمثل و يقابله في المنطق الصوري الاستقراء " [3] .

ويعتبر أرسطو أنّ الإضمار شرطا في الحجاج الخطبي، ويقرّ بأهميته الحجاجية "لأنه قياس بلاغي، متطور وفق مستوى الجمهور، انطلاقا من الممكن، بمعنى الانطلاق مما يعتقده الجمهور" [4] فهو يدفع المتلقي إلى الكشف عن المسار الاستدلالي واستنتاج مراد القائل .

[1]-مصطفى العطار ، لغة التخاطب الحجاجي، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2017، ص ص 196-197.

[2]-عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع ، ص 67.

[3]-المرجع نفسه ، ص 89.

[4]-محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص38.

ثم ينتقل أرسطو إلى إبراز دور المثل القائم على الواقعة التاريخيّة أو القائم على الحكاية الخرافيّة أو المبتكر من وقائع مشابهة ،فهذا النوع من الحجج يعتمد على المشابهة الحاصلة في المقدمات ،فهو إذاً ينتقل من فكرة خاصة لإضفاء مشروعية على فكرة خاصة أخرى.

يمكن تلخيص أنواع البراهين و الحجج الخطابية السابقة في الخطاطة التالية[1] :

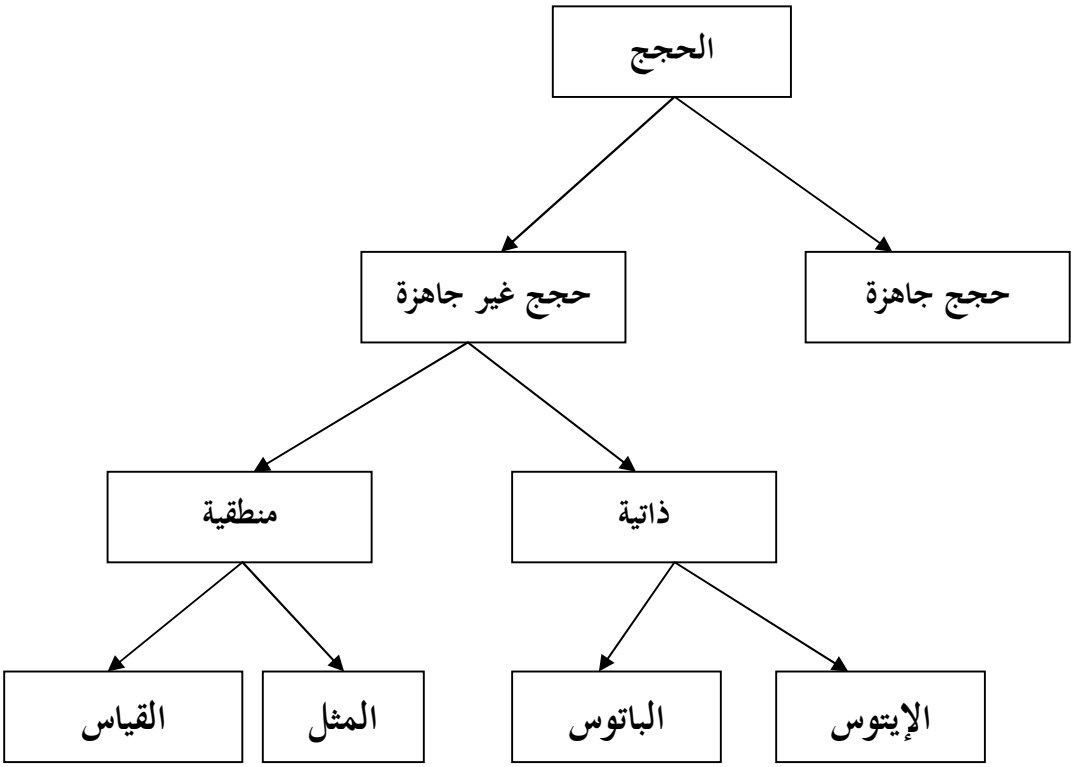

كان التناول الأرسطي للحجاج تناولا منطقيا ،ففي تحليله لآليات الاستدلال الحجاجي " نجده يتوسل بالآلية المنطقية في الربط بين المقدمات والاستنتاجات الخاصة بكل من الأقيسة والاستقراءات Inductions والأمثلة لأنها الأشكال الثلاثة الكبرى للاستدلال "[2] واستثمر أرسطو هذه الوسائل في إرسائه لقواعد الحجاج الخطابي الذي تعتمد عليه مختلف الأجناس القولية التي تستعمل في فضاءات الإنسان المختلفة، وانطلاقا ممّا سبق اتضح أن المفهوم الأرسطي للبلاغة ارتبط بمجال الإقناع وآلياته،

[1] – ينظر، محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 27.

[2] – محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 39.

"حيث تشتغل على النص الخطابي في المقامات الثلاثة المعروفة: المشاورة والمشاجرة والمفاضلة "[1]. وهذا هو المفهوم الذي أعاد بيرلمان صياغته في اتجاه بناء نموذج منطقي للإقناع .

2- بيرلمان و تيتيكاه:

حاول هذان الباحثان إعادة صياغة مفهوم الحجاج الذي ارتبط في فترة زمنية بعيدة بأفكار أرسطو ،فصارت غاية كلّ حجاج عندهما " أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها من آراء، أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان . فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك عنه)، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيئين للقيام بذلك العمل في اللحظة المناسبة "[2].

ففي هذا المفهوم يستند الحجاج في جوهره إلى صناعة الجدل من ناحية و صناعة الخطابة من ناحية أخرى ، لذلك وسم هذا التوجه الجديد بالخطابة الجديدة ، ويظهر أثر الجدل في التأثير الذهني للمتلقي ودفعه إلى الإذعان فمجاله العقل، وأمّا أثر الخطابة فيظهر من خلال توجيه المتلقي لعمل محدّد والدفع إليه ، فمجالها السلوك .

يرتكز الحجاج عند بيرلمان وتيتيكاه على الفعالية الخطابية ، فهو في جوهره حوار بين طرفي الخطاب، يسعى فيه كلّ طرف إلى حصول التسليم برأيه بعيدا عن الإلزام ،كما ابتعد الحجاج عندهما عن التملق والمناورة، حيث " أخرجا الخطابة من دائرة الاتهام بالتلاعب بالجمهور (Manipulation)"[3] الذي هيمن على الفكر السفسطائي في إنجازهم للخطاب .

اتسعّ مفهوم الحجاج عند بيرلمان، ولم يعد مقتصرا على الخطاب الشفوي فقط ،بل امتدّ ليشمل الخطاب المكتوب أيضا "فليس هناك ما يحمل الباحث على أن يقصر دراسته على العرض الشفوي

[1]-محمد العمري ، البلاغة الجديدة بين التخييل و التداول ، ص 12.

[2] - Chaim Perelman et Lucie Olberchts-Tytica, Traité de l'argumentation , p 59.

[3]-عبد الله صولة الحجاج في القرآن ، ص 29.

للبراهين و لا أن يحصرها في الجماهير المحتشدة في الميادين "[1] فجمهور الحجاج يمكن أن يكون حاضرا أو غائبا ،والخطاب الحجاجي " يمكن أن يكون منطوقا كما يمكن أن يكون مكتوبا "[2] والمتلقي المستهدف في الحجاج ليس بالضرورة جمهورا خاصا بل بل قد يتسع ليشمل الجمهور الكوني أي كلّ إنسان عاقل .

يمكن حصر خصائص الحجاج في هذه النظرية في خمسة ملامح رئيسية وهي [3] :

- يتوجه إلى مستمع .
- يعبر عنه بلغة طبيعية .
- مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.
- لا يفتقر تقدمه إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة .
- ليست نتائجه ملزمة.

ولعلّ هذه الملامح هي التي تمنح الحجاج بعدا تداوليا،و تجعله قائما على العلاقات شبه المنطقية، ومرتكزا على ما تمنحه اللغة من طاقات تعبيرية و بلاغية .

2-1-مقدمات الحجاج

يُعتبر المستمع قطب الرّحى في نظرية الحجاج عند بيرلمان، فكل مسار حجاجي يستهدف إقناع من يتوجه إليه الخطاب، ولا يتحقق ذلك إلا بمراعاة ما يميز المخاطَب من خصائص نفسية واجتماعية وثقافية حتى أن الحجج المرتبطة باللوغوس لا تنطلق إلاّ من المقدمات المقبولة عند الجمهور، و"من بين المواد التي يستقي منها الخطيب هذه المقدمات، يميز بيرلمان بين ما يعود منها إلى ما يعتبر عند الناس

[1]- صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 68.

[2]- عبد الله صولة، الحجاج :أطره ومنطلقاته و تقنياته من خلال «مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة » لبرلمان و تيتيكاه ، ضمن الكتاب الجماعي أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، إشراف حمادي صمود ، كلية الآداب منوبة تونس، ص 307.

[3]-سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر العربي القديم ، ص ص 27-28.

أفضل. الأولى هي: الوقائع والحقائق والمظنونات(Les présomptions) ، أمّا الثانية فهي القيم وتراتبيتها و مواقع الأفضل "[1]، ويعتمد المتكلم على هذه المقدمات لضمان تسليم الجمهور بالنتائج التي تنبثق منها .

أ–الوقائع : وهي من أهم ما يمكن أن ينطلق منه الحجاج ، و"تنقسم الوقائع إلى وقائع مشاهدة معاينة من ناحية و وقائع مفترضة Faits supposés من ناحية أخرى " [2] ، ويلجأ إليها المحاجج لأنها موضع قبول من طرف المخاطَب ،فهي لا تكون عنده موضع معارضة وعليه يسهل نقل التصديق المتعلق بهذا النوع من المقدمات إلى النتائج التي يسعى المتكلم إلى إثباتها.

ب–الحقائق: وهي أكثر تعقيدا من الوقائع، " ومدارها على نظريات علمية أو مفاهيم فلسفية أو دينية "[3] و يعمد المتكلم إلى استعمالها ليحدث موافقة الجمهور على واقعة جديدة .

ج– الإفتراضات: يعتبر الإفتراض "شكلا من أشكال المقدمات الحجاجية التي عليها يبني المحاجّ حجاجه أنساقا وصورا وآلات "[4]، فالمتكلم يرتكز على هذه الاعتبارات الافتراضية حتى يضمن نجاعة الخطاب الحجاجي ، مراعيا ما يحف الخطاب من ظروف وملابسات ، فالافتراضات " هي متغيرة تبعا للوسط والمقام والمتكلم والسامعين، لأنها تقاس بالعادي Le normal، والعادي مفهوم مجرد يختلف باختلاف القدرات و الإمكانات الفردية و الجماعية "[5] .

[1]– الحسين بنو هاشم ، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان و آفاق تحليل الخطاب ، ضمن الكتاب الجماعي: البلاغة و تحليل الخطاب، إعداد و تنسيق : محمد مشبال، ص 156.

[2]– عبد الله صولة ، في نظرية الحجاج ، ص 24.

[3]– عبد الله صولة ، الحجاج : أطره ومنطلقاته و تقنياته من خلال " مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة " لبرلمان و تيتيكاه ، ص309.

[4]–علي الشبعان ، الحِجاج والحَقيقة و آفاق التأويل ، دار الكتاب الجدي المتحدة ، ط 1، 2010 ، ص ص 102–103.

[5]– سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص 112.

د–القيم: تلعب القيم دورا هاما في المسار الحجاجي، فكلّ خطاب إقناعي يحقق نجاعته الحجاجية باستثمار النظام القيّمي وتأثيره على المستمع ،فالنشاط الحجاجي يسعى لتثبيت القيم في المجتمع .

هـ–الهرميات : يراعي المحاجج في بناء خطابه الإقناعي حصول موافقة الجمهور ،و لا يتحقق له ذلك إلا بمراعاة سلّمية القيم ،فهي "ليست مطلقة و إنّما هي خاضعة لهرمية ما ،فالجميل درجات وكذلك النافع "[1] وإذا كان الحجاج يسعى لإقناع الجمهور ، فإنّ أهم ما يميز هذا الجمهور هو طريقة ترتيبه للقيم. ويقترب هذا المفهوم من فكرة السلم الحجاجي التي جاء بها ديكرو ، فكلاهما يركز على ترتيب القيم والحجج حسب قوتها .

و–المعاني أو المواضع : لاقت هذه المنطلقات الحجاجية اهتماما كبيرا منذ العهد اليوناني مع أرسطو، و اعتبرت مستودعات للحجج ، فهي تلعب " دورا كبيرا في الحجاج والدفع إلى الفعل وخلخلة العقبات التصورية التي تكون أحيانا راسخة لدى المحاججين ، والتي لا تنسجم مع البناء الحجاجي المقدم" [2] .

وتنقسم المواضع إلى مواضع مشتركة ، ومواضع خاصة تكون وقفا على علم بعينه أو نوع خطابي محدد لا يتعداه إلى غيره .

[1]– عبد الله صولة، الحجاج : أطره و منطلقاته و تقنياته من خلال " مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة " لبرلمان و تيتيكاه، ص310.

[2]– سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 113.

إن المواضع من الطرائق التي يستخدمها المتكلم طلبا للتصديق و هي أنواع :

– **مواضع الكم** : " وهي المواضع التي تثبت أن شيئا ما أفضل من شيء آخر لأسباب كمية "[1] كقولنا الكل أفضل من الجزء أو الأكثر أفضل من الأقل .

– **مواضع الكيف** : وهي ضد الكم ، وتستمد قيمتها من وحدانيتها ، مثل الحق الذي لا يعلى عليه مهما كان عدد خصومه .

– **مواضع أخرى**: ومنها مواضع الترتيب التي تسمح باعتبار السابق مثل المبادئ والقوانين أفضل من اللاحق المتمثل في الوقائع ، ومواضع الموجود التي تعتبر أن الموجود أفضل من المحتمل والممكن أو غير الممكن[2].

إن المحاجج الناجح هو الذي يحسن التعامل مع هذه المقدمات ، حيث ينتقي منها ما يضمن التأثير في السامعين ، و يختار ما يناسب النتائج التي يودّ الوصول إليها ، ذلك لأنّ العناصر الحجاجية لا تكون ذات فعالية إلاّ بمراعاة مقام المتخاطبين ، فما يكون مجديا في موقف ما ، قد لا يكون مجديا في موقف آخر .

يعتمد استحضار الحجج و بنائها على نوعية الجمهور المستهدف من طرف الخطاب الحجاجي فكثيرا ما يعتمد المسار الحجاجي على انتقاء المعطيات أو المقدمات الحجاجية التي تكون مقبولة لدى السامع "و هكذا فإن ما هو حاضر في الذهن يكون أهم . وهو ما ينبغي على نظرية الحجاج أن تأخذه بعين الاعتبار" [3] .

[1]– عبد الله صولة ، في نظرية الحجاج ، ص 27.

[2]–ينظر، المرجع نفسه، ص 28.

[3]– Chaim Perelman et Lucie – Olberchts-Tytica, Traité de l'argumentation – La nouvelle rhétorique, p 156.

ولا يتحقق للمتكلم ذلك إلا بالأخذ بعين الاعتبار شكل الخطاب و مضمونه ،ففي بلاغة الإقناع " لا يمكن دراسة البنى الأسلوبية منفصلة عن أهدافها الحجاجية "[1] فحتى الصور البلاغية تحمل قيمة حجاجية .

2-2-تقنيات الحجاج

حصر بيرلمان وتيتيكا تقنيات الحجاج في طريقتين هما طرائق الوصل (Procédés de liaison) من ناحية و طرائق الفصل (Procédés de dissociation) من ناحية أخرى والمقصود بالطرائق الاتصالية تلك " الآليات التي تقرب بين العناصر المتباينة و تمكن من إقامة روابط علاقية بينها كي يمكن دمجها في بنية حجاجية متماسكة "[2] وقد تم حصرها في ثلاثة أنواع من الحجج هي الحجج شبه المنطقية، و الحجج المؤسسة على بنية الواقع ، والحجج المؤسسة لبنية الواقع .

أما الطرائق الإنفصالية فهي تلك الطرائق التي تقوم على الفصل بين عناصر تقتضي في الأصل أن يكون لها مفهوم واحد .

2-2-1-الطرائق الاتصالية في الحجاج : و يمكن تتبع أشكالها في الأنواع التالية :

أ- الحجج شبه المنطقية: تستمد هذه الحجج قوتها الإقناعية من اعتمادها على البنى المنطقية، لذلك تغري السامع لقبولها، ورغم أنّ هذه الحجج "تقبل الصياغة المنطقية غير أنها غير ملزمة"[3].

قسّم بيرلمان هذا النوع من الحجاج إلى نوعين :

- الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية : وهي بدورها أنواع:

[1]- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص ص 33-34.

[2]-محمد سالم حمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 127.

[3]-عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، ص 167.

- **التناقض وعدم الاتفاق:** يحدث التناقض عندما تكون هناك قضيتين مختلفتين في وجهتهما الحجاجية ، وعادة ما تظهر في تعارض المقال بالمقام ، ويحمل هذا الأسلوب طاقة حجاجية تساعد على التأثير في المتلقي ، لذلك يتخذها خطاب السخرية سلاحا حجاجيا في بلاغته النوعية ،فالقول الذي يدفعنا إلى الضحك هو " القول الذي يتعارض بدون أي مبرر مع الرأي السائد "[1] فمهام المحاجج في السخرية هو إماطة اللثام عن التعارض في أطروحات الخصم .
- **الحد و التعريف** : قد يرتكز الحجاج على تحديد المفاهيم في إضفاء الشرعية على موقف ما ويتضح الطابع الحجاجي للتحديدات عندما نواجه بتحديدات متنوعة لنفس الكلمة .
- **العلاقة التبادلية و قاعدة العدل** : و فيه يتعامل المحاجج مع قضيتين مختلفتين بالمعاملة نفسها للتماثل الحاصل بينهما ، فقاعدة العدل تقتضي معاملة واحدة لكل العناصر الحجاجية الواقعة في مقولة واحدة . والملاحظ أن الحجج القائمة على العلاقة التبادلية أو العكسية " يمكن أن تنشأ عن قلب وجهات النظر من قبيل :إذا كانت تبدو لكم تقاليد أهل الصين غريبة فإن تقاليدكم تبدو لهم كذلك "[2] فهذه القاعدة تجبر السامع على تبنيّ مقتضى واحد لا أكثر .
- **حجج التعدية** : إن التعدية خاصية شكلية تتيح للمتكلم " الانطلاق من إثبات أن العلاقة الموجودة بين أ و ب من جهة ، و ب و ج من جهة أخرى ،هي علاقة واحدة ،إلى استنتاج أنّ العلاقة بين أ و ج هي العلاقة نفسها "[3] و من أهم الحجج التي تعتمد علاقات التعدية ذات الصبغة الحجاجية تلك الحجج التي تستثمر علاقة التضمن التي تبين أن قضية ما تتضمن قضية أخرى .

[1]-عبد الله صولة، الحجاج :أطره ومنطلقاته و تقنياته من خلال مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه، ص326.
[2]- المرجع نفسه، ص 329.
[3]-عبد العالي قادا ، بلاغة الإقناع ، ص 169.

– **الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى الرياضية** : و من أهم أنواعها

- **إدماج الجزء في الكل** : تعتمد هذه الحجج على أساس أن ما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء، وينظر إلى هذه العلاقة عادة من زاوية كمية " فالكل يحتوي الجزء وتبعا لذلك فهو أهم منه وهو ما يجعل هذا الضرب من الحجاج في علاقة بمواضع الكم "[1] وتستمد هذه الحجج طاقتها الإقناعية من اعتمادها على هذه العلاقة الرياضية (قاعدة الكم) .
- **تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له:** تبنى على هذا المبدأ طائفة من الحجج يطلق عليها حجج التقسيم أو التوزيع، وهي تحقق الانسجام الشكلي، ويعود ذلك إلى "توسلها بالعلاقات الريّاضية التي تجعل الخطاب المضمن منطويّا على ضرب من الوثاقة العقليّة التي يقوى بها معتقد الجمهور ويضاعف من خلاله يقينه "[2] .

ويرى بيرلمان أن الغاية من المحاجة بالتقسيم هي تقوية حضور الحجة بالبرهنة على وجود الأجزاء المشكلة لها، بمعنى" إشعار الغير بوجود الشيء موضوع التقسيم من خلال التصريح بوجود أجزائه "[3].

ب–الحجج المؤسسة على بنية الواقع

وهي حجج شبه منطقية يستخدمها المتكلم في بناء خطابه الحجاجي للإنتقال من قضايا ومقدمات يقرّ بها الجمهور إلى أحكام جديدة يسعى الخطاب الإقناعي إلى دفع المتلقي لقبولها معتمدا في ذلك على الواقع و ما يمنحه من مشروعية لبناء الأحكام .

إن هذه الحجج " لا تصف الواقع وصفا موضوعيا وإنّما هي طريقة في عرض الآراء المتعلقة بهذا الواقع و يمكن أن تكون هذه الآراء وقائع Des faits أو حقائق Des vérités أو افتراضات Des présomptions "[4] .

---

[1]– عبد الله صولة ، في نظرية الحجاج، ص 48.

[2]– محمد سالم حمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص 148.

[3]عبد الله صولة ، الحجاج :أطره ومنطلقاته و تقنياته من خلال مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة لبرلمان، ص 331.

[4]–عبد الله صولة، في نظرية الحجاج ، ص 49.

ويمكن تقسيم الحجج التي ترتكز على الواقع في نجاعتها الحجاجية إلى نوعين :

- **الاتصال التتابعي**: وله عدة صور وأشكال حجاجية، منها الوصل السببي الذي يعتمد على الربط بين النتائج وأسبابها، وحجة الاتجاه التي" تهدف إلى التحذير من مغبة إتباع سياسة المراحل التنازلية ،أو مغبة انتشار ظاهرة ، وتسمى أيضا حجة الانتشار أو حجة العدوى "[1].
- **الاتصال التواجدي** : قد يعتمد المسار الحجاجي على العلاقة القائمة بين الشخص وأعماله وقد يعتمد على حجة السلطة باعتبارها " ذات مكانة في بلورة المسار الحجاجي حتى يحصل الإقناع و يتسنى التيقين "[2].

ج–الحجج المؤسسة لبنية الواقع:

تستمد هذه الحجج قيمتها من سعي المحاجج لبناء واقع جديد، و يمكن أن نصنف هذا النوع من الحجج إلى مستويين أساسيين: أولهما الحجج التي تؤسس الواقع بواسطة الحالات الخاصة كالمثل L'exemple الذي يؤتى به للتأسيس لقاعدة ما، والاستشهاد L'illustration الذي يؤتى به لتقوية درجة تصديق النتائج التي يسعى المحاجج للوصول إليها .

أمّا ثانيهما فيقوم على الاستدلال بالتمثيل Analogie وهو ذو قيمة حجاجية " وتظهر قيمته الحجاجية هذه حين ننظر إليه على أنه تماثل قائم بين البنى و صيغة هذا التماثل العامة هي " إن العنصر –أ– يمثل إلى العنصر –ب – ما يمثله العنصر –ج – بالنسبة إلى العنصر – د– "[3].

يورد عبد الله صولة مثالا لذلك من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوت ﴾[4].

[1]– عبد العالي قادا ، بلاغة الإقناع ، ص 171.

[2]–علي الشبعان ، الحجاج و الحقيقة و آفاق التأويل ، ص ص 158–159.

[3]–عبد الله صولة ، نظرية الحجاج ، ص 56.

[4]– سورة العنكبوت، الآية 41.

فعلاقة المشركين بأوليائهم تشبه علاقة العنكبوت ببيتها ، فالتمثيل إظهار للبنى المتشابهة حتى وإن كانت تبدو من مجالات متباعدة، وتجدر الإشارة إلى أن التفاعل بين أطراف التمثيل قد يشتد أحيانا فيصبح استعارة .

2-2-2-الطرائق الانفصالية في الحجاج

تقوم هذه الطرائق على الفصل بين العناصر التي تشكل وحدة بينها، ويستخدم المتكلم هذه التقنيات لضمان نجاح خطابه الإقناعي ، فهذا المسلك الحجاجي الذي يتبعه المحاجج" يرمي من ورائه تعرية شخصية المدعي بالكشف عن الثنائية الضدية التي تحركه ، إنها الزوج ظاهر /حقيقة / Réalité Apparence . ولا يخفى حجم الخداع والزيف الذي يفصح عنه الظاهر، في حين أن الباطن / الحقيقة هو خلاف ذلك."[1]

نخلص مما سبق أنّ نظرية الحجاج عند بيرلمان في البلاغة قائمة على إعادة الاعتبار للبعد الحجاجي، و كل ما يرتبط بالخطاب الإقناعي، حيث بعثّ مفهومها الأصلي اليوناني المرتبط بالتأثير، وانتقلت جهوده إلى محاولات التجديد ، فأحدث جسور تقاطع بينها و بين الجدل، وفي مقابل ذلك فصّل بين البرهنة و الحجاج ، فإذا كان المفهوم الأول يختص بالحقيقة البديهية ، فإن المفهوم الثاني يختص بمجال الشبيه بالحقيقة حيث لا مجال لحقيقة نهائية ، وبهذا التمييز فتح آفاقا واسعة أمام تحليل الخطاب وفق نظرية الحجاج " تمتد من الخطاب اليومي إلى الخطاب الفلسفي، مرورا بكل أشكال الخطابات الإنسانية خارج الخطاب العلمي الدقيق : الخطاب الأدبي، الخطاب الديني الخطاب السياسي، الخطاب الدعائي، الخطاب الإشهاري، الخطاب الصحافي، الخطاب التربوي، الخطاب القانوني... سواء كانت شفوية أم كتابية ." [2]

[1]-مصطفى العطار ،لغة التخاطب الحجاجي ، ص178.

[2]-الحسين بنو هاشم ، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان وآفاق تحليل الخطاب ، ضمن الكتاب الجماعي: البلاغة وتحليل الخطاب، إعداد وتنسيق : محمد مشبال ، ص 153.

وبهذا التصور فكل خطاب إنساني يتضمن بالضرورة حجاجا، لكن درجة حجاجيته تختلف باختلاف شكل الخطاب و نوعه .

لا تهمل نظرية بيرلمان المستمع ،بل تعتبره القطب الرئيس في كل مسار حجاجي ، فغاية الحجاج إقناع من يريد الخطيب أن يؤثر فيهم ، لذلك يجب أن تكون للخطيب معرفة قبلية بجمهوره حتى تنجح الإستراتيجية الإقناعية في الحصول على تصديق الجمهور الذي يتوجه إليه الخطاب ، فلا ينطلق المتكلم إلا من المقدمات المقبولة لدى المخاطب، ولا يستعمل إلّا التقنيات الحجاجية التي تجعل السامعين يذعنون للأفكار التي تطرح عليهم ، و تدفعهم إلى الفعل المطلوب.

والجمهور المستهدف من طرف الحجاج عند بيرلمان لا يصدر إلا من نظرة أرحب ، فهو لا يستهدف مستمعا محدّدا في فضاء مكاني خاص ، بل مستمعا كونيا يمكن أن يكون حاضرا لحظة التلفظ بالخطاب كما يمكن أن يكون غائبا ، فنظرية الحجاج تتحرر من الأفق المحدود للخطاب الشفوي ،بل تنفتح على الخطاب المكتوب وآليات البرهنة فيه " لأن مجال إعمال العقل فيه تحليلا و تأويلا أوسع مما هو متاح في الخطابة التي يتميز نوع الخطابة فيها بأنه شفوي فقط "[1] .

3-ديكرو و أنسكومبر

اعتمد مشروع بيرلمان الحجاجي على رؤية بلاغية ومنطقية وفلسفية، رغم أنّ الإقناع مرتبط بالخطاب الذي يستعمل اللغة الطبيعية، وهذا ما دفع بديكرو وزميله أنسكومبر إلى رفض هذه المنطلقات الحجاجية الخارجة عن بنية اللغة ،و أسّسا نظرية جديدة تعيد للنظام اللساني مركزيته في كل تحليل مرتبط بالخطاب ،و يطلق على هذا الإتجاه بنظرية الحجاج اللغوي أو اللساني، وهو يهدف إلى دراسة الجوانب الحجاجية في اللغة و وصفها انطلاقا من قصدية التأثير الملازمة لكل ملفوظ .

[1]-محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 110.

تهتم هذه النظرية " بالوسائل اللغوية و بإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم ، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما ، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية"[1] فلم تعد المقاربة الحجاجية قائمة على البحث عن العلاقات المنطقية الشكلية التي تتحكم في الخطاب ولكن صارت تعتمد على ما تحمله البنية الداخلية للكلام من علاقات حجاجية .

إن هذه الأطروحة " تعتبر الوقائع الحجاجية مكونات للبنية الداخلية للغة هي أساس من الأسس التي تقوم عليها النظرية الحجاجية "[2] ومن ثمّة تستفيد الدراسات الحجاجية من البحوث التي تحاول اكتشاف قواعد الخطاب المتحكمة في النظام الداخلي للملفوظات، ذلك لأنّ " الحجاج يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب " [3] .

إن الوظيفة الأساسية التي تؤديها اللغة عند ديكرو ليست محصورة في الوظيفة الإخبارية ، بل في الوظيفة الحجاجية ، فهو يربط القول بمقصدية المتكلم ،و لا يمكن فهم نظام الخطاب الإقناعي إلا بربطه بالسياق ، ومن هنا نفهم " إمكانية الدفاع عن أطروحة أولية الحجاج على الإخبار "[4] .

لا تركز هذه النظرية على التقنيات الحجاجية التي تعتمد البنى شبه المنطقية أو البنى التي تعتمد على الواقع، بل بلورت مفاهيمها على مركزية اللغة في كل مسار حجاجي يستهدف التأثير على المخاطَب ، فمدار الأمر في هذه النظرية اللسانية قائم على " اعتبار الحجاج مكونا من مكونات البنية اللغوية ،فهو يكون داخل اللغة، و لا تحدده اعتبارات فلسفية أو منطقية أو بلاغية " [5] .

---

[1] – أبو بكر العزاوي ، الحجاج و المعنى الحجاجي، ضمن الكتاب الجماعي التحاجج طبيعته و مجالاته و وظائفه ، تنسيق حمو النّقّاري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ص 55.

[2] –جاك موشلر وآن ريبول ، القاموس الموسوعي للتداولية ، ترجمة مجموعة من الأساتذة و الباحثين بإشراف عز الدين المجدوب ، المركز الوطني للترجمة ، تونس ،2010، ص 321.

[3] – أبو بكر العزاوي ، اللغة و الحجاج ، العمدة في الطبع ، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2006 ، ص 08.

[4] – صابر الحباشة ، مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية ، دار صفحات للدراسات و النشر، سوريا، ط1، 2011 ، ص 32

[5] –عبد العالي قادا ، بلاغة الإقناع ، ص 179.

إلى جانب ذلك رفض ديكرو التصنيف الخطيّ الذي كان سائدا في النظريات اللسانية التقليدية لأنه يفصل بين التركيب و الدلالة و التداول ، فإذا كان جميعها يرتبط بنظام اللغة ،فإنه من الواجب على كل باحث أو دارس أن يدمج هذه المستويات ليتمكن من فهم الخطاب أو تحليله .

وأطلق على هذا التيار اللساني الجديد بالتداولية المدمجة ،و تتميز برفضها الفصل بين الدلالة والتداولية ،لذلك اعتبرت " نظرية دلالية تدمج في الشفرة اللغوية مظاهر عملية القول." [1] فموضوع البحث فيها هو الجزء التداولي المدمج في الدلالة ، وقد جسّد ديكرو هذا التوجه اللساني الجديد باقتراح نموذج على شكل حرف y يتعالق فيه المكون اللساني مع المعطيات غير اللسانية، ويمكن تمثيل ذلك بالخطاطة التالية :[2]

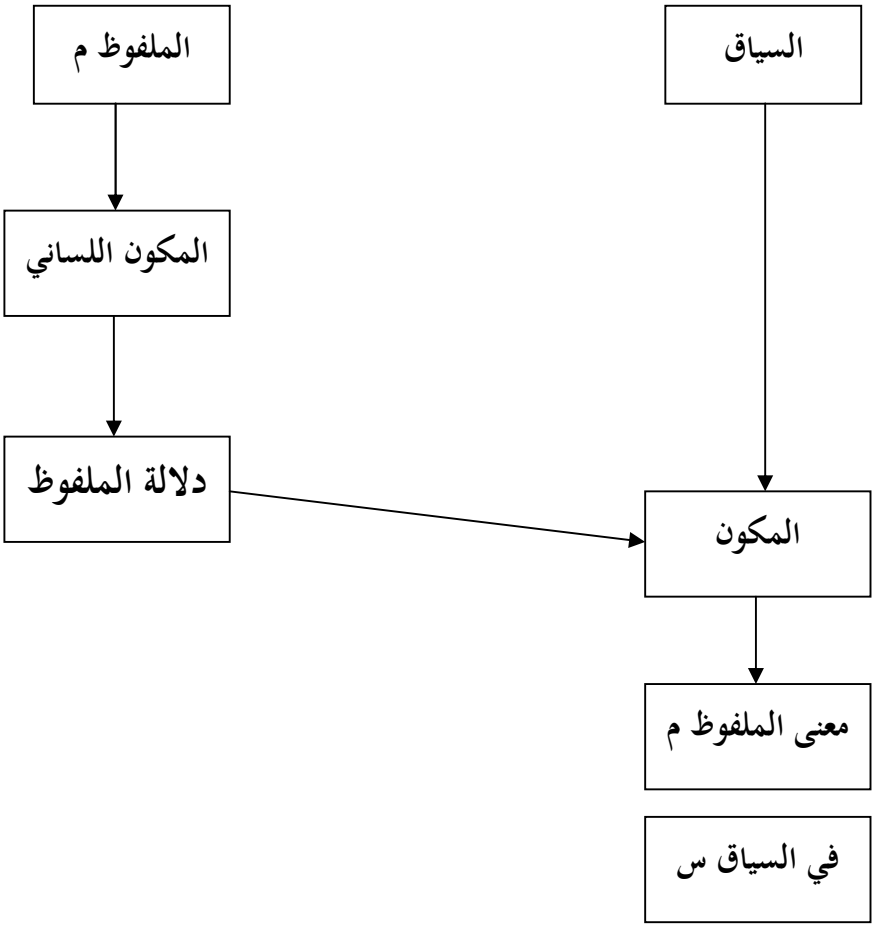

[1]- جاك موشلر وآن ريبول ، القاموس الموسوعي للتداولية ، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، ص83.

[2]- الراضي رشيد، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلد 4-5 ،يوليو -سبتمبر 2005، ص 221.

إنّ التداولية المدمجة تعتبر أنّ اللغة لا تحمل وظيفة الإخبار أو الوصف فقط ، ولكن " تمتلك قوة إنجازية فتحقق أعمالا وتحدد مواقفا"[1]، وهنا يظهر دور الحجاج في هذا التيار التداولي الجديد ، فلم يعدّ النشاط الحجاجي يشتغل بعيدا عن النسق اللغوي، بل تحوّل إلى نشاط تلفظي كامن في البنية الداخلية للخطاب الحجاجي .

يحمل الخطاب الإقناعي مجموعة من العلامات التي تحدد الوجهة الحجاجية التي يسعى المتكلم إلى تأسيسها " وهذه العلامات متنوعة ، وتشتغل داخل الخطاب بصور مختلفة ،فهي تظهر تارة في صورة عوامل حجاجية ،وتارة أخرى في صورة روابط حجاجية، إضافة إلى اشتغال مجموعة من الخصائص المرتبطة ببعض الظواهر كالاستفهام والتضمين والاقتضاء ، والخاصية السلمية لبعض الملفوظات "[2] .

تمتاز الحجج اللغوية بأنها سياقية، تتحدد حجيتها بالسياق اللغوي ، كما يمتاز الحجاج اللغوي بأنه " نسبي ومرن وتدريجي وسياقي ، بخلاف البرهان المنطقي والرياضي الذي هو مطلق و حتمي"[3].

إن هذه الحجج لا تتوزع في الخطاب بطريقة عشوائية ، بل تتحكم فيها ما يطلق عليه القوة الحجاجية La force argumentative التي ترتبط بالقوة والضعف المميز للطاقة الحجاجية التي يحملها كلّ قول يورده المتكلم لصالح نتيجة ما . ويطلق على النظرية التي تهتم بنظام انتظام الحجج في الخطاب الإقناعي بنظرية السلالم الحجاجية .

3-1- السلم الحجاجي

يعتبر ديكرو أنّ السلم الحجاجي l'échelle argumentative قائم على علاقة ترتيبية معينة بين حجج منتمية إلى فئة حجاجية ما ، فحين "توجه علاقة ترتيب أو قوة العناصر الموجودة داخل قسم حجاجي سنقول إن الحجج تنتمي إلى سلم حجاجي واحد ."[4]

---

[1]- عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، ص 179.

[2]- الراضي رشيد، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر و ديكرو ، 225.

[3]- أبو بكر العزاوي ، اللغة و الحجاج ، ص 20.

[4]-جاك موشلر وآن ريبول ، القاموس الموسوعي للتداولية ، ص 298 .

يقوم الخطاب الإقناعي على توزيع الأدلة و الحجج وفق "علاقة ترتيبية للحجج يمكن أن نرمز لها كالتالي:

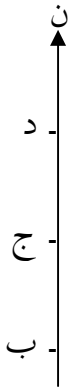

ن = النتيجة

"ب " و "ج" و "د" : حجج و أدلة تخدم النتيجة "ن" " [1]

يتسم السلم الحجاجي بالسمتين الآتيتين :

أ –كل قول يرد في درجة ما من السلم، يكون القول الذي يعلوه دليلا أقوى منه بالنسبة لـ "ن".

ب – إذا كان القول "ب" يؤدي إلى النتيجة "ن" ، فهذا يستلزم أن "ج" أو "د" الذي يعلوه درجة يؤدي إليها ، و العكس غير صحيح [2].

وللتمثيل نقول:

- حصل زيد على الدكتوراه.
- حصل زيد على الماجستير.
- حصل زيد على البكالوريا .

[1]- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 20.

[2]-ينظر، المرجع نفسه، ص 21 .

تؤشر هذه الجمل الحجاجية على نتيجة مضمرة ، تتمثل في كفاءة زيد العلمية ،و يمكن الترميز لهذا السلم كما يلي :

ينبني السلم الحجاجي على قوانين ثلاثة :

أ – قانون النفي : " إذا كان قولا ما "أ" مستخدما من قبل متكلم ما ليخدم نتيجة معينة ، فإنّ نفيه (أي~ أ) سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة "[1] فإذا قال المتكلم أن زيد حاصل على البكالوريا فإن ذلك حجة لصالح كفاءة زيد العلمية ، و أما إذا قال المتكلم أن زيد غير حاصل على البكالوريا فإن ذلك حجة لصالح التشكيك في كفاءة زيد .

ب – قانون القلب : و مفاد هذا القانون أن "السلم الحجاجي للأقوال المنفية هو عكس سلم الأقوال الإثباتية "[2] فإذا كانت الحجة الأولى "أ" أقوى من الحجة الثانية "أ´" في التدليل على النتيجة "ن"، فإن نقيض الحجة الثانية أقوى من نقيض الحجة الأولى في التدليل على النتيجة المضادة . ونوضح ذلك بالسلمين الحجاجيين التاليين :

[1] –Ducrot Oswald, les échelles argumentatives, Edition de minuit, Paris 1980 , p 27.

[2] –أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج ، ص 22.

زيد ذو كفاءة علمية	التشكيك في الكفاءة العلمية لزيد
ـ الدكتوراه	لم يحصل على البكالوريا
ـ البكالوريا	لم يحصل على الدكتوراه

ج- قانون الخفض: "يشير هذا القانون إلى أن النفي اللساني يدل على معنى " أقل من "Moins que ويتيح هذا القانون تفسير بعض استعمالات التورية Emplois lititiques في الملفوظات المنفية " [1].

فإذا قال المتكلم أن: الجو ليس باردًا. فالسامع يستبعد أن يكون البرد شديدا، وسيفهم من القول السابق أن الجو دافئ أو حار .

تحمل الحجج الواردة في السلم الحجاجي طاقة إقناعية مختلفة لكن جميعها يرتبط بالنتيجة التي يرمي المحاجج إلى إثباتها أو نفيها ، فكل قول حجاجي له اتجاه حجاجي محدد، فالقيمة الحجاجية لأي ملفوظ لا يمكن الوقوف عليها إلاّ بتحديد الوجهة الحجاجية التي يسعى إليها، وما يعين السامع على ذلك هو العوامل والروابط الحجاجية المبثوثة في الخطاب ، " إن هذه الأدوات و الروابط تكون متضمنة لمجموعة من الإشارات و التعليمات (instructions) التي تتعلق بالطريقة التي يتم بها توجيه القول أو الخطاب "[2].

تعتبر نظرية الحجاج عند ديكرو أن النشاط الحجاجي " تفضحه البنية اللغوية المجردة و تصريف المتكلم لملفوظه عبر عوامل حجاجية "[3] فاللغات الطبيعية تشتمل على مؤشرات لغوية خاصة بالحجاج ،

[1]-جواد ختام ، التداولية أصولها و اتجاهاتها ،دار كنوز المعرفة ، الأردن ، ط1، 2016 ، ص 150.

[2]- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج ، ص 25.

[3]- عز الدين الناجح ، العوامل الحجاجية في اللغة العربية ، مكتبة علاء الدين ،تونس ،ط1 ،2011 ،ص 31.

ففي اللغة العربية ، مثلا ، هناك عدد كبير من الروابط و العوامل الحجاجية مثل: لكن، بل، إذن، بما أن، وإنما ... و قد تكون هذه الروابط صريحة أو مضمرة حسب السياق التداولي .

3-2- المؤشرات الحجاجية

تركز نظرية ديكرو على المظاهر الحجاجية للمؤشرات اللغوية ، و التي يمكن حصر دورها في ثلاثة وظائف هي أولا تفادي تعدد المسالك التأويلية التي توصل إلى مقصد الخطاب ،وثانيا تنشيط المواضع topoi ، وثالثا توجيه الأقوال الحجاجية نحو النتيجة "ن"[1] .

يميز ديكرو بين صنفين من المؤشرات الحجاجية هما: الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية، فالروابط الحجاجية هي التي تربط بين قولين أو بين حجتين أو أكثر مثل بل، لكن، وحتى... إلخ ، فالرابط إذن يضطلع " بوظيفة التأليف بين فعلين كلاميين مختلفين ، أي بين قضيتين أو أكثر تجمع بينهما علاقة ما ، كعلاقة التعارض أو السببية أو الإضافة أو الاستنتاج أو الإضراب ... " [2] كما في المثال التالي : لم يشارك اللاعب في المقابلة لأنه مصاب فالقضية الأولى هي " عدم مشاركة اللاعب في المقابلة " والقضية الثانية هي "مرض اللاعب" وهما قضيتان مترابطتان بعلاقة السبب والنتيجة .

أما العوامل الحجاجية فهي " تقوم بحصر و تقييد الإمكانات التي تكون لقول ما، و تضم مقولة العوامل أدوات من قبيل : ربما ، تقريبا ، كاد ، قليلا ، كثيرا ، وما ... إلا وجلّ أدوات القصر . "[3] ونضرب مثالا على ذلك قول الأم لابنها الذي يحضر نفسه للإلتحاق بالمدرسة : لا تشير الساعة إلاّ إلى السابعة. فتوظيف أسلوب القصر(لا... إلا) في هذه الجملة يقلّص من الإمكانات الحجاجية ، ويصبح الاستنتاج الممكن هو: " لا تشير الساعة إلا إلى السابعة ، أنت لست متأخرا ،لا داعي للإسراع .

[1]-ينظر، المرجع السابق ، ص 35.

[2]-جواد ختام ، التداولية أصولها واتجاهاتها ، ص153.

[3]- أبو بكر العزاوي ، اللغة والحجاج ، ص 27 .

ووجب التنبيه إلى أنّ الأدوات الحجاجية تحتاج في كلّ مسار حجاجي يربط بين الحجة والنتيجة إلى وجود مبادئ حجاجية أو مواضع تمتاز بمجموعة من الخصائص :

أ –إنها مجموعة من المعتقدات و الأفكار المشتركة بين أفراد مجموعة بشرية معينة .

ب – العمومية والتدرجية: فهي تصلح للسياقات المختلفة، وتقيم علاقة بين سلمين حجاجيين.

ج – النسبية : يمتاز المبدأ الحجاجي بإمكانية إبطاله ، فإثباته أو دحضه يعتمد على سياق الخطاب .[1]

بالاستناد إلى ما سبق يتبين لنا أنّ منهجية ديكرو تعتمد على وصف الأقوال وفق رؤية حجاجية من خلال التركيز على مجموعة من المفاهيم الإجرائية مثل الروابط الحجاجية ، العوامل الحجاجية ، المبادئ و العلاقات الحجاجية ، السلم الحجاجي ، المقصدية ، و الاستعارة الحجاجية .

إنّ هذه المفاهيم تنطلق من اعتبار الحجاج ظاهرة لسانية كامنة في النظام الداخلي للغة، فالخطاب الإقناعي قائم في جوهره على توجيه الملفوظ و ربط الأقوال بالنتائج وفق تراتبية تستغل كلّ الإمكانات التعبيرية التي توفرها اللغة .

4–ميشال مايير

يسعى هذا الفيلسوف اللساني البلاغي من خلال مشروعه الفكري لإقامة نظرية بلاغية أساسها فكرة التساؤل والمساءلة لذلك بحث عن منشأ السؤال في الفلسفة الغربية القديمة، فوجد أنها لم تعن بما فيه الكفاية بالتساؤل، ولهذا أعاد الاعتبار لعملية المساءلة ، واشترط في السؤال الحجاجي " أن يكون حاملا لطرافة فكرية يكون بحث المخَاطَب عن دلالاتها مصدر متعة له من جهة، و تأييدا منه لمضمون

[1]–ينظر، المرجع السابق ، ص 31 .

الفرضيات المقدمة من جهة أخرى " [1] ولكي يستطيع المتكلم بناء التساؤلات الحجاجية يجب عليه أن يكون واعيا بمستويات مخاطبيه و توجهاتهم الفكرية ليضمن ردود أفعالهم و إنجازاتهم .

اعتمد مشروع مايير للبلاغة والحجاج على الطابع الإشكالي للمعطيات الحجاجية ومقام الكلام والعلاقات الخطابية التي تؤسس للتواصل، وبهذا صارت تصوراته ذات أبعاد ثلاثة : " تداولية من حيث بحثها في ظروف إنجاز الخطاب وآلياته، وتأويلية من حيث علاقة السؤال بالجواب وما يتطلبه من تأويل لمكونات كل منهما و روافده المغذية له ، و بلاغية من حيث ربطه إياها بالحجاج "[2].

إن مايير في دراسته للبلاغة يؤكد على البعد العقلي اللغوي في الحجاج ، فالمحاجج يسعى جاهدا لحمل المخاطَب على تبني موقفه و تجسيد ذلك على صعيد الواقع ، فكل خطاب حجاجي يتوخي إقناع الجمهور، وبهذا التصور صارت البلاغة تقريبا للمسافة التي تبعد المستمع عن المتكلم و يترتب عن ذلك " أن تنهض لغويا بما يضمن تحديد أشكال الإقناع و التأثير بحسب مقصد المحاجِج ومقتضيات المقام ."[3]

ويعني مايير بمفاوضة المسافة كيفية تعامل المتكلم مع مخاطَبه إزاء المسائل المطروحة، ولا تكون هذه العملية فعّالة إلاّ بصياغة الأسئلة وفق ظروف و ملابسات الخطاب، و"ما يتصوره المخاطب من علاقات اتفاق أو اختلاف تربطه بغيره و بالعالم من حوله "[4].

انطلقت دراسة مايير للحجاج من أهمية النقاش المرتبط بما هو محتمل في التواصل الإنساني فمهمة الحجاج أن يشتغل في خضم القضايا الخلافية، وهنا يظهر الطابع الجدلي للغة الحجاج ، فالنشاط الحجاجي مرتبط ارتباطا وثيقا بما ينجز بالكلام من حوار، فالمحاجج يثير الكثير من التساؤلات الجدلية ، و لما كان الكلام استدعاء للسؤال لزم عنه أن يتولد نقاش بين المتحاورين يولّد بدوره حجاجا .

[1]-محمد سالم محمد الأمين الطبلة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ص 135.

[2]-المرجع نفسه، ص 138.

[3]- نفسه، ص 136.

[4]- محمد علي القارصي ، البلاغة و الحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار ، ضمن الكتاب الجماعي أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، إشراف حمادي صمّود، ص 400.

إن البلاغة لا يمكن أن تكون إلاّ حجاجية لأنها تهتم بالخطاب الاحتمالي، فالكثير من القضايا لا يمكن القطع فيها برأي واحد بل تظّل محلّ اختلاف باختلاف تصورات الناس ومواقفهم ، وفي خضم هذا التعارض يظهر الطابع الإستشكالي للتواصل الإنساني. "إن الناس حينما يتكلمون يسائلون ويستشكلون، أي يحاججون. وحجاجهم هذا يثير المناقشة و يطلق دينامية البحث ، فتفرز بدائل عديدة لمعالجة السؤال / المشكل ، لتتناقض المواقف أو تتقارب ."[1]

إن هذا النسق البلاغي المميز لتفكير مايير جعله يرفض النظرة الجزئية التي سادت عن الصور البلاغية ، فهي ليست لتحسين الكلام فقط ،بل هي من أهم وسائل إستراتيجية الخطاب الإقناعي لذلك فالمجاز مثلا ليس انزياحا عبثيا للدلالة بقدر ما هو آلية لسانية بلاغية تتوخى التأثير على السامع وجذبه ليشاطر وجهة نظر المتكلم .

فللمجاز في إستراتيجية الحجاج وظيفة حجاجية . " فعبارة "ريشارد أسد" التي يعتمدها ماير في اشتغال المجاز في الحجاج، لا تفيد الحقيقة في ظاهرها. ولذلك ،تولد أسئلة عديدة لدى المخاطب حول مقصدية المتكلم ، وأسباب الربط بين ريشارد والأسد ، ليتدخل التأويل "[2] وهنا يفعّل الاستدلال ويقوى الحجاج .

ويربط مايير هذا المستوى البلاغي بنظرية المساءلة التي بنى عليها مشروعه ،فالصورة البلاغية المبثوثة في الخطاب تثير سؤالا يستدعي جوابا " وتتأتى الإجابة بتجاوز ظاهر اللفظ الحامل "[3] فالصورة البلاغية تتأسس من علاقة السؤال بالجواب .

[1]-عبد اللطيف عادل ،بلاغة الإقناع في المناظرة ، ص 107.

[2]-المرجع نفسه، ص 108.

[3]- محمد علي القارصي، البلاغة و الحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار ، ص 396.

ولم يهمل مايير في مشروعه الحجاجي علاقة المتكلم بالمخاطَب،فكل مسار حجاجي قائم في جوهره على إلغاء الاختلاف وتقريب وجهات النظر ، وعلى هذا الأساس يمكن صياغة الحجج الأرسطية (الإيتوس، الباتوس، اللوغوس) في ثلاثة أركان أساسية :[1]

- الأخلاق.
- السؤال.
- الجواب.

ويتطلب هذا الميدان جهدا إقناعيا تسخر فيه جميع الوسائل والآليات التي تؤثر على المسافة الفاصلة بين أطراف الحوار .

[1]- المرجع السابق ، ص 399.

ثالثا : الحجاج في الفكر العربي

لا يمكن الحديث عن بلاغة الحجاج في عصرنا الراهن بتجاهل ما أنتجه الفكر العربي على مرّ العصور من مفاهيم و مصطلحات تثري دعائم الخطاب الإقناعي وآليات اشتغاله .

1-بلاغة الإقناع عند الجاحظ

يعتبر الجاحظ مؤسس البلاغة العربية بلا منازع ، فهو أول من أرسى دعائمها الأساسية ، لذلك ظلّت كتاباته مصدرا بلاغيا مهما لكل البلاغيين الذين جاءوا بعده .

تميزت الفترة التي عاش فيها الجاحظ بالكثير من التحولات الهامة في تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وعلى رأسها ظهور الفرق الكلاميّة واشتداد الصراع بينها، وكان الجاحظ أحد أهم أقطاب هذا الصراع.

وكان من المعتزلة الذين استثمروا الطاقة الإقناعيّة للّغة في مواجهة خصومهم في مختلف المناظرات. لقد "وعى بشكل حاد الدور الجسيم للكلام في مقارعة الرأي بالرأي ، ومواجهة الخطاب بالخطاب . لذلك أثنى على أصحاب هذه الملكة من المحاججين ." [1]

اهتمّ الجاحظ في نظريته البلاغية بوظيفة الفهم والإفهام، واعتبر أنّها أساس نجاعة الكلام ومنفعته، وترتبط هذه النظرة بالبلاغة التي غايتها الإقناع، ولا يتمّ ذلك" إلا من طريق الفهم والتبين"[2]. والنظر إلى البلاغة من هذا المنطلق جعلها تكتسي بعدا تداوليا، فأهمية قول ما تكمن في الإبانة عن المقاصد وإحراز المنفعة .

[1]- عبد اللطيف عادل ، بلاغة الإقناع في المناظرة ، ص 61.

[2]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس(مشروع قراءة) منشورات الجامعة التونسية، 1981، ص 199.

اهتم الجاحظ بنظام الخطاب معتبرا أنه قائم في جوهره على الإستراتيجية الإقناعية التي تروم التأثير في الآخرين، و يبدوا هذا التصور واضحا في تحديده لمفهوم البلاغة ، فهو يورد بعض التعريفات التي فيها إشارة إلى ما يكون في الاحتجاج، ويمكن فهم تفكيره البياني بالأخذ بعين الاعتبار اهتمامه الكبير بالتنظير للخطاب الحجاجي وما يشكل خصوصيته وخصائصه النوعية، ولذلك جعل " الإقناع من بين الوظائف التي من أجلها وضعت البلاغة "[1].

ومن تعريفات البلاغة التي تركز على نجاعة الخطاب ما أورده الجاحظ في تعريف بعض أهل الهند لها ، قال : "جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بموضع الفرصة "[2].

استقرّ الاهتمام بالبلاغة العربية في تياران واسعان : "تيار بلاغة الصور والحلية والمحسنات، وتيار الخطابة . وقد قرن هذا التيار الأخير غالبا بالجاحظ الذي عدّ مؤسسه ومحكم خصائصه "[3] .

إنّ الوظيفة الخطابية هي أهم ما يميز نظرية البلاغة عند الجاحظ ، وقد برزت هذه الوظيفة في المواضع التي نظر فيها إلى الخطابة كنوع من أنواع الكلام ، " وعبّر عنها بثبت اصطلاحي من حقل دلالي واحد تجري وحداته إلى نفس الغاية : الإقناع و الاحتجاج و المنازعة و المناظرة و كل ما يدور في هذا الفلك ."[4]

استطاع الجاحظ أن يؤسس لطرح بلاغي جديد ، يتجاوز الطرح التقليدي الذي يركز على الشعر فقط دون اهتمام بباقي الأجناس الأدبية خاصة تلك التي تنتمي لمجال النثر ، ويعتبر" البيان و التبيين" أهم منجز نقدي انفتح على مختلف الأشكال الإبداعية ، و اعتبر مركز ثقل التأليف الأدبي و البياني عند

[1]–قالط بن حجي العنزي ، المفاهيم التداولية في تعريف الجاحظ للصناعة الخطابية في البيان و التبيين ، ضمن الكتاب الجماعي : التداولية ظلال المفهوم وآفاقه، إشراف وتحرير : حسن خميس الملخ ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، 2015، ط1، ص 153.

[2]–الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 63.

[3]–عبد اللطيف عادل ، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 61.

[4]– حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب: أسسه و تطوره إلى القرن السادس(مشروع قراءة) ، ص 187.

الجاحظ ، فقد تميز بالاعتناء ببلاغة الإقناع ، فالملاحظ فيه أنه " لم يطنب الجاحظ كما أطنب في ذكر الخطابة في هذا المقام" [1].

إنّ تحليل استراتيجية مقاربة الجاحظ للخطاب خاصة في كتاب البيان و التبيين يكشف بكل وضوح " محاولة لوضع نظرية لبلاغة الإقناع مركزها الخطاب اللغوي الشفوي" [2] فلقد انتبه مبكرا إلى نجاعة الاحتجاج وما له من مفعول قوي في التأثير على المتلقي وكسب انخراطه ، فالقول البليغ يضطلع بإيقاع تصديق المتلقي و تسليمه .

يرجع اهتمام الجاحظ بالبلاغة الخطابية إلى الدور الكبير الذي قامت به في نشر الدعوة والانتصار للمذهب، وقد لخّص الدكتور محمد العمري الأغراض الإقناعية التي يحققها القول الخطابي حسب تصور الجاحظ في استمالة القلوب وميل الأعناق والتصديق و فهم العقول وإسراع النفوس والاستمالة و الاضطرار و التحريك[3].

تعتمد بلاغة القول الخطابي على المتكلم وما يتوفر عليه من مؤهلات لغوية ومهارات أدائية تؤهله للتأثير في الجمهور، ويقسم حسن المودن هذه الكفايات إلى نوعين : كفايات الإنتاج وكفايات الإنجاز، فالخطاب ليس رسالة لغوية فقط " بل هو كلّ هذه العناصر اللغوية وغير اللغوية التي تتظافر وتتكامل من أجل تشكيل خطاب خاصيته الجوهرية أنه ذو بنية سيميائية متعددة بدونها لا يمكن للغة اللفظية أن تتحول إلى فعل لغوي اجتماعي "[4].

يحتل المتكلم دورا هاما في مشروع الجاحظ الحجاجي ،"فهو طرف أساسي في عملية الكلام وعنصر فعّال في تحديد خصائص النصّ إذ على عاتقه تقع كلفة إخراجه على سمت يستجيب لمقتضيات

[1]- بدوي طبانة ، البيان العربي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط2، 1968 ، ص 47.

[2]- محمد العمري ، المقام الخطابي و المقام الشعري في الدرس البلاغي ، مجلة دراسات سميائية أدبية لسانية ، العدد رقم05 ، ديسمبر 1991 ، ص 11.

[3]- ينظر ، محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، 1999، ص 198.

[4]-حسن المودن ، بلاغة الخطاب الإقناعي ، ص 41.

الوظيفة والإبانة والمقام ." [1] فنجاعة الخطاب الإقناعي مرتبطة بالكفايات اللغوية التي يتوفر عليها المحاجج ، فعلى هذه الكفايات يستند الخطيب في نظم كلامه واختيار ما يؤثر على الجمهور .

و إذا اعتبر أرسطو أنّ للخطيب دور في الإقناع (حجة الإيتوس) ، فإن الجاحظ لم يهمل ذلك أيضا ، لذلك وضع مجموعة من الشروط والمواصفات التي يؤدي وجودها عند المتكلم إلى تسهيل عملية الإقناع فإذا " كان مشغوفا بأهل الجماعة ،شنفا لأهل الاختلاف والفرقة ، جمعت له الحظوظ من أقطارها، وسيقت إليه القلوب بأزمتها، وجمعت النفوس المختلفة الأهواء على محبته، وجبلت على تصويب إرادته " [2] ،كما اعتبر الجاحظ أنّ ثقة الخطيب في نفسه تؤثر في السامع و تجعله يسلم بالنتائج التي يودّ الخطاب إثباتها ، واستند على ذلك بتعريف الهنود للبلاغة ، يقول " أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة . وذلك أن يكون الخطيب رابط الجاش ساكن الجوارح قليل اللفظ . متخيرا للفظ " [3] .

كما اهتمّ صاحب البيان و التبيين بدور الصنعة الصوتية المصاحبة للخطاب الشفوي في التأثير على المستمعين ،فسهولة المخرج و طلاقة اللسان يساهمان في نجاعة الخطاب الحجاجي لذلك اشترط على الخطيب أن يكون حريصا على سلامة نطقه من العيوب ،و أورد ما قام به واصل بن عطاء المعتزلي مثالا على ذلك، فقد رام " إسقاط الراء من كلامه و إخراجها من حروف منطقه ،فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناظله ويساجله، ويتأتى لستره والراحة من هجنته،حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل"[4]، ليقينه أنّ ذلك من أهم ما تستمال به قلوب السامعين .

[1]- حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب : أسسه و تطوره إلى القرن السادس(مشروع قراءة) ، ص 248.

[2]-الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج2، ص ص 240 -241

[3]-المصدر نفسه، ج1 ،ص 65.

[4]- نفسه،ج1 ،ص 16.

ولم يهمل الجاحظ الحركات المصاحبة للخطاب، فللبيان الحركي "وظائف هامة في الخطاب الإقناعي ذي الطبيعة الشفوية ، فالحركات والإشارات ضرورية. وقد يكون لها دور فعال في الإبلاغ والإقناع "[1].

ومن الملفت للانتباه اهتمام الجاحظ بدور المخاطَب في توجيه الخطاب الحجاجي، فالإقناع هو محصلة تضافر النص وما يحتويه من علاقات داخلية مع العالم الخارجي .

إنّ نجاح الخطاب أو فشله مرهون بمعرفة هوية المستمع، فالمتكلم الناجح هو من " قد كوّن فكرة مفترضة و صورة متخيلة عن مخاطَبه قبل أن يواجهه بخطابه واقعيا أو فعليا "[2] ، ويترتب على ذلك مراعاة المستوى السوسيو لغوي للفئة المستهدفة بالخطاب ،وتكييف القول بحسب هويتهم الطبقية والأخذ بعين الاعتبار أحوالهم النفسية ،لأن هذه المعطيات الخارجية هي من تحدد مسار الحجاج .

تفطّن الجاحظ مبكرا إلى أن مراعاة حال الجمهور من أهم المبادئ التي يتأسس عليها الخطاب الحجاجي، فمدار الأمر على إنتاج الكلام وفق مستويات المستمعين وأقدارهم الثقافية والاجتماعية . إنّ الخطاب الإقناعي ينطلق من " إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم " [3] .

فأساس الاستراتيجية الحجاجية هو مراعاة حال المخاطَب ومقامه، ورغم أنّ ذلك معطى خارجي إلا أنه من أهم العناصر المساهمة في بناء الخطاب الإقناعي الذي يروم التأثير في المتلقي ودفعه للعمل أو تغيير سلوكه ومعتقداته . يقول الجاحظ " إنما مدار الشرف على الصواب و إحراز المنفعة وما يجب لكل مقام من المقال "[4].

[1]-حسن المودن ، بلاغة الخطاب الإقناعي ، ص 126.
[2]-المرجع نفسه ، ص 285.
[3]-الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج1 ،ص 66.
[4]-المصدر نفسه ، ج1 ،ص 91.

وكان لتشبث الجاحظ بوظائفية الكلام دورا هاما في بروز فكرة ضرورة ربط المقال بالمقام وملاءمته لمقتضى الحال، فنجاعة الخطاب تتحقق بالتأثير في المخاطَب، وذلك لا يتم إلّا باستحضار المتكلم لطبيعة المستمعين وظروفهم وخصائصهم، والإحاطة بمجموع الشروط والظروف التي تصاحب إنتاج القول " فالقول المقنع لا يكون غفلا بل حاملا لانتظارات المتلقين " [1] .

انطبعت نظرية البيان عند الجاحظ بطابع نفعي واضح ، حيث لم تهتم بكفيات الإنتاج فقط بل اهتمت أيضا بكفايات إنجاز الخطاب، وعليه يمكن أن يعدّ هذا المشروع البلاغي دون مبالغة " أكمل محاولة في التراث اللغوي العربي لتأسيس ما يسمى: نفعية الخطاب"[2] فأنجع الخطاب ما أثر في المتلقي، وهذا ما تهتم به البحوث التداولية المرتبطة بالحجاج .

وباستيعاب هذه الأبعاد التداولية المحيطة بالخطاب ، يمكن فهم نظرية الجاحظ البيانية التي تستثمر كل الأنساق السيميائية والإمكانات اللغوية والطاقات التعبيرية لإحراز الفائدة والمنفعة، فالبلاغة لا تخضع لمعايير شكلية أو نصيّة صارمة بل تتأسس بتفاعل البنية الداخلية للخطاب مع العناصر غير اللغوية المصاحبة للحدث اللغوي. وقد ترتب عن هذا الاعتبار "إقراره بأن البلاغة بلاغات والفصاحة فصاحات معنى ذلك، من الوجهة النظرية، أن الحكم البلاغي نسبي لا ينفصل عن مدى ترابط النصّ والسياق الذي يتنزل فيه " [3].

وأهم الدعائم التي ساعدت صاحب البيان والتبيين في بلورة بلاغة الإقناع في مشروعه المتميز هو اهتمامه بالجنس الخطابي و سعيه الجاد للوقوف على بنيته وآلياته الحجاجية .

[1]- عبد اللطيف عادل ، بلاغة الإقناع في المناظرة ، ص 66.

[2]- حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب : أسسه و تطوره إلى القرن السادس(مشروع قراءة) ، ص 301.

[3]- المرجع نفسه، ص 302.

2- الحجاج والخطاب عند محمد العمري

انفتح الباحثون والدارسون العرب في العصر الحديث على المناهج الغربية المختلفة، وسعوا جاهدين لاستثمارها في تحليل مختلف الخطابات، وتعتبر المقاربة التداولية من أهم المقاربات التي وظّفها النقد العربي في محاولته التركيز على مقصدية الخطاب ،كمّا استفادت الساحة النقدية من البلاغة الجديدة التي بعثت بلاغة الإقناع من جديد .

ويعتبر الدكتور محمد العمري أبرز بلاغي عربي قام باستثمار مقولات البلاغة الجديدة من خلال دراسته المبكرة حول مظاهر الإقناع في الخطابة العربية القديمة ، ومن خلال ترجماته المتعددة لبعض رواد التيار الحجاجي .

اهتمّ العمري بالبلاغة العربية القديمة مستعينا في ذلك بجهاز مفاهيمي يجمع إلى جانب المصطلحات القديمة وعيا بالبلاغة المعاصرة، وإحساسا مبكرا ببلاغة الحجاج ، ويعرب عن ذلك الوعي مؤلفاته المتنوعة من قبيل : في بلاغة الخطاب الإقناعي ، البلاغة العربية – أصولها وامتداداتها ، والبلاغة الجديدة بين التخييل والتداول ، و كتب أخرى اهتمت بالبعد التداولي للخطاب .

ويلخص العمري الجهود البلاغية القديمة في خمسة مستويات هي على الترتيب: "البديع و نقد الشعر، البيان وبلاغة الإقناع، البلاغة العامة أو الصناعتان ، نظرية المعنى أو بلاغة الإعجاز، نظرية الأدب أو الوظيفة التوازنية "[1] .

اعتمد محمد العمري في تنظيره على التراث محاولا بعث مختلف مفاهيمه ومصطلحاته التي ما تزال مثمرة في تحليل الخطاب، وانفتح أيضا في هذا التوجه المتميز على منجزات الفكر الغربي على امتداد تاريخه لكي تكون قراءته الواعية أوسع و أشمل وأكثر نجاعة، فكانت الترجمة أحد انشغالاته حيث ترجم برفقة زميله محمد الولي كتاب "بنية اللغة الشعرية " لجون كوهن، كما ترجم كتاب " نظرية الأدب في

[1]- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة – بحث في بلاغة النقد المعاصر، ص 258.

القرن العشرين " وكتاب "البلاغة و الأسلوبية " لهنريش بليث ،و اهتم بترجمة النصوص الأجنبية التي جعلت من الحجاج موضوعا لها كمقال أوليفيي روبول المعنوّن بـ : "هل يوجد حجاج غير بلاغي ؟ " .

تفطّن محمد العمري في أبحاثه و دراساته إلى أهمية ضبط المصطلحات في النّقد والبلاغة ،فأطلق على لفظ الريطوريا "Rhétorique "مصطلح الخَطابية أو علم الخطابة وهي "ذلك العلم الذي يشتغل على الخطابة ويستخرج مكوناتها الحجاجية وتقنياتها بهدف الإقناع "[1].

وأطلق على لفظ " Poétique" الشعرية التي تحصر مجال اهتمامها في الشعر، و بمراعاة هذه الاعتبارات جعل العمري من البلاغة مفهوما يستوعب الصور الشعرية المميزة للشعر والأبعاد الحجاجية المميزة للجنس الخطابي، وعليه صارت البلاغة علما كليا " يتسع للخطاب التداولي الحجاجي وامتداداته (الخطابية، وهي النصف الأول لأرض البلاغة العامة) وللخطاب الشعري التخييلي وامتداداته (الشعرية،وهي النصف الثاني لأرض البلاغة العامة) "[2] .

فالبلاغة العامة في مقاربتها للخطاب تؤلف بين التخييل و التداول وتستحضر خاصية الإقناع، وهذا هو التصور الذي ظلّ العمري مخلصا له في مشروعه البلاغي، وترتبط هذه الاعتبارات بالخطاب الاحتمالي الذي يحمل قصد التأثير في المتلقي، فحيث وجد خطاب احتمالي مؤثر وجدت البلاغة، فنجاعة الخطاب مرهونة بإحداث التأثير في المتلقين.

إنّ حقل البلاغة العامة عند العمري هو حقل الممكن والمحتمل ، وهو تصور يتقاطع مع بيرلمان الذي اعتبر البلاغة الجديدة تهتم بمجال الشبيه بالحقيقة أين يتسع الخطاب لتعدد الآراء وبهذا التحديد

[1]- إدريس جبري، سؤال البلاغة في المشروع العلمي لمحمد العمري نحو بلاغة عامة ، ضمن الكتاب الجماعي: البلاغة و الخطاب، إعداد وتنسيق محمد مشبال، منشورات دار الأمان الرباط و،منشورات الاختلاف الجزائر ومنشورات ضفاف، ط1، 2014 ، ص260.

[2]- المرجع نفسه ، ص ص 260-261.

فهي أوسع منطقة في حياة الإنسان، تتدافع فيها وجهات النظر وتتحاور دون أن تدعي امتلاك الحقيقة الثابتة المطلقة .

يقوم المشروع البلاغي الذي وضع محمد العمري لبناته الأساسية على بلاغة الإقناع ، فلا يكاد يخلو كتاب من كتبه من الخوض في هذا الإشكال المركزي، وسنتتبع ذلك من خلال أهم مؤلفاته :

أ–في بلاغة الخطاب الإقناعي :

يركّز الباحث في هذا الكتاب على البعد الإقناعي للبلاغة العربية " هذا البعد الذي كان حاضرا عند الجاحظ على وجه الخصوص ثم نُسي مع هيمنة صياغة السكاكي للبلاغة العربية " [1].

يعتبر هذا المؤلف الصادر سنة 1986 "أول كتاب في المكتبة العربية يخصّص لموضوع الإقناع في البلاغة العربية ،و هو سابق على المصنف الجماعي "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" الذي أشرف على صدوره حمادي صمّود سنة 1999 "[2].

حذّر العمري في هذا المؤلف من مقاربة النص الإقناعي الخطابي بالأدوات الإجرائية نفسها التي يعامل بها النصّ الشعري أو أي نصّ إنشائي آخر، ودعا إلى ضرورة مراعاة طبيعة الموضوع في اختيار المنهج المناسب للدراسة . وذلك ما تنبّه له أرسطو منذ القدم " ففصل الخطابة عن الشعر، وألّف في كل منهما كتابا مستقلا ،وتبعه في ذلك الفلاسفة المسلمين فحرصوا على التفريق بين طبيعة الشعر الذي يهدف إلى التخييل و طبيعة الخطابة الهادفة إلى التصديق "[3].

[1]– ابتسام بن خراف ، تلقي النص البلاغي عند الدكتور محمد العمري ، مجلة قراءات ، جامعة بسكرة ، العدد الخامس، 2013 ، ص52.

[2]– محسن الزكي، الحجاج و التداول في البلاغة العربية القديمة عند محمد العمري ، ضمن الكتاب الجماعي : البلاغة و الخطاب ، إعداد وتنسيق محمد، مشبال منشورات دار الأمان الرباط و،منشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف، ط1 ، 2014 ، ص287.

[3]– محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 07.

انحصر المتن الخطابي الذي اختاره العمري للدراسة في الخطابة في صدر الإسلام والعصر الأموي، وانطلق في دراسته من اجتهادات البلاغيين العرب المتأثرين بالنظرية الأرسطية ، دون إهمال للمنجز البلاغي الغربي في العصر الحديث و المعاصر .

ومن أجل الكشف عن مظاهر الحجاج في هذا المتن الخطابي الذي اختاره ، قسّم العمري الخطابة العربية بحسب موضوعها إلى خطابة دينية وسياسية واجتماعية، ثم قسّم الخطابة الدينية إلى ثلاثة أصناف حسب أحوال المتلقّي " فهو إما أن يكون خالي الذهن يتقبل المعرفة الملقاة عليه، وهذه الحالة اقتضت خطابة تعليمية، وإما أن يكون متناسيا لما تعلّم غافلا عما ينتظره فيتطلب حاله الحثّ على العمل والتخويف من العقاب وتلك هي الخطابة الوعظية ، وإما أن يكون عالما مخالفا وجاحدا لوجهة نظر الخطيب وفي هذه الحالة لا بدّ من المحاججة والبرهنة وتلك الخطابة الحجاجية "[1].

وبعد هذا التقسيم الثلاثي المتأثر بعلم المعاني يقرّ العمري بأنه تقسيم يتسم بالمرونة ، فقد تتداخل هذه الأنواع الخطابية خاصة التعليمية والوعظية. هذا التقسيم الثلاثي يحلّ محلّه تقسيم ثنائي في الخطابة السياسية ،فجعلها العمري حسب العلاقة بين طرفي الخطاب حوارا بين الأنداد أو حوارا بين الرّاعي والرّعية .

وفي الأخير صنّف مقامات الخطابة الاجتماعيّة إلى مستويين: مستوى أول يختصّ بالتنظيم الاجتماعي، ومستوى ثاني يتعلق بالطبيعة الوجدانية القائمة على المشاركة والإشراك في المسرّات والأحزان .[2]

والملفت للإنتباه اعتماد محمد العمري على المقاربة الأرسطية لهذا الجنس الخطابي، ولذلك انطلق في دراسته من "تحديد المقامات لينتقل إلى استنباط الحجج ودراسة ترتيب ورودها وطريقة صياغتها"[3]

[1]-المرجع السابق، ص41.

[2]-ينظر، المرجع نفسه ، ص62.

[3]-محسن الزكي ، الحجاج و التداول في البلاغة العربية عند محمد العمري ، ص 297.

فحَصر الحجاج في ثلاثة صور تتمثل في القياس، والمثل القائم على علاقة المشابهة بين حالتين ، والشاهد الذي يمتاز بقوته الحجاجية "وتشترك هذه الوسائل في دعوتها العقل إلى الانسجام مع مبادئه (السببية ، وعدم التناقض...) أو مع العالم الخارجي المحيط به بما فيه من قيم و مواضعات اجتماعيّة ورصيد ثقافي ونصوص مقّدسة و تشريعات و قوانين و مصلحة عامة "[1] .

ورغم هذا التأثر بالبلاغة اليونانية إلاّ أنّ هذا المؤلَف أظهر وعيا كبيرا لدى محمد العمري بخصوصية الخطابة العربية القديمة ، لذلك عمد هذا البلاغي المعاصر إلى تعديل النظرية الأرسطية وتطويعها لتتناسب مع المتن الخطابي العربي المتميز بطابعه الأدبي .

ب–البلاغة العربية أصولها و امتداداتها

يتميز هذا الكتاب بضخامة الحجم و اتساع الفترة الزمنية التي يغطيها بالبحث والتمحيص ، فهو كتاب نسقي، يرصد خطوط الطول و العرض في خريطة زمنية تمتد عبر قرون . حاول فيه المؤلف نقل " الرصيد البلاغي العربي من وضعية البنية التاريخية الجامدة المرتبطة بعصرها إلى حلقة دينامية الأسئلة الإنسانية التي يتصل أولها بآخرها تجاوزا وتعارضا وتقابلا " [2]، مستفيدا في ذلك من المعالجة البنيوية اللسانية ومقترحات جمالية التلقي ، فقراءته هي قراءة تركيبية تعتمد النظرة الشمولية .

إنّ هذا المؤلَف سعي جادّ لكتابة تاريخ شامل للبلاغة العربية، ومراجعة مفهوم البلاغة السائد، وإعادة الاعتبار لهذه الإمبراطورية مترامية الأطراف، وإضفاء الشرعية التاريخية لميلاد بلاغة عامة تتسع للإبداع الإنساني الثري، وتستوعب مكوني التخييل والتداول في الخطاب، ولتحقيق ذلك حاول محمد العمري محاورة المشاريع البلاغية القديمة للوقوف على قيمتها العلمية واستثمار أدواتها الإجرائية الفعالة.

[1]– محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 71.

[2]– محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص 12.

يرى العمري أن التراث البلاغي ما زال يثير الدهشة و ينفتح على القراءات الجديدة ، لذلك يسعى النقاد أو البلاغيون لفهم أسراره ، وأهم ما صادفهم هو أن البلاغة العربية لم تكن بلاغة جملة فقط، بل " كانت إنجازاتها المتقدمة العميقة قد انتقلت إلى مستوى النص ،تنبني المعاني بعضها على بعض و يفهم النصّ بعضه من بعض " [1] .

واهتمّ محمد العمري بالبلاغة عند الجاحظ ،واعتبر أنها ذات طابع نفعي تداولي ،فهي تولي اهتماما كبيرا بالمقام و أقدار المستمعين ، فالبيان عند الجاحظ يتنازعه مفهومان أو " وظيفتان:

1-**البيان معرفة** : الوظيفة الفهمية .

2-**البيان إقناع** :أو الوظيفة الإقناعية .

الوظيفة الثانية هي الوظيفة الصريحة و الوظيفة الأولى هي الوظيفة الكامنة "[2]

إنّ اهتمام الجاحظ ببلاغة الإقناع جعله ينشغل "بتجميع الأمثال والحكم والخطب الجيدة المتضمنة للأفكار والملاحظات العميقة وأشعار المذاكرة أي التي تحتوي معاني وحججا من أجل تكوين الخطيب المقتدر في معركة الحجاج "[3] .

والملاحظ أنّ القرن الخامس الهجري هو مرحلة حاسمة في تطور علم البلاغة ،حيث "انتقلت من لحظة الملاحظة والاستكشاف والمراكمة إلى لحظة البحث عن السرّ والجوهر وبناء النماذج والأنساق، مع جيل ثان من البلاغيين أشهرهم الجرجاني و ابن سنان وغيرهما "[4].

[1]- محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 32.

[2]- المرجع نفسه، ص 194.

[3]-نفسه، ص 205.

[4]- إدريس جبري ، سؤال البلاغة في المشروع العلمي لمحمد العمري نحو بلاغة عامة ، ص 269.

حاول العمري فتح مشروع حازم القرطاجني من جديد مثمنا دعوته إلى بناء البلاغة على أساس تقاطع الخطابي والشعري، باستيعاب الأبعاد التخييلية والتداولية المميزة للخطاب اللساني ورغم الانفتاح الواضح على هذين المكونين البلاغيين إلّا أنّ حازم لم يُزل الفوارق الفاصلة بين الخطابة والشعر فلكل منهما أساسه المميز له، فالشعر مبني على التخييل وقد يستعمل الإقناع الخطابي، والخطابة تعتمد على العناصر الإقناعية وتدخِل العناصر التخييلية في خدمتها، وبهذا التصوّر ينبغي أن " تكون الأقاويل المقنعة الواقعة في الشعر تابعة لأقاويل مخيلة ، مؤكدة لمعانيها ، مناسبة لها في ما قُصد بها من الأغراض، وأن تكون المخيلة هي العمدة، و كذلك الخطابة ينبغي أن تكون الأقاويل المخيلة الواقعة فيها تابعة لأقاويل مقنعة مناسبة لها مؤكدة لمعانيها ، وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة "[1].

ج–البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول :

يتألف هذا الكتاب من تقديم و ثلاثة فصول و ملحق يضم مقالا مترجما للبلاغي الفرنسي "أوليفيي روبول " تحت عنوان : هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي ؟

استهلّ محمد العمري كلامه في هذا المؤلف بنقل مقولة بلاغية هامة لحازم القرطاجني تكشف وعيه المبكر باتساعه إمبراطورية البلاغة ،فهي بحر لم يصل أحد إلى سبر جميع أسراره.

إنّ الدوافع التي حرّكت الباحث لإنجاز هذا البحث هي محاولة الإحاطة بمفهوم البلاغة و السعي الجادّ لإضفاء الشرعية على وجود بلاغة عامة " تؤطر مختلف البلاغات الخاصة التي تفرزها الأجناس الأدبية "[2].

[1]–حازم القرطاجني ،منهاج البلغاء، ص 326.

[2]– محمد اليملاحي، أسئلة الفكر البلاغي في المغرب مقاربة لمشروع محمد العمري ، ضمن الكتاب الجماعي : البلاغة و الخطاب ، إعداد وتنسيق محمد مشبال منشورات دار الأمان الرباط و،منشورات الاختلاف الجزائر و منشورات ضفاف، ط1 ، 2014 ص245.

انطلق العمري في هذا العمل القيّم من اعتبار البلاغة علما قادرا على استيعاب كل ما يتعلق بالإقناع وصور الأسلوب، فمدار الأمر على تحليل الخطاب الإقناعي بنوعيه الحجاجي والتخييلي، ولا يطرح هذا التصور المنهجي إشكالا في الفكر العربي " وذلك نتيجة الدمج الذي مارسه في المرحلة الثانية من تاريخها ،كلّ من عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي ثمّ السكاكي و حازم القرطاجني "[1] .

أمّا في الثقافة الغربية فولادة البلاغة العامة كانت عسيرة ،فقد شطر أرسطو البلاغة إلى شطرين شطر يختص بالخطاب الإقناعي، وشطر آخر يختص بالخطاب الشّعري، وسار بول ريكور في العصر الحديث على المسار نفسه ، ففصل بين شقّي البلاغة : الشعري و الخطابي ، ورغم تلميحه لوجود منطقة تقاطع مشتركة بين الشقّين إلّا أنّ هذا التصور الهام لم يعرف نضجا فكريا إلّا مع أوليفي روبول Olivier Reboul ، ويعتبر مقاله المعنون بـ: الصورة والحجة La figure et l'argument من أهم الأعمال التي أظهرت اهتمامه بتقاطع الخطابي والشعري ، لذلك خصّص له العمري ملحقا في نهاية هذا الكتاب .

وبعد تأسيس العمري لهذه الخلفية المنهجية، اعتبر البلاغة علما قائما على تقاطع التخييل والتداول، فهما يلتقيان في "أنهما خطابان قائمان على الاحتمال، الاحتمال توهيما أو ترجيحا، التوهيم في التخييل والترجيح في التداول الحجاجي"[2]، وهكذا صارت البلاغة علم الخطاب الاحتمالي الذي يروم التأثير في المتلقي .

ولمزيد من الحفر في منطقة التقاطع و تجاوز النظرة التجزيئية لمكونات الخطاب ، تتبّع العمري بعض البلاغات الخاصة كبلاغة السخرية التي كشف عن مركز بلاغتها المتمثل في التظافر بين البعد الأدبي و البعد الحجاجي ،ثمّ عرّج إلى بلاغة السيرة الذاتية ليخرج بحقيقة قيامها على المزاوجة بين

[1]- محمد العمري ، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول ، ص 11.

[2]- المرجع نفسه، ص 15.

التصديق التاريخي والتخييل الروائي، وأنهى هذه التجربة الاختيارية بتناول المجاز، وتوصّل إلى أنه آلية بلاغية تتأرجح بين البعد المعرفي الإقناعي والبعد التخييلي الإبداعي .

3-الحجاج عند طه عبد الرحمن

ربط هذا الباحث الحجاج بالحوارية التي جعلها في مراتب ثلاث : الحوار ، المحاورة و التحاور وتشترك كلّها في كونها فعاليات خطابية يختص كلّ منها بمنهج استدلالي معين ، فالحوار يعتمد على آلية العرض التي ينفرد فيها العارض " ببناء معرفة نظرية ، سالكا في هذا البناء طرقا مخصوصة يعتقد أنها ملزمة للمعروض عليه "[1].

أما المحاورة فهي قائمة على الاعتراض ، وتقوم هذه العملية على تعاون متلقي الخطاب مع العارض في " إنشاء معرفة نظرية مشتركة ، ملتزما في ذلك أساليب معينة يعتقد بأنها كفيلة بتقويم العرض وتحقيق الإقناع " [2] ويستعين المتكلم في هذا المسار الخطابي بالحجاج ، وتعتبر المناظرة من الخطابات التي تعتمد على هذه الآلية .

أما التحاور فهو يعتمد على آلية التعارض وفيها " يتقلب المتحاور بين العرض والاعتراض ... المتحاور ينشق إلى ذات عارضة تثبت منطوق القول، وإلى أخرى غيرها معترضة تصل المنطوق بالمفهوم المخالف "[3]، ويصل التفاعل بين المتكلم والمخاطَب في هذه الفعالية الخطابية المتميزة إلى أعلى المراتب.

[1]- طه عبد الرحمن ، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، ص 38 .
[2]- المرجع نفسه، ص 43 .
[3]- نفسه، ص 49 .

ويلخص الدكتور طه عبد الرحمن مراتب الحوارية السابقة في الجدول التالي : [1]

مكونات البنية الحوارية / مراتب الحوارية	المنهج الاستدلالي	الآلية الخطابية	البنية المعرفية	النموذج النظري	الشاهد النصي
الحوار	البرهان	العرض	النظر	نموذج البلاغ نموذج الصدق	الحوار الحقيقي (العلمي) الحوار الشبيهي (الفلسفي)
المحاورة	الحجاج	الاعتراض	المناظرة	نموذج الإبلاغ نموذج القصد	المحاورة القريبة (المناظرة) المحاورة البعيدة (التناص)
التحاور	التحاج	التعارض	التناظر	نموذج التبليغ نموذج التفاعل	التناظر الرأسي التناظر الأفقي

اهتمّ طه عبد الرحمن في أبحاثه الحجاجية بالعلاقة الاستدلالية التي ينبني عليها الخطاب ،فالمتكلم يعرض دعواه مستثمرا الملابسات السياقية في اختيار الحجج والأدلة المناسبة ، وهو في كل ذلك يراعي ما يمكن أن يكون محلّ اعتراض من طرف المستمع ،وعليه " لا خطاب بغير حجاج ،ولا مخاطِب من غير أن تكون له وظيفة المعترض "[2] .

يعتبر الحجاج صفة لكلّ خطاب يستعمل اللغة الطبيعية، ويمتاز بكونه فعالية تداولية تخضع لمقتضيات الحال ومقام الخطاب، كما يمتاز باستعانته بمختلف الصور استدلالية التي تتوخى التأثير في المخاطب وجعله "يستفيد منه دلالة سلوكية معينة ينبغي أن يتقيد بها عاجلا أو آجلا "[3] . فالبنية الاستدلالية تخضع لقصد المتكلم ،و تحمل معها دائما قيما عملية توجه سلوك المتلقي .

[1]- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار، ص 57 .

[2]- طه عبد الرحمن، اللسان و الميزان، ص 226.

[3]- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار، ص 111 .

لم يهمل طه عبد الرحمن في مشروعه المتميز الاستعارة ،و اعتبر " أنّ أول من استخدم آليات الحجاج لوصف الاستعارة هو إمام البلاغيين العرب عبد القاهر الجرجاني " [1] فقد تفطّن مبكرا لحجاجية الاستعارة، وارتكزت معالم طريق مشروعه البلاغي على إدراكه المبكر للالتباس الاستعاري، واستعانته في تحليله بآلية الإدّعاء واستفادته من مفهوم التعارض من غير أن يطرحه طرحا صريحا، متأثرا في ذلك بمصطلحات الجهاز الحجاجي للمناظرة "فقد عمد الجرجاني إلى اقتباس عناصر مختلفة منه ، في تكوين تصوره للاستعارة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : الادّعاء والدّعوى والإثبات و التقرير والسؤال والاعتراض والمعارضة و الدليل والشاهد و الاستدلال و القياس "[2] .

بهذا يتضح أنّ القول الاستعاري هو من أقدر الأساليب التعبيرية تأثيرا في المتلقي ،فهو بنية تدليلية على دعوى تنطلق من مراعاة مقتضيات المقام الخطابي ،و لذلك يستثمر المتكلم الطاقة الحجاجية للأسلوب الاستعاري في استمالة المستمعين و ضمان نجاعة الخطاب الإقناعي .

ولا يمكن اعتبار الاستعارة قولا مجردا ،بل هي ذات توجه عملي مقيّد بمقام الكلام ،وهذا التقيد الاستعاري بالمقام " هو سبب كاف لأن يجعل الاستعارة تدخل في سياق التواصل الخطابي باعتباره نسقا من القيم و المعايير العمليّة " [3].

إنّ الاستعارة من أهم الآليات البلاغية التي تميز الخطاب الإقناعي، و يرجع دورها الهام في المسار الحجاجي إلى كونها تحمل بنية استدلالية تُفهم من خلال السياق ،وهي تسعى إلى جانب غيرها من التقنيات لتحريك همة المستمع و دفعه لتغيير أو تعديل سلوكه و معتقداته .

[1]- محمد حمودي ،الحجاج و استراتيجية الإقناع عند طه عبد الرحمن مقاربة أبستمولوجية، ص 116.
[2]-طه عبد الرحمن ، التكوثر العقلي أو اللسان والميزان ، ص 309.
[3]- المرجع نفسه ، ص 312.

إنّ هذه النظرة لا تهمل قصدية الخطاب، فمعيار الفائدة في الكلام هي مقاصده ، فالمتكلم ليس مجرد ذات ناقلة للخبر ،و إنما هو ذات مبلّغة " أي ذات لا تقصد ما تظهر من الكلام فقط، بل تجاوزه إلى قصد ما تُبطن فيه ، معتمدة على ما أوردت في متنه من قرائن وما ورد منها خارجه " [1].

ونظرا لميولات طه عبد الرحمن الفلسفية ، اهتمّ في التأسيس لمشروعه الحجاجي بالمنهج الجدلي الذي وجده ماثلا بجميع مقوماته في أسلوب المناظرة التي أسس لها الفكر العربي القديم تنظيرا و ممارسة، فوضعوا لها شروطا العامة تتلخص في :[2]

أ- لا بدّ لها من جانبين.

ب- لا بدّ لها من دعوى .

ت- لا بدّ لها من مآل بعجز أحد الجانبين .

ث- لكل من الجانبين آداب ووظائف .

تستعمل المناظرة لغة التخاطب الحجاجي، والفعل المناظري قائم على " وجود طرفين اثنين يستأثران بقواعد استدلالية هي أصل في العملية الحجاجية" [3] وتتجلى الفعالية الحجاجية في هذا النوع من الخطاب الاستدلالي في سعي المناظر لإقناع المعترض .

4- اللغة و الحجاج عند أبي بكر العزاوي

تأثّر أبو بكر العزاوي في أبحاثه المرتبطة ببلاغة الإقناع بنظرية الحجاج في اللغة التي وضع أسسها اللغوي الفرنسي ديكرو Ducrot، وتنطلق هذه النظرية من أن الحجاج فعل لغوي، فاللغة ذات وظيفة حجاجية مؤشر لها في بنية الملفوظ، " وإذا كانت النظرية الحجاجية تعتبر المكونات والظواهر الحجاجية

[1]-طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي ، ص 216.

[2]- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار ، ص 74.

[3]-مصطفى العطار، لغة التخاطب الحجاجي ، ص 61.

أساسية وجوهرية، فإن هذا يستلزم أنها تنظر إلى القيمة الإخبارية للقول (أي ما يقوله عن العالم) باعتبارها مكونا ثانويا ، بل تابعا للمكون الحجاجي الدلالي " [1].

واعتبر العزاوي في مؤلَّفه " اللغة و الحجاج " الصادر في طبعته الأولى سنة 2006 أنّ الساحة العربية تخلو من دراسة الجوانب الحجاجية للغة العربية " في الوقت الذي حظيت فيه دراسة الروابط التداولية و الحجاجية باهتمام كبير من قبل الأوساط العلمية الأوربية و الأمريكية ، فألفت فيها عشرات الكتب و الدراسات " [2].

هذا ما دفعه إلى الإهتمام بالروابط الحجاجية في لغتنا العربية، وهي روابط كثيرة شأنها شأن اللغات الطبيعية الأخرى ، لكنه اقتصر على دراسة بعض منها ، ونقصد بالذكر " بل " و" لكن " و"حتى "، ووقع اختياره عليها لكثرة استعمالها في كلامنا و لعلاقتها القوية مع المعنى الضمني و المضمر .

اعتبر أبو بكر العزاوي أن الرابط "لكن" يستخدم للحجاج من خلال علاقة الإبطال فما يتلو هذا الرابط يتضمن حجة تخدم النتيجة المضادة لما قبلها ، و يضرب مثالا على ذلك في قوله: "هي حجرة مربعة الشكل ، في حكم البالية ، و **لكنها** على عفائها تزدان جدرانها بالأرابسك "

و يمكن توضيح مضمون هذا الملفوظ بالجدول التالي :[3]

الحجة	**النتيجة**
هي حجرة مربعة الشكل ، في حكم البالية	ليس لها أي قيمة (ن)
تزدان جدرانها بالأرابسك	الغرفة لها قيمة جمالية و حضارية (لا–ن)

[1]– أبو بكر العزاوي ،الحجاج و المعنى الحجاجي ، ضمن الكتاب الجماعي التحاجج تنسيق حمو النّقّاري ، ص 71.
[2]– أبو بكر العزاوي ، اللغة والحجاج ، ص 55.
[3]–ينظر، المرجع نفسه ، ص 59.

أما الرابط "بل " فله عدة استعمالات لكن العزازي اقتصر على أهم استعمالين وهما التعارض الحجاجي (Antiorientation argumentative) وتكون فيه مرادفة لـ " لكن"، والتساوق الحجاجي (Coorientation argumentative) وتكون فيه مرادفة لـ " حتى " ثم درس بعض الاستعمالات الحجاجية البارزة للرابط حتى، واشترط أن يكون ما قبلها وما بعدها يخدم نتيجة واحدة وأن تكون الحجة التي تلي الرابط الحجة الأقوى من كل الحجج " باعتبارها الحجة الأخيرة التي يمكن تقديمها لصالح النتيجة المقصودة ، وبعبارة أخرى، فيه الحجة التي تتموقع في أعلى السلم الحجاجي ."[1]

ويمكن تمثيل ذلك بالخطاطة التالية :

ولم يهمل العزاوي في أبحاثه التركيز على الأبحاث المتعلقة بالاستعارة، وقسّمها إلى نوعين : الاستعارة البديعية التي ترد في سياق الصنعة الجمالية، والاستعارة الحجاجية التي ترد في سياق الإقناع ، باعتبارها تتوخى التأثير في المتلقي، فهي ترتبط بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية، ويعتبر العزاوي أنّ النوع الثاني من الاستعارة ليس نوعا من أنواع الزخرف اللفظي، بل هي من أهم الوسائل اللغوية والبلاغية التي يستعين بها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية، فالقول الاستعاري له قوة حجاجية عالية لذلك هو " يأبى أن يجيء بعده رابط من روابط التعارض الحجاجي مثل " لكن" و"بل"، أي أنه لا يقبل أن يرد في سياق الإبطال أو التعارض الحجاجي "[2].

[1]-المرجع السابق، ص ص 85-86.

[2]-المرجع نفسه ، ص 107.

إن اهتمام الباحث بالطابع الحجاجي للخطاب ينطلق من اعتبار الأقوال والعبارات التي نستعملها في حياتنا اليومية ذات قوة حجاجية بارزة، وتعكس هذه الفكرة نظرية ديكرو في الحجاج التي تقول بالطبيعة الحجاجية للغات الطبيعية ، " والتي تسعى إلى إبراز الإمكانات اللغوية الصرفية والمعجمية والتركيبية و الدلالية التي يتوفر عليها متكلم لغة ما و يستعملها لخدمة أغراضه التواصلية والإقناعية "[1].

تابع أبو بكر العزاوي مسيرته العلمية التي انصبت على الخطاب الحجاجي فظهر سنة 2007 مؤلَّفه المعنون بـ " الخطاب و الحجاج" الذي اعتبر حلقة متممة لكتاب " اللغة والحجاج " وامتدادا وتطويرا له ،فنقل الاهتمام من دراسة الحِجاج في مستوى اللغة إلى دراسة الحِجاج في مستوى الخطاب، ولذلك غلب عليه الجانب التطبيقي .

جاءت هذه الدراسة لتطوير النظرية الحجاجية وتوسيع مجال تطبيقها لتؤكد الحقيقة التالية "وهي أن الحجاج نجده أيضا في كل أنماط الخطاب وأنواع النصوص : نجده في الخطبة الدينية والقصائد الشعرية والمحاورة اليومية والمفاوضات التجارية و اللافتة الإشهارية والخطاب السياسي ومرافعة المحامي والرواية والمسرحية والمناظرات... وغيرها "[2] و هي نظرة تتميز باتساع أفق صاحبها لتأثره بنظرية الحجاج في اللغة التي تعتبر أنّ كلّ ما ينجز باللغة الطبيعية هو ذو طبيعة حجاجية .

تضمّن هذا الكتاب الثاني مقاربة الخطاب مقاربة حجاجية ، فدرسَ وفق هذا التوجه الخطاب القرآني من خلال تحليل سورة " الأعلى"، والخطاب الشعري ممثلا بقصيدة " العلة " لأحمد مطر، والخطاب المثلي من خلال الأمثال العامة المغربية، والخطاب الإشهاري من خلال عينة من الصور الإشهارية .

إنّ هذا البحث الهام لم يهمل علاقة الشعر بالحجاج فاهتدى إلى تقسيم الشعر إلى نوعين : شعر غير حجاجي غايته إظهار التمكن من الصناعة الشعرية، وشعر حجاجي لا يمكن قراءته إلا بربطه

[1]-أبو بكر العزاوي، اللغة و المنطق مدخل نظري ، مكتبة الأدب المغربي ، 2014 ، ص 33.
[2]-أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، 2010، ص 11.

بالمقاصد والمقامات التداولية " و كلما كان الشاعر صادقا في معاناته ساعيا إلى تبليغ خطاب ما راميا إلى التخاطب والتواصل مع الآخرين، له غاية واضحة وهدف محدّد يرمي إليه، كلما كان شعره أكثر حجاجية " [1].

يقرّ العزاوي أن الحجاج ذو طابع مزدوج يمكن دراسته على مستويين اثنين: مستوى خارجي يتحدد فيه النص كحجة كلية تحكمها الشروط التخاطبية والتفاعلية ومقتضيات الحال ، ومستوى داخلي يتحدد بكل مكونات النص وأجزائه من عنوان ومعجم و حوار واستعارات وروابط ومبادئ حجاجية وأفعال لغوية .

انفتحت دراسات العزاوي على مبحث حجاجي جديد يتمثل في الحجاجية الأيقونية Argumentation Iconique منطلقا من أنه لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج بغير تواصل، وعليه فالحجاج يمكن أن يكون بوسائل لغوية و يمكن أن يكون بوسائل غير لغوية ، ومن أجل هذا التوسيع اعتمد نظرية الدلالة التصورية كما هي عند جاكندوف Jackendoff الذي يعتبر أن البنيات الدلالية لا يمكن أن تكون إلا ضمن البنيات التصورية القابلة لأن يعبر عنها كلاميا، ولذلك ركز على البعد المعرفي المتعلق بالتمثيل الذهني للمعلومات "ففي هذا المستوى ستتم معالجة كافة أشكال التواصل اللغوي و الأيقوني بطريقة موحدة و أدوات متماثلة ."[2]

ولهذا فإن الحجج والنتائج في الخطاب الإشهاري هي عبارة عن عناصر أيقونية تترجم على مستوى البنية التصورية وتتكامل مع عناصر التواصل اللغوي لتحقيق الغايات المنشودة، فالمكونات اللغوية و المكونات الأيقونية توظفان معا حجاجيا .

[1]-المرجع السابق، ص 38.

[2]-المرجع نفسه ، ص 107.

الفصل الثالث: تجليات الخطاب الإقناعي في " بخلاء الجاحظ "

- أولا: التعريف بالمدوّنة.

- ثانيا: الحجاج والسرد في "بخلاء" الجاحظ.

- ثالثا : آليات الإقناع في "بخلاء" الجاحظ.

أولا: التعريف بالمدوّنة

تعتبر هذه المدوّنة من أهم الآثار الأدبية التي ألّفها الجاحظ في البخل، وهو لم يكن مبتدعا فيها، فقد سبقه السابقون من كتّاب العربية إلى هذا الموضوع،ونذكر منهم الأصمعي وأبي الحسن المدائني وأبي عبيدة، ورغم ذلك كان أسلوب الجاحظ في هذا المؤلّف مميزا، فاكتسى طابعا فنيا أدبيا، ولم يقتصر فيه على النقل والرواية فقط .

ألّف الجاحظ كتاب البخلاء بعد أن صار طاعنا في السن مصابا بالفالج، وهذا ما نجد له دليلا في قصة محفوظ النقّاش، والملاحظ أيضا أنّ هذا المؤلّف سابق لكتاب الحيوان، إذ يقول الجاحظ في مقدمته "... وعِبتني بكتاب احتجاجات البخلاء ومناقضاتهم للسمحاء"[1]. ولم يذكر الجاحظ في أجزاء هذه المدونة اسم الذي أَلّفَ من أجله هذا العمل الأدبي ولكنّه يتضح من أوائل كتاب البخلاء أنه مصنّف لشخص يجلّه المصنف، فهو يخاطبه منذ البداية بعبارات جليلة تظهر مقدار وزنه: "تولاك الله بحفظه وأعانك على شكره ووفّقك لطاعته وجعلك من الفائزين برحمته".[2]

ثم ذكر الجاحظ أنّ هذا الرجل هو سبب تأليف كتاب البخلاء، يقول: "وقلتَ : اذكر لي نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء، وما يجوز من ذلك في باب الهزل، وما يجوز منه في باب الجدّ"[3].

ويذكر الجاحظ في المقدمة أنه اعتمدّ على إستراتيجية خطابية خاصة في النقل والرواية فتارة ينسب الأحاديث لأصحابها، وتارة أخرى لا تأتي الأحاديث مضافة لأربابها لأنّ منهم الصديق والوليّ والمستور والمتجمل، ولذلك اعتبر أنّ عمله محفوف بالأخطار. يقول "ولولا سألتني هذا الكتاب لما تكلّفته ولما وضعت كلامي موضع الضيم والنقمة"[4] ويمكن اعتبار كلامه ذا قيمة حجاجية تغري القارئ لقراءته وفق هذا الأفق.

---

[1]-الجاحظ، الحيوان، ج1، تح: عبد السلام هارون، ط2، 1965، ص 04.

[2]-الجاحظ، البخلاء، تح: طه الحاجري، دار المعارف، ط5، ص 01.

[3]-المصدر نفسه، ص 01.

[4]- نفسه، ص 08.

وردت في المدوّنة نصوصا متباينة من حيث الشكل والنوع، فتضمنت طرف البخلاء وثلاث رسائل: رسالة سهل بن هارون ورسالة أبي العاص ورسالة ابن التوأم، بالإضافة إلى مجموعة من قصص البخلاء مرتبة على النحو التالي: [1]

عنوان القصة	الموضوع العام
قصة أهل البصرة من المسجديين	أصحاب مذهب تقشفي عميق في الادخار
قصة زبيدة بن حميد	تجسد قمة البخل والإصرار عليه مع الكل
قصة ليلى الناعطية	المبالغة في ترقيع القميص
قصة وليد القرشي وقصة أبي مازن	الأنانية وتوظيف الحيل
قصة أحمد بن خلف	تقسيم الميراث / الدعوة إلى البخل
قصة أبي جعفر	تجسد قيمة البخل في تناول الطعام
قصة الحزامي	استخدام منطق الكلام لإقرار صحة التوجه
قصة خالد عبد الله القسري واحتجاجه بخالد المهزول	التبري من البخل / استحضار موقف لذم الأكلة
قصة الحارثي	الحيل بين الأفراد
قصة الكندي	تجسيد البخل مع الناس.
قصة محمد بن أبي المؤمل	يحتج للبخل ويدعو إليه
قصة أسد بن جابي	الاقتصاد في استخدام أثاث المنزل
قصة الثوري	التضييق على الأبناء في عيشهم رغم سعة الكسب
قصة تمام بن جعفر	الحرص على الطعام
قصة ابن العقدي	عدم تأدية واجب الضيافة
قصة أبي سعيد المدائن	يحتج للبخل
قصة الأصمعي	الأنانية وغياب الإيثار
قصة أبي عيينة	قمة الكد مع أهل البيت وامتلاك كفاءة حجاجية عالية.

[1]- ينظر، عقيلة بعيرة، بنية الخطاب السردي في بخلاء الجاحظ، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2011-2012، مخطوط رسالة ماجستير، ص ص 34-35.

اعتمدّ الجاحظ في "البخلاء" على بلاغة الهزل وإستراتيجية السخرية لكشف الصفات المتناقضة التي تميز شخصية البخيل القائمة على مذهب الجمع والمنع، والجاحظ إنّما يسير في ذلك على إيراد نوادر البخلاء معتمدا على الوصف والتصوير والإيجاز لعلمه بميل النفس إلى قصار الأحاديث الفنية الطريفة.

تتسم قصص الجاحظ بالواقعية، فهي مأخوذة من الحياة التي ميّزت العصر العباسي، سواء أكانت هذه الوقائع واقعة بالفعل أو محتملة الوقوع، واستعان الجاحظ في التعبير عنها بالتصوير الدقيق لحركات الشخصية وأحاسيسها .

ثانيا– الحجاج والسرد في "بخلاء" الجاحظ

1– السرد والخبر

يعدّ الخبر من أهم الأجناس السّردية التي عرفها العرب منذ القدم، فهو المصدر الأساس المشكل للسردية العربية، ويعتبر سعيد يقطين أنه يتحقق بواسطة الإخبار "فهو يختلف عن صيغة القول، وذلك بالنظر إلى طبيعة الكلام ووضع المتكلم. "[1].

يرتبط هذا الجنس السردي بالأحداث الماضية "وبالصوت غير المباشر، حتى وإن كان المتكلم هو صاحب الملفوظ، لأنه يقدمه لنا وهو منه على مسافة " [2] لذلك يردُ هذا الجنس في الكلام العربي بصيغة: أخبرنا، وهي تعكس البعد الزماني والمكاني بين المتكلم والملفوظ .

اعتمدت الأخبار الأدبية عند المؤلفين العرب القدامى على الإسناد، فهو"خطة فنية التزم بها كثير منهم،اقتداء بعلم الإسناد في الحديث النبوي، بهدف التأثير في القارئ، وإقناعه بصدق ما يرويه"[3] لذلك اعتبِر إستراتيجية إقناعية تلقى قبولا لدى السامع أو القارئ وتدفعه للتسليم بما يقال له، وبهذا تتحقق نجاعة الخطاب.

تسمح السرديات بالتعرف على الخصائص النوعية للخبر، فهو ليس وحدة حكائية مركبة لذلك لا يعتمد على تنامي الشخصية وتطورها بل على ما يصدر منها من حدث، فالبناء السردي في هذا الخطاب قائم على فعل الشخصية .

يتشكل جنس الخبر في أنواع وأصناف، ونقصد بالنوع تلك السمات المهيمنة التي تؤدي إلى تماثل بنى النصوص كسمة الطرافة التي تحولت إلى مكون ثابت في نوع سردي مخصوص أطلق عليه

[1]–سعيد يقطين، الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار لبيضاء، ط 1، 1997، ص 219.
[2]–سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتجليات، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2006، ص 174.
[3]–سليمان الطالي، بلاغة النادرة، دار كنوز المعرفة، ط1، 2015، ص 46.

النادرة "ونكون بصدد الصنف عندما تشترك مجموعة من النصوص التي تنتمي إلى جنس من الأجناس أو نوع من الأنواع كالخبر أو النادرة في موضوع واحد"[1] كنوادر البخلاء وأخبار الحمقى والمجانين .

تسمح لنا هذه الملاحظات بإدراج الخبر ضمن الأجناس القصصية البسيطة، ويرى محمد مشبال أنّ هذا الجنس السردي البسيط قائم على "اللغة النثرية العارية عن البديع والواقعية وقصر الحجم والوظيفة الحجاجية "[2] .

وهذه الخصائص النوعية التي تجمع بين المتعة والإفادة هي التي تجعل من بلاغة الإقناع مقاربة هامة في فهم وتأويل هذه الخطابات السردية المميزة.

يمثل الخبر "أحد الخطابات التي تزاوج بين الوظيفة السّردية التخييلية والوظيفة الحجاجية التداولية، ويتوخى تبعا لذلك، توصيل مقاصد محددة صريحة أو ضمنية "[3] ولهذا فالخبر يثبت القيم ويحمل رسالة سامية تؤثر في المتلقي وتكسب تعاطفه .

تدور مصطلحات كثيرة في فلك الخبر، حتى لتكاد تلتبس بهذا الجنس الأدبي، وهذا ما حدث مع مصطلح النادرة الذي يقترن ذكره غالبا مع الخبر، ولاحظ فرج بن رمضان ذلك في بخلاء الجاحظ،فمن حيث التسمية يرادف فيها الجاحظ بين النوادر والأخبار، ومن حيث البناء تشترك في اعتمادها على السند والمتن، أمّا من حيث رابطة القصصية فهي مقوم أساسي في هذا النوع من النصوص .[4]

[1]- محمد مشبال، الحجاج و التأويل في النص السردي عند الجاحظ، نادي قصيم الأدبي ودار محمد علي للنشر، ط1، 2015، ص12.

[2]-المرجع نفسه، ص 11.

[3]- هشام مشبال، بلاغة الخبر تقاطع التخييلي والتداولي في أخبار "الإمتاع و المؤانسة "، ضمن كتاب البلاغة والخطاب، دار الأمان، الرباط، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف، ص181 .

[4]- ينظر، عبد الله البهلول، في بلاغة الخطاب الأدبي بحث في سياسة القول في نصوص من الأدب العربيّ القديم، قرطاج للنشر والتوزيع، ط1، 2007، ص 122.

تتضمن مدوّنة الجاحظ السردية أخبارا ونوادرا مختلفة، والملاحظ أنّ الأخبار التي أوردها تمتاز باعتمادها على الغرابة الطبيعية، أمّا النوادر فارتكزت في بنائها على بلاغة الهزل، وكان نصيب النوادر عند الجاحظ أوفر" لما عُرِف عنه من ميل واضح إلى أسلوبي الهزل والسخرية . "[1]

حاولت بعض القراءات التي اهتمت بالنثر السردي عند الجاحظ الوقوف على حجاجية أدبه معتبرة أخباره ونوادره قائمة على مكوني الحجاج والتخييل، ولذلك رفضت هذه القراءات كلّ دراسة نقدية تفصل بين التصوير والإقناع، واعترضت على كل من يحصر الحجاج في مدوّنة "بخلاء" الجاحظ على الجزء المخصص للرسائل فقط دون الجزء المتعلق بالنوادر، وكأن السرد والحجاج لا يجتمعان في خطاب واحد، ولذلك أكدّت القراءات ذات المقاربة الحجاجية على حقيقة أنّ كتاب البخلاء مؤلّف طوّقه الحجاج من بدايته إلى نهايته، فهو ذو مقاصد إقناعية ترتبط بمقام الخطاب وسياقه وتتجلى في الاحتجاج على التناقض الطبقي الذي ميّز عصر الجاحظ.

2- حجاجية النص السردي عند الجاحظ

يتميز السرد عند الجاحظ بامتزاجه بالإقناع، ويمكن فهم ذلك بربطه بالنسق البلاغي الذي يؤطر نصوصه الإبداعية، فهي قائمة على الفهم والإفهام ومراعاة الأبعاد التداولية، فلا انتفاع بالخطاب دون أن يكون مستجلبا لبلوغ غرض المتكلم به، فالقائل لا يقول قولا لمجرد الإخبار، وإنما يقوله أيضا لغاية استدراج السامع لحمله على تبنّي أفكاره واعتقاداته، ولذلك لا بدّ من "سياسة في القول تُعنى بالكلام باعتباره فعلاً وممارسة عمليّة لا باعتباره شكلا معزولاً عن المقاصد التّأثيريّة، مدارها على وظائف الكلام لا على الأشكال في ذاتها، فبها تُوظّف وسائل التعبير لتحقيق المقصد الإقناعيّ التّأثيريّ لأنه قطب الرّحى فيها " [2]

[1]- محمد مشبال، الحجاج والتأويل في النص السردي عند الجاحظ، ص 11.

[2]- عبد الله البهلول، في بلاغة الخطاب الأدبي، ص12.

إن كتابات الجاحظ هي ثمرة تفكيره في العالم والحياة " إذ لم يكن في المقام الأول صانعا للأساليب البيانية والبلاغية، بقدر ما كان يعبر عن تجربته في العالم الذي عاش فيه "[1]، ولذلك لا يمكن قراءة مؤلفاته إلاّ بفهم العلاقة التي كان يحاول دائما إرساءها بين البلاغة والخطاب، فالبلاغة عنده ليست مجرد قواعد لبناء التّخاطب، ولكنها أيضا قواعد لبناء حياة الناس في المجتمع "[2] وبهذا فالنص السردي في البخلاء ليس حكاية ممتعة يراد بها جلب السرور للقارئ، ولكنها أداة للتواصل تنطوي على وظائف تداولية من أهمها التأثير في سلوك المتلقي وأفعاله، ويقتضي هذا المنظور حصر بلاغة النص في المقاصد والحجج، ولا شك أن هذا المنحى الوظيفي يركز على " مفاهيم النجاعة والتوافق مع المقام الخارجي الملموس الذي يتحكم في إنتاج النص وتأويله "[3].

لا يكون البحث عن السّمات الأسلوبية المميزة لكتاب البخلاء مجديا إلا إذا تمّ ربطه بالسياق التواصلي وما ينطوي عليه من تأثير عملي في القارئ، فالسرد في هذا الكتاب يسعى إلى بناء الأخلاق وتوجيه العرب نحوقيم الجود والسخاء التي ميّزتهم منذ العصر الجاهلي، فالجاحظ اتخذ من السّرد في هذه المدونة أداة فعّالة للدفاع عن صفة الكرم في ظل ظروف جديدة ميزت العصر العباسي، انتقل فيها المجتمع من البداوة إلى المدنية .

يُجمع معظم الباحثين على اعتبار كتاب البخلاء لحظة هامة في مسار الإبداع النثري، تحول معه موضوع الضحك إلى شكل أدبي، واستطاعت النادرة أن تستوعب هذا المجال الإنساني الرحب، وأهَّلها لذلك ما تتوفر عليه من مقومات وخصائص فنية، فهي نوع سرديّ هزليّ مخصوص يتميز بجملة من الخصائص من أهمها الإيجاز من الناحية الكمية، والغرابة والطرافة من الناحية النوعية، وبهذا

[1]- قالط، فن الإضحاك في بخلاء الجاحظ: مقاربة تداولية، مجلة البلاغة والنقد الأدبي، العدد رقم 02، خريف/شتاء 2014-2015، ص 73.

[2]-محمد مشبال، البلاغة و السرد: جدل التصوير و الحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية،جامعة عبد المالك السعدي، تطوان المغرب، د.ط، 2010، ص 65.

[3]-المرجع نفسه، ص 13.

اعتبرت "النادرة لديه وسيلة مجدية للسخرية من الخصوم وقهرهم ونسف آرائهم بإخراجهم في صور عابثة متهكمة"[1] فهي تجمع بين الإمتاع والإفادة، وتظلّ نقدا لما شذّ من السلوك والتفكير، فالهزل فيها ليس نقيضا للجدّ، بل هو الجدّ نفسه .

يتسمّ السرد الجاحظيّ في هذه المدونة باعتماده على الهزل، ويمكن حصر دور هذا الهزل في ثلاث مقاصد:

أ–وظيفة أدبية : فهو يهدف إلى الإمتاع وبث البهجة والسرور في المتلقي ويضمن الفرجة للقارئ. وتستمد هذه المتعة الفنية في كتب الجاحظ "من الأسلوب والصياغة الفنية كإيراده العبارة البديعة بجانب القول الملحون، أو جمعه بين اللفظ الفصيح الجزل واللفظ المتهتك السخيف، واهتمامه بالأمر العظيم مثل اهتمامه بالأمر الحقير " [2] .

إنه يزاوج بين الجدّ والهزل لوعيه المبكر بنجاعة هذه الإستراتيجية الخطابية، فهي تضمن التأثير في المتلقي "فالجدّ والهزل هما السندان القويان لبناء الأدب وإنتاج نصوص تحقق من المنفعة بقدر ما تحقق من الإمتاع" [3] وكان لهذه الطريقة الجديدة في بناء الخطاب تأثيرا على الكتّاب الذين جاءوا بعد الجاحظ ولعلّ من أهمهم أبو حيان التوحيدي .

ب–وظيفة اجتماعية : فالغاية من الفكاهة في هذه المدوّنة هي العبث بالبخلاء وإيلامهم حتى يبتعدوا عن البخل، فللهزل المولد للضحك "وظيفة إصلاحية تقويمية تهدف إلى إصلاح انحراف البخيل عن الذوق العام، ودفعه لكي ينتبه لعيبه ومعالجة سلوكه وطبعه المنحرف عن المعايير السائدة في مجتمعه" [4].

---

[1]–عبد الله البهلول، في بلاغة الخطاب الأدبي، ص 153 .

[2]– عبد الواحد التهامي، بلاغة الهزل في نثر الجاحظ، مجلة جذور السعودية، رقم29، أكتوبر 2009، ص 63.

[3]–عبد الله البهلول، في بلاغة الخطاب الأدبي، ص 153.

[4]– عبد الواحد التهامي، بلاغة الهزل في نثر الجاحظ، ص 67.

ج–وظيفة فكرية : وتتمثل في الدفاع عن قيم السخاء والبذل والعطاء التي عرف بها العرب منذ الجاهلية، وهي قيم أصبحت مهددة في العصر العباسي بعد امتزاج العرب واختلاطهم بالأعاجم، مما جعل الجاحظ يوظف أسلوب الهزل في كتابته لمحاربة هذه البدعة الاجتماعية والخلقية الذميمة.

خصّ الجاحظ نوادره في هذه المدونة بـ "البخلاء" وهم فئة اجتماعية عاصرها وعاصرته "اشتغل بها، واشتغل عليها، ووسم بها مؤلّفه . فكان الإضحاك أحد الأسلحة الأدبية التي أشهرها ضد البخل والبخلاء، فبتسمية هؤلاء بالبخلاء وبعنونة الكتاب بهذا الاسم، انضمّ إلى صف أعدائهم"[1] وقبل أن يوجه سهامه نحو هذه الفئة، استهلّ مؤلّفه بإضفاء الشرعية على آلية الهزل وما يتبعها من ضحك، فلهذا السلوك الإنساني موضع ومقدار وقد يحصل به نفع كثير . واستدلّ على فضائل الإضحاك بجملة من الأدلة الشرعية والنقلية، فذكر قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[2] فوضع الضحك بحذاء الحياة، والبكاء بحذاء الموت، فالضحك سلوك إنساني وهو شيء في أصل الطباع، كما أنّ الضحك أول خير يظهر من الصبي وبه تطيب نفسه، والعرب تسمي أولادها بالضحّاك وبباسم وبطلق وبطليق، "ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك، وقبيحا من المضحك، لما قيل للزهرة والحِبرة والحلي والقصر المبني: كأنه يضحك ضحكا "[3] والجاحظ لا يقصد الإضحاك المجرد من أي معنى وإنما ما يعلّم العقل ويجدد نشاط النفس ويعيد لها حيويتها، لذلك جعله في هذه المدوّنة سلاحا للحفاظ على قيم الكرم والسخاء وكشف تناقضات البخيل، فرغم أنه محاجّ قوي، يقارع الخصوم، ويواجه الأعداء إلا أن حججه تتصف بالطرافة والتندر، فما هذا الغباء الشديد إلى جانب فطنة عجيبة "وما هذا السبب الذي خفي به الجليل الواضح، وأدرك به الجليل الغامض"[4].

[1]–قالط، فن الإضحاك في بخلاء الجاحظ : مقاربة تداولية، ص 74.

[2]–سورة النجم، الآيتين: 43– 44.

[3]–الجاحظ، البخلاء، ص 06.

[4]–المصدر نفسه، ص 02 .

يعدّ محمد مشبال من أهم البلاغيين المعاصرين الذين حاولوا مقاربة نصوص الجاحظ مقاربة حجاجية، فاعتبر في بحوثه أن النص السردي عند الجاحظ في البخلاء من النمط البلاغي الحجاجي، فالسرد فيه خادم للحجاج، ذلك بأن إيراد نوادر البخلاء وأخبارهم يسعى لتوجيه سلوك المتلقي وتعديله نحو القيم الإيجابية، ويعتمد هذا الخطاب على إستراتيجية السخرية من النماذج البشرية البخيلة يهدف إلى دفع الناس إلى نبذ هذه الشخصيات المضحكة والسمو عن وضاعتها، ورفض الشبه بها .

تجمع نصوص المدوّنة بين وظيفتين :" وظيفة جمالية تؤكد براعة الأديب في صياغة العبارة، ووظيفة حجاجية تؤكد قدرة العبارة على إغراء النفوس واستمالتها وتحقيق التأثيرات المقصودة ."[1] فنثر الجاحظ في المدونة المدروسة اعتمد على بلاغة غير تقليدية، بلاغة قامت على استثمار سمة المفارقة في الخطاب، واستبدلت بالموضوعات الجادة موضوعات هزلية، وتوجهت إلى أصناف متعددين من المتلقين وبهذا خرقت أفق انتظار المخاطب، وأسست لبلاغة جديدة يشكلها التلازم بين التصوير والإقناع .

وعلى هذا النحو أحدث الجاحظ تضافرا بين صياغة الحجج وصياغة الأسلوب أو ما يمكن أن نطلق عليه بتضافر الوظيفتين الحجاجية والشعرية، وهكذا نقل الجاحظ الأدب من طور بلاغة الأسلوب إلى طور بلاغة الحياة، وهو تحول استجاب لانتقال المجتمع العربي من طور البداوة إلى طور الحضارة .

يمكن تقسيم النصوص الواردة في كتاب «البخلاء» إلى نوعين متمايزين : النوع الأوّل عبارة عن مجموعة من الرّسائل والوصايا والرّدود، وتجسّد جميعها الأسس التنظيرية التي بنى عليها البخلاء مذهبهم في البخل.

[1]-عبد الله البهلول، في بلاغة الخطاب الأدبي : في سياسة القول، ص159.

أمّا النوع الثاني الذي استغرق معظم صفحات الكتاب فهو عبارة عن أخبار وقصص ونوادر تصوّر حياة البخيل كما تجسدت في الواقع، وهي تسعى لكشف تناقضاته بطريقة فنية مبنية على السخرية .

أمّا محمد مشبال فيعتبر أن كتاب البخلاء احتوى على شكلين من أشكال الخطاب يختلفان في الأسلوب " فهناك رسائل الاحتجاج التي تعتمد صيغة القول الإقناعي، وهناك النوادر والقصص التي تعتمد صيغة الفعل السردي " [1] ولكن كلاّ النوعين الفنيين يعتمد على الإستراتيجية الإقناعية، ففن الحكي عند الجاحظ لا يمكن فهمه إلا بقراءته وفق المقاربة الحجاجية .

ويمكن أن نردّ اهتمام الجاحظ بظاهرة البخل واتخاذها موضوعا أدبيا إلى اعتبارها من الظواهر الاجتماعية التي تفشت في المجتمع العباسي في عصره، والتي أثمرت مذهبا خاصا بها، تبناه مجموعة من البخلاء، فاجتمعوا للدفاع عن مذهبهم والاحتجاج له، إذ كان لهم ناد يجتمعون فيه، يتذاكرون الإصلاح وطرق البخل، ومكانهم في الأغلب المسجد، حتى سموا بالمسجديين، ويبدو أن مسجد ابن رغبان بحي البصريين في بغداد كان ملتقاهم، وكان على رأسهم أبو عبد الرحمان الثوري، واجتمع له منهم عدد كبير، منهم إسماعيل بن غزوان، وجعفر بن سعيد، وخاقان بن صبيح، وعبد الرحمان العروض والحزامي،عبد الله بن كاسب، ومنهم سهل بن هارون، وأبو يعقوب الخريمي، وكان أبو سعيد المدائني إماما للبخل في البصرة في ذلك العصر، وكان البخل عندهم دعوة ومذهبا اقتصاديا.

جعل البخلاء من المأكل وكل ما له علاقة بالتغذية أساسا لسياستهم الاقتصادية التي تنبني على الشح والتقتير في الإسراف على ملذات البطن، حيث عزّزوا ذلك بالحجج الواهية التي تبدو في الظاهر مقنعة، لكنها تقوم على التنافر والتناقض.

[1] – عبد الواحد التهامي، بلاغة الهزل في نثر الجاحظ، ص 63.

كانت هذه الظاهرة مثار نقاش كبير بين الكتّاب وسالت بموجبها أقلام كثيرة. ويعد الجاحظ من أبرز النقّاد والأدباء الذين سخروا من هذه الفئة البشرية وندّدوا بغفلتهم في الحياة، بل وانتقدوهم نقدا لاذعا يقول " وليس عجبي ممن خلع عذراه في البخل وأبدى صفحته للذم، ولم يرض من القول إلا بمقارعة الخصم ولا من الاحتجاج إلا بما رُسم في الكتب، ولا عجبي من مغلوب على عقله مسخّر لإظهار عيبه، كعجبي ممن قد فطِن لبخله وعرَف إفراط شحه، وهو في ذلك يجاهد نفسه ويغالب طبعه، ولربما ظنّ أن قد فطن له وعرف ما عنده، فموّه شيئا لا يقبل التمويه، ورَقَع خُرقا لا يقبل الرقع"[1].

تنطلق هذه الدراسة من اعتبار المدوّنة نصا حجاجيا بالدرجة الأولى، وهذا نظرا لكونه خطابا متلفظا به يفترض متكلما ومستمعا، وتتوافر فيه قصدية التأثير فهو يرافع إلى تحقيق الإقناع بدفع المتلقي إلى تعديل موقفه أو تغييره والتسليم بالنتائج .

إنّ المقدمة التي استهلّت بها المدوّنة هي المنطلق الحجاجي التي بني عليها الخطاب الإقناعي، وهو اعتبار مؤسس على خلفية نظرية مدارها على " أن مقدمات الكتب وصدورها وما توشح به من كلام يمكن أن يوظف في استكناه مغالق المتن باعتباره إنجازا تفصيليا لما حوته مقدمات الكتب من إشارات وتنبيهات وحقائق "[2] .

فهي عناصر حجاجية مهمة في المدوّنة لأنها علامات فاعلة تؤثر على عقائد الجمهور وميولاته، إذ تأسره عقلا وعاطفة، فهي تسعى لتحصيل إذعانه والظفر بتصديقه ،ولما كان الجاحظ معتزلي المذهب متكلم الصفة، نظم مقدمة كتابه تنظيما خاضعا لمقتضيات الترتيب العقلي في عرض القضايا، فالكلام وسيلة الجاحظ في الإحتجاج وسبيله في الانتصار.

[1]-الجاحظ، البخلاء، ص 03.

[2]-علي الشعبان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص 247.

يقول الجاحظ في مستهل المدوّنة: "ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبين حُجة طريفة، أو تعرّف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة. وأنت في ضحك منه إذا شئت وفي لهو إذا مَلِلت الجد."[1]

وهو يعتمد في ذلك على إيراد نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء مرتكزا على توليد الهزل ومؤسسا لبلاغة هذا النوع من القول الذي يكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كبيرا .

والجدير احتجاج الجاحظ لهذا الجنس الأدبي الجديد القائم على الإضحاك، ويستند في ذلك على الخلفية الدينية وقدرته البارعة في الحجاج لتمرير آرائه وإقناع سامعيه، وهو في كلّ مواضيع كتابه يسخر من مجموع أسئلة زائفة في عصره " أسئلة تحركها الشعوبية حينا، وروح البداوة حينا والسياسة أحيانا، بل دائما أبطالها فقهاء وكتاب ومتلفسفة وشعراء زاغوا عن النمط السليم في نظره ."[2]

فالجاحظ يفتخر بالقيم الأخلاقية والاجتماعية الرفيعة التي اتصف بها العرب دون غيرهم من الشعوب المجاورة . هذا ما يعكس لنا إسقاطه لصفة البخل في بخلائه على شخصيات فارسية معظمها من مناطق مرو وخراسان ليبرز لنا أن صفة البخل صفة دخيلة على المجتمع العربي .

إن المقصد الأساس لاحتجاج البخلاء هو الدفاع عن مذهبهم في البخل، وإعطاء شرعية لسلوكهم وإظهار البخل كفضيلة لا رذيلة، لأنه يقي الإنسان من الإسراف والتبذير، ولكن السارد يهدف من وراء نقل مواقفها إلى تصوير غرابة أقوالهم وسلوكهم، فهي تحفل بنواحي العجب والغرابة والخروج عن المألوف .

[1]-الجاحظ، البخلاء، ص 05.

[2]-محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 134.

إن قارئ كتاب البخلاء، من بدايته إلى نهايته، يجد نقاشا واسعا بين أنصار البخل وخصومهم، ورغم أن هؤلاء البخلاء لا يتكلمون إلا عندما يلامون أو يستفزون "إلا أننا عندما نتأمل فصول الكتاب ونحصي كلامهم، نلاحظ أن خطابهم أغزر وأرحب من خطاب مناوئيهم "[1].

وسنحاول أن نكشف مختلف الآليات والاستراتجيات الإقناعية التي اعتمد عليها هؤلاء البخلاء في ستر عيوبهم والاحتجاج لمذهبهم .

[1]-عبد الفتاح كيليطو، الأدب والارتياب، دار توبقال للنشر، ط1،2007، ص 24.

ثالثا : آليات الإقناع في "بخلاء" الجاحظ

جنّد الجاحظ كافة التقنيات والآليات اللغوية لإقناع المتلقي، فاستعان بحجج صريحة وضمنية ولكنها متماسكة تشكل على المستوى الخارجي حجة كبرى هي مدح الكرم بكل صوره وذم البخل بكل حيله، أما على الصعيد الداخلي فيتم اشتغال النشاط الحجاجي بالربط بين القضايا بواسطة روابط مختلفة، ويظهر أنّ " الربط بين القضايا إنما يتحدد بنوع من تجانس تعلق الأحداث مما تشير إليه تلك القضايا ."[1] فالسياق هو الذي يتولى انسجام الحجج وتكاملها .

1-التقنيات اللغوية:

حاول الجاحظ التأثير في المتلقي وإقناعه بحمله على تبني أفكاره والتسليم بصحة موقفه، فعمد إلى اختيار الحجج المناسبة مستخدما عدة أدوات لغوية وتقنيات أسلوبية،ومن أهمها:

1-1-ألفاظ التعليل :

لجأ الجاحظ في خطاب البخلاء إلى استخدام ألفاظ أسهمت في إقناع المتلقي بربطها بين المقدمات والنتائج كالمفعول لأجله، وكلمات مثل لأجل، لأن، كي.

- **المفعول لأجله** : "مصدر يدل على سبب ما قبله ويشارك عامله في وقته، وفاعله (...) وهو ثلاثة أقسام : مجرد من أل والإضافة (...)، ومضاف (....) ومقترن بأل وهذا القسم دقيق في استعماله وفهمه، قليل التداول قديما وحديثا"[2] .

ومن المواضع التي ورد فيها المفعول لأجله قول الجاحظ: "ولم أر مثل أبي جعفر الطرسوسي: زار قوما فأكرموه وطَيّبوه، وجَعلوا في شاربه وسَبلته غالية . فحكّته شفتُه العليا، فأدخل إصبعه فحكّها من باطن الشفة، **مخافةَ** أن تأخذ إصبعه من الغالية شيئا إذا حكّها من فوق" [3].

[1]-ينظر، فان ديك، النص والسياق : استقصاء البحث في الخطاب الدلالي التداولي، ص 76.

[2]- حسن عباس، النحو الوافي، ج 2، دار المعارف، مصر، ط 3، 1966، ص 225.

[3]-الجاحظ، البخلاء، ص 58.

ورد لفظ التعليل مفعولا لأجله، فبيّن سبب حكّ الطرسوسي الشفة العليا من باطنها،والمتمثل في خشيته من أن تأخذ إصبعه من الطيب، فهذه الحجة توجه الملفوظ نحو التأكيد على بخل هذا الرجل وإصراره على مذهبه في الاقتصاد، ومحاولته إعطاء شرعية لسلوكه، ويكشف هذا التعامل حقيقة مثل هذه النماذج البشرية التي تجعل المتلقي في حيرة ودهشة، وهذه طريقة نوادر الجاحظ فقد ارتبطت بالواقع اليومي المعيش "فالتقطت الغريب والشاذ والهامشي، وخاضت في مجال القيم والأعراف والتقاليد بالنقد تارة، وبالسخرية تارة أخرى "[1] .

ويمكن أيضا أن نمثل لهذه التقنية اللغوية بقول الجاحظ " تظلمون المتلف لماله باسم الجود إدارة له عن شيئه، وتظلمون المصلح لماله باسم البخل **حسدا** منكم لنعمته فلا المفسد ينجو ولا المصلح يسلم "[2].

ورد لفظ التعليل مفعولا لأجله،فبيّن سبب لوم الناس للبخيل،فما ذلك إلا لحسدهم له، فالتمسوا تهجينه بهذا اللقب، ولكن المتلقي يكتشف أن هذا التعليل يندرج ضمن الإستراتيجية المغالطية التي اعتمدها البخلاء لستر حرصهم على المال .

– لأنّ :

يعمد المحاجج إلى توظيف الأدوات اللغوية المختلفة بطاقاتها الحجاجية المتنوعة،إذ يختار المتكلم ما يتناسب مع مقصدية الخطاب، فليست هذه الأدوات سوى قوالب تنظّم العلاقات بين الحجج والنتائج، فالخطاب الحجاجي يعتمد على تقنيات مخصوصة "لا تختص بمجال من المجالات دون غيره، فهي مطاوعة حسب استعمال المرسل لها، إذ يختار حججه وطريقة بنائها، بما يتناسب مع السياق " [3] .

[1]–سليمان الطالي، بلاغة النادرة في الأدب العربي، ص 245.

[2]–الجاحظ، البخلاء، ص 65.

[3]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب : مقاربة لغوية تداولية ، ص ص 476–477.

تعدّ ألفاظ التعليل من أهم الأدوات اللغوية التي يستعين بها الخطاب الحجاجي، ومنها الرابط الحجاجي (لأن) الذي يستعمل لتبرير المواقف ووجهات النظر، وقد استعان به الجاحظ في هذه المدونة، ويمكن أن نمثل لذلك بقصة ذلك الرجل الخراسانيّ الذي كان من عقلاء قومه وفقهائهم إلاّ أنه رفض أن يشاركه غيره في الأكل فقيل له: "لم تأكل وحدك ؟ قال ليس عليّ في هذا الموضع مسألة: إنما المسألة على من أكل مع الجماعة، **لأنّ** ذلك هو التكلف وأكلي وحدي هو الأصل وأكلي مع غيري زيادة في الأصل "[1].

ويمكن أن نمثّل لهذا القول الحجاجي بالبنية التالية :

- النتيجة : رفض الأكل مع الجماعة
- الرابط : لأن
- السبب: الأكل مفردا هو الأصل والأكل مع الجماعة تكلف

النتيجة ⟵ الرابط ⟵ السبب

رفض الأكل مع الجماعة ⟵ لأن ⟵ الأكل مفردا هو الأصل والأكل مع الجماعة تكلف.

إن هذا التبرير يتضمن نتيجة مضمرة تتمثل في شدّة بخل الرجل وحرصه الكبير على الطعام .

– اللام الناصبة :وللّام الناصبة للفعل ستة أقسام :[2]

– **لام "كي"**: وهي لام التعليل ويرى الكوفيون أن هذه اللام ناصبة، أما البصريون فيرون أنّها جارة، والناصب مقدر بعدها، وهو أن:

[1]-الجاحظ، البخلاء، ص24.

[2]-ينظر، المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص ص 115-123.

- **لام الجحود:** وهي اللام الواقعة بعد كان الناقصة المنفية الماضية نحو: ما كان زيد ليذهبَ، ولم يكن زيد ليذهبَ .
- **لام الصيرورة** : وتسمى لام العاقبة، ولام المآل وهي عند الكوفيين ناصبة بنفسها، وعند أكثر البصريين صنف من أصناف لام "كي" .
- اللام الزائدة : نحو قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾[1].
- **اللام التي بمعنى "أن"** : وهو رأي الفراء الذي اعتبر أنّ العرب تجعل لام "كي" في موضع "أن" في : أمرت، وأردت.
- **اللام التي بمعنى الفاء** : ذكر ذلك بعض النحاة، وجعلوا منه قوله تعالى ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[2] أي فكان لهم عدوًا وحَزَنا.

ومن النماذج النصيّة التي نجد فيها هذا النوع من ألفاظ التعليل ما ورد في رسالة سهل بن هارون التي دافع من خلالها عن نفسه حين اتهم بالبخل " وعبتموني حين قلت للغلام : إذا زدت في المرق فزد في الإنضاج **لنجمع** بين التأدم باللحم والمرق و**لنجمع** مع الارتفاق بالمرق الطيب "[3].

فالمترسل هنا يريد أن يدحض حجج أعدائه التي استندوا عليها لإظهار بخله، فاستخدم مجموعة من الحجج المضادة التي تبرر مشروعية أفعاله وتصرفاته،فهولا يريد من زيادة الماء إلا الاستفادة من التأدم، فمن لم يصب لحما أصاب مرقا، ويستند هذا القول على رهان الإختلاف فحين " يتفق الجميع فلا مبرر لما يقال، وحين يكون القول الحجاجي مغلقا فلا يشكل قولا حجاجيا "[4].

[1]-سورة النساء ، الآية 26.

[2]-سورة القصص، الآية 08.

[3]-الجاحظ، البخلاء، ص 11.

[4]-عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، ص 17.

إنّ حجاج سهل بن هارون في القول السابق يوهم بالصحة في ظاهره، لكنّه في حقيقته من الأساليب المغالطية التي تعتمد الحيلة والتضليل وإيهام المتلقي بصحة التعليل.

- **الفاء** : ذكر النحاة أن الفاء "إن عطفت جملة أوصفة فالأغلب إفادتها السببية "[1] ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾[2].

لجأ الجاحظ في هذه المدونة إلى توظيف هذه الأداة في معرض احتجاج البخلاء بمذهبهم بجمل مركبة تحمل شطرين متلازمين : سبب ونتيجة . وتتجلى هذه التقنية اللغوية في عدة مقاطع منها "وعِبتموني حين قُلت: لا يغترّنّ أحد بطول عمره وتقوس ظهره ورقة عظمه ووَهن قوته أن يرى أكرومته، ولا يُخرجه ذلك إلى إخراج ماله من يديه وتحويله إلى ملك غيره ... **فلعله** أن يكون معمّرًا وهولا يدري وممدودًا له في السنّ وهولا يشعر، ولعله أن يُرزق الولد على اليأس أو يحدث عليه بعض مخبآت الدهور، ممّا لا يخطر على البال ولا تدركه العقول، فيستردُّه ممن لا يردُّه ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه "[3].

فالمحاجج في هذا الملفوظ يدافع عن دعوته إلى الاقتصاد في النفقة، فحتى وإن بلغ الرجل من الكبر عتيّا فعليه إن يحافظ على ماله ولا يخرجه من بين يديه، وحاول المرسل أن يقنع المتلقي بهذا الرأي فأورد حججا مستعينا بالرابط الحجاجي: الفاء الذي استطاع أن يجعل الأقوال الحجاجية التي جاءت بعده تعلل الموقف السابق .

[1]-نشأت علي محمود عبد الرحمن، التوجيه النحوي وأثره في دلالة الحديث النبوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2011، ص129.

[2]- القصص، الآية 15.

[3]-الجاحظ، البخلاء، ص ص 12-13.

يبدو من خلال هذا المثال أن سهل بن هارون يعتمد على استجماع الحجج وترتيبها لتكسب قوة وبلاغة في الإقناع، فالإنسان قد يكون ممدودا له في العمر وقد يرزق الذرية على اليأس وقد تضيق به الدنيا، ولذلك عليه أن يعمل لدنياه عمل من يعيش أبدا، وأن يعمل لآخرته عمل من يموت غدا .

1-2- التأكيدات الأسلوبية:

وتتحقق في الخطاب بفضل مجوعة من المؤشرات، ومن أهمها:

- **التكرار**

ليس التكرار مجرد رصف كلمات وألفاظ متشابهة من أجل إحداث نغم موسيقي، وإنما هو تكرار مقصود، إنه أحد ميكانزمات عملية إنتاج الكلام فهو" يساعد أولا على التبليغ والإفهام ويعين المتكلم ثانيا على ترسيخ الرأي والفكرة في الأذهان، فإذا ردّد المحتج لفكرة حجة ما أدركت مراميها، وبانت مقاصدها ورسخت في ذهن المتلقي، وإن ردّد رابطا حجاجيا أقام تناغما بين أجزاء الخطاب، وأكد الوحدة بين الأقسام أو أوهم المتلقي بها ."[1]

إن المحتج يلجأ إلى هذه الآلية اللغوية لترسيخ أفكاره ونقل معتقداته وتثبيت الكلام ليصل إلى المتلقي فيقتنع به، فالمتكلم يستعين بتكرار بعض العبارات لأنه يعي أنّ التكرار "يقوّي حجته في كل مرّة يتلفظ بها، وذلك بالرغم من أن الألفاظ هي لم تتغير، ولكن المتغيّر المصاحب للتلفّظ هو الأثر التداولي الذي يريد تحقيقه"[2].

وإذا عدنا إلى المدوّنة، وجدنا الجاحظ يوظف هذه الآلية اللغوية على لسان شخصياته مثل تلك النادرة التي بطلها أحد الرجال الذي بلغ في البخل غايته،وكان إذا صار في يده الدرهم خاطبه

[1]- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 168.

[2]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 493.

وناجاه "كم من أرض قد قطعت، وكم من كيس قد فارقت، وكم من خامل رفعت، ومن رفيع قد أخملت. لك عندي ألا تعرى وتضحى "[1].

فمن الواضح أن السارد قصد تكرار " كم " الخبرية التي تفيد الكثرة حتى يكسب قوله دلالة أنّ هذا الدرهم مرّ برحلة طويلة وشاقة،ولذلك يستحق الحرص على عدم تضييعه، فهو مدار العلو والرفعة التي ينشدها أي إنسان، ويحمل هذا الخطاب دلالة مضمرة تتمثل في الإحتجاج لمذهب البخل والاقتصاد المفرط في النفقة .

ويمكن أيضا أن نمثل لهذا الأسلوب الحجاجي باحتجاج أبي عبد الرحمن في المدوّنة " وكان يقول : الناس لم يقولوا : هذا رأس الأمر، وفلان رأس الكتيبة، وهو رأس القوم، وهم رؤوس الناس وخراطيمهم وأنفهم، واشتقوا من الرأس الرياسة والرئيس، وقد رأس القوم فلان، إلا والرأس هو المثَل وهو المقدم "[2].

ولا يمكن فهم هذا الملفوظ إلا بربطه بسياقاته والظروف المحيطة به، فأبو عبد الرحمن في هذا القول يحتج للبخل ويوصي به، ويدعو إليه وذلك من خلال إعجابه بالرؤوس، فكان يحمدها ويصفها حتى سمى الرأس عرسا لما يجتمع فيه من الألوان الطيبة .

فالمرسل في الخطاب الحجاجي يميل إلى هذه الوسيلة النصية – التكرار – ليجعل خطابه أشد تأثيرا وأكثر إقناعا ،وإذا وردت هذه الآلية اللغوية في سياق الاستهزاء فإنها تسهم في تحقيق نجاعة الخطاب.

[1]-الجاحظ، البخلاء، ص 131 .

[2]-المصدر نفسه، ص108 .

1-3-الأفعال الكلامية

لقد ربط الاتجاه التداولي الخطاب بأفعال الكلام تقريرا وإنجازا، فالنص الأدبي ليس مجرد خطاب لتبادل الأخبار والأحاديث، بل يهدف إلى تغيير وضع المتلقي عبر مجموعة من الأقوال والأفعال الإنجازية، ولذلك جاءت نظرية أفعال الكلام لتنظر للغة نظرة جديدة على أساس أنها قوة فاعلة في الواقع ومؤثرة فيه، فللفعل الكلامي وظائف تداولية مرتبطة بقصد المخاطب، من أهمها الوظيفة الحجاجية "ولا ينبغي لنا أن نغترّ بكون بعض المعاصرين يحاولون وضع لائحة للأفعال الكلامية من دون ذكر، أحيانا، لسياقها الكلامي أو الحالي . فإنما المرجع النهائي لأولئك التداوليين في تحديد مجالها الدلالي والتداولي لن يكون إلاّ السياق الكلامي وسياق الحال وقصدية المتكلم "[1].

تولّدت فكرة الحجاج التداولي داخل حقل الأفعال الكلامية، منذ أن اهتم أوستين Austin بالتنظير لهذه النظرية،حيث ميّز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية المرتبطة بالحجاج " العمل الأول هو العمل القولي، ويتحقق ما إن نتلفظ بشيء ما، أما الثاني فهو العمل المتضمن في القول، وهو العمل الذي يتحقق بقولنا شيئا ما، وأما الثالث فهو عمل التأثير بالقول وهو العمل الذي يتحقق نتيجة قولنا شيئا ما "[2].

إنّ هذا يدلّ على أنّ أيّ ملفوظ يتضمن فعلا حجاجيا، فهو يتوخى التأثير على العواطف والأفكار وسلوك المستمعين،وهذا ما يجسّد الغرض التداولي للكلام، فكل رسالة موجهة إلى مستمع ما، تسعى إلى إقناعه بفعل ما .

[1]- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 53.

[2]- ينظر، روبول آن وموشلار جاك، التداولية اليوم علم جديد في التواصل ، ص ص 31-32.

وانطلق سيرل Searl من أفكار أوستين وحاول تطوير نظرية الأفعال الكلامية من خلال حديثه عن القصد Intention، فكل فعل كلامي يحمل في جوهره إثباتا أو حجة تدل على قصد المتكلم، وبمراعاته لهذا المعيار أورد الأفعال وفق التصنيف التالي :[1]

أ- **الإخباريات**: تتعلق بتبليغ خبر ما أو واقعة تقبل الصدق أو الكذب

ب- **التوجيهات والإرشادات**: يحاول فيها المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما، ولا تقبل الصدق أو الكذب كالاستفهام، والأمر.

ج- **الالتزاميات والتعهدات**: وتتضمن التزام وتعهد المتكلم بفعل شيء في المستقبل مثل النذور، العهود، المواعيد، وشرط صدقها هو القصد .

د- **التعبيريات**: وتختص بالتعبير عن الموقف النفسي تعبيرا يتوافر فيه شرط الإخلاص كالاعتذارات التشكرات، التهاني.

هـ- **الإعلانيات**: تكون بمجرد التلفظ بها، وتخضع للمقام ومقتضياته، وهي ذات صلة بالحجاج بالنظر إلى الأثر والتغيير الذي تحدثه .

ارتبط إعادة تصنيف الأفعال الكلامية عند سيرل بالمقصدية المتضمنة في القول، ولاقى هذا التصور صدى في البحوث التداولية، فانبثقت منه نظرية الحجاج التي كان ديكرو من أهم مؤسسيها، ومنطلق هذه النظرية هو أنّ كل نشاط لغوي يقوم به شخص معين يمكن عدّه فعلا أو عملا يهدف إلى إحداث " تغييرات متعلقة بالوضع الفيزيائي أو الاجتماعي للمتكلم، فالعمليات نفسها يمكن وصفها بأنها نشاط أو فعل أو عمل، بحسب ما إذا كنا نراها في ذاتها أو بوصفها تغييرا لعلاقة من يؤديها مع العالم "[2].

[1]- ينظر عمر معراجي، النصّ بين الدلالة والتداول، ص 202.

[2] -Voir, Ducrot .o, Dire et ne pas dire, Hermann éditeur, 3ème édition , Paris, 2003, p 77.

يتضح مما سبق أنّ الفعل اللغوي يرمي إلى تغيير الواقع، فالمخاطب يوظف التركيب الذي يلتمس فيه القدرة على استمالة المتلقي والفعل فيه وإقناعه، ومن ثمة كانت الاختيارات التركيبية للأفعال الكلامية ذات غاية حجاجية .

لم تهتم البحوث التداولية بدراسة الأفعال الكلامية فحسب، بل امتدّت لتشمل قواعد المحادثة باعتبارها أساس الحجاج في العملية الحوارية، وحاول غرايس Grice الخوض في هذه المسائل واعتبر أنه "بدل أن يتحدث عن معاني الكلمات والجمل، ينظر أساسا في الشروط المناسبة لاستعمال العبارات لاعتقاده أن تعدد الفعل اللغوي المباشر لا يمثل حلا لمشكل المعنى "[1].

ولذلك اشتغل بأفعال اللغة غير المباشرة، فاعتنى بأصول الحوار، وافترض أنّ المتحادثين المشاركين في محادثة ما يحترمون مبدأ التعاون،ومفاد هذا المبدأ " أنّ على أطراف الحوار أن تتعاون فيما بينها لتحصيل المطلوب "[2].

وهو ما يتطلب أن يكشف المتحاورون عن مقاصدهم أو على الأقل التوجه العام لهذه المقاصد،وفرّع غرايس هذا المبدأ إلى مجموعة من القواعد تضبط مسار الحوار :قاعدة الكم (لا تجعل الفائدة تتجاوز حدّ المطلوب)، قاعدة الكيف (لا تقل ما تعلم خطأه أو ما ليس لك عليه دليل)، قاعدة الملاءمة (ليناسب مقالك مقامك)، وقاعدة الجهة أو الكيفية (لتحترز من الإلتباس والإجمال ولتتكلم بإيجاز ولترتب كلامك) [3].

إن خرق أي قاعدة يؤدي إلى اختلال العملية الحوارية، وفي هذه الحالة على المحاور أن ينقل كلام مخاطبه من معناه الظاهر إلى المعنى الخفي الذي يقتضيه المقام، وهو ما تمّ تناوله تحت مفهوم

[1]- العياشي أدواري، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، دار الأمان الرباط، ط1، 2011، ص 95.
[2]- المرجع نفسه، ص 97.
[3]-ينظر، آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص ص55-56.

الاستلزام الحواري، فالمتكلم عند تلفظه بجملة ما قاصدا معنى جملة أخرى، يلتزم أن يفترض أن المستمع يدرك أن المعنى غير الحرفي ضروري .

وقد استفاد دارسو الحجاج من آراء غرايس لأن المحاور "يتوجه إلى غيره مطلعا إياه على ما يعتقد ويعرف، ومطالبا إياه بمشاركته اعتقاداته ومعارفه" [1].

وعندما يطالب المتكلم غيره بذلك فإن مطالبته لا تكتسي صبغة الإكراه، وإنما تتبع سبلا استدلالية متنوعة تدفع المتلقي إلى الاقتناع برأي المحاور،فيحصل بذلك الإقناع الخالص، وهذا هو غاية الخطاب الحجاجي.

تسهم الأفعال اللغوية بأدوار مختلفة في الخطاب الإقناعي، إذ يضطلع كل منها بدور محدد في الحجاج بين طرفي الخطاب، فالمرسل يستعمل هذه الآلية اللغوية قصد " إزالة شك المرسل إليه في وجهة النظر محل الخلاف."[2]

إن نجاح الجاحظ في تحقيق مقصدية خطابه مرهون باستعماله الدقيق للغة، لذلك جاءت مدوّنة " البخلاء " التي بين أيدينا حافلة بالأفعال الكلامية التي هي في جوهرها " نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري [3]، ومن أهم هذه الأفعال : الاستفهام، والأمر والنهي.

أ- الاستفهام

وهو من أنجع أنواع الأفعال اللغوية حجاجا، إذ أنّ " طرح السؤال يمكن أن يضخم الاختلاف حول موضوع ما إذا كان المخاطَب لا يشاطر المتكلم الإقرار بجواب، كما يمكن أن يلطّف السؤال ما بين الطرفين من اختلاف"[4] .

[1]- العياشي أدواري، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص 108.

[2]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 482.

[3]-مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 40.

[4]- محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال مايير، ص 399.

فالسؤال يثير نقاشا، ومن ثمة يكتسي طابعا حجاجيا، فهو وسيلة للفت انتباه المتلقين ودفعهم إلى تغيير مواقفهم أو تعديلها، ولذلك يطلق على هذا النوع من الاستفهام بالاستفهام الحجاجي، فهو نمط يستلزم تأويل القول المراد تحليله انطلاقا من قيمته الحجاجية، ويمكن القول إنّ "طاقة السؤال الإقناعية تنبني في أغلب الأحيان على الضمني لا على المصرّح به، وهو أمر تعرّض إليه ديكرو في إطار نظرية المساءلة حين بيّن أنّ الافتراضات الضمنية في بعض الأسئلة هي التي تجعل من الاستفهام أسلوبا حجاجيا "[1].

ورد في مدوّنة "البخلاء " هذا النوع من الأفعال الإنجازية، ومثال ذلك ما جاء على لسان تمام بن جعفر قال لنديمه "كيف تمشي وقد جعلت في بطنك ما يحمله عشرون حمالا ؟ وهل ينطلق الناس إلا مع خفة الأكل؟ وأيّ بطين يقدر على الحركة ؟ وإن الكظيظ ليعجز عن الركوع والسجود، فكيف بالمشي الكثير ؟ "[2].

فالاستفهام الحجاجي الوارد في هذا القول يهدف لجعل المتلقي يسلّم بصحة كلام المخاطِب ويشاركه في قناعاته المتمثلة في عدم الإفراط في الأكل لأن في ذلك خطرا على الصحة والدين،فيصير عاجزا عن الحركة بل عن الركوع والسجود، ويحمل هذا الخطاب في دلالته المضمرة معاني الاحتجاج لمذهب البخل والاقتصاد في النفقة، ويولّد لدى المتلقي الدهشة والحيرة .

ويمكن أن نمثل لهذا الفعل الكلامي بمثال آخر:

"وسكِر زُبيدة ليلة، فكسا صديقا له قميصا، فلما صار القميص على النديم خاف البَدَوات . وعلم أنّ ذلك من هَفوات السكر. فمضى من ساعته إلى منزله، فجعله برنكانا لامرأته. فلما أصبح،

[1]-سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص ص 142-143.

[2]-الجاحظ، البخلاء، ص 116.

سأل عن القميص، وتفقّده. فقيل له: إنّك قد كسوته فلانا. فبعث إليه، ثم أقبل عليه، فقال : ما علمت أنّ هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ؟ "[1].

فهذا الاستفهام الوارد في الملفوظ يمكن أن نعتبره حجة يخدم نتيجة من قبل أن الهدية لا تصح في حالة سكر،وبالتالي يجب إرجاعها لصاحبها وباستثمار الظروف والمعطيات التي تحفّ هذا الخطاب يمكننا أن نصل إلى أنّ الرجل "زبيدة بن حميد" يريد بهذا الاستفهام الحجاجي أن يستر بخله.

إنّ دور الاستفهام كفعل كلامي يتجاوز الدور المساعد في تركيب الخطاب، إذ يستعمله المتكلم في الحجاج على أساس أنه من الحجج التي يبنى عليها مدار الكلام .

ويمكن أيضا أن نأخذ " ماء النخالة " أنموذجا على ذلك، فهذه النادرة ترسم رسما دقيقا نفسية البخيل الذي يتقن اختراع الأعذار والمبررات ليجعل من النخالة زادا وحيدا له ولعياله " لم لا تطبخين لعيالنا في كل غداة نخالة ؟ فإن ماءها جِلاء للصدر وقُوتها غِذاء وعِصمة "[2].

ب- النفي:

وهو من أهم الوسائل اللغوية التي تكسب الكلام قوة حجاجية، فالنفي يدل على تعدد الأصوات "إذ يسمح للمتكلم بالتعبير المتزامن عن الصوتين المتقابلين، الصوت الذي يتبنى جانب الإثبات، وصوت المتكلم المتبني لجانب النفي، فالنفي يشير إلى إثبات ضمني يرى عليه "[3] .

وفعلا نرى ذلك ماثلا في المدونة كقول رجل مقلّ لأخ له مكثر ومفرط البخل: "ويحك، أنا فقير معيل، وأنت غني خفيف الظهر، لا تعينني على الزمان، ولا تواسيني ببعض مالك، ولا تتفرج لي عن شيء ؟ والله ما رأيت قط ولا سمعت بأبخل منك "[4].

[1]- الجاحظ، البخلاء، ص 36.

[2]- المصدر نفسه، ص 31.

[3]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 94.

[4]- الجاحظ، البخلاء، ص 195.

يعرض المتكلم في هذا القول بخل أخيه وحرصه الشديد على المال، فهولا يسخّر ما أنعم الله عليه لمساعدة من هو أقرب إليه. واستطاع النفي المتكرر على إقناع المتلقي بمذهب هذا الرجل في البخل وذلك بتصوير الأخوين في وضعيتين متضادتين أحدهما في فقر مدقع والآخر في ثراء شديد.

ج- الأمر:

لصيغتي الأمر والنهي صلة وثيقة بالحجاج " لأنهما يهدفان إلى توجيه المتلقّي إلى سلوك معيّن"[1] وهذا وفق أطروحات المتكلم ومبادئه . كما أنّ لهذين الأسلوبين قدرة حجاجية على حمل المتلقي على مشاركة المتكلم شعورا معينا .

يعدّ الأمر من الأفعال الانجازية ولكنه إنجاز ضمني لأنّه يهدف إلى توجيه المتلقي إلى سلوك معين، ويرى السكاكي أنّ "للأمر تحققات مختلفة منها صيغة "افعل" "ليفعل" "فعال" المصدر، اسم الفعل الجامد (صه – إيه – آمين ... وغيرها). يؤلف بينها شرط الاستعلاء"[2] .

فالصيغ سابقة الذكر إذا أجريت على أصلها واستعملت على سبيل الاستعلاء كانت أمرا، وفي باقي الاستعمالات تحمل مقاصد أخرى كالالتماس والدعاء والتهديد وغيرها من المعاني التي تدل عليها قرائن الأحوال.

إنّ التأويل الدلالي لأسلوب الأمر في العملية الحوارية أمر متعذر إلاّ إذا أخذنا بعين الاعتبار العناصر التداولية التالية:

أ- المقام.

ب-مبدأ التعاون.

[1]-سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 149.

[2]- العياشي أدواري، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص 35.

ج-معنى العبارة المتلفظ بها من قبل متكلم في علاقته بمستمع محدد.

ويعتبر غرايس أن العنصرين (أ) و(ج) متغيران، في حين أنّ المبدأ الثاني مبدأ ثابت وعام، وعلى أساسه تنجز كل الخطابات .[1]

ويتفرع هذا المبدأ الثابت إلى قواعد فرعية هي: قاعدة الكم والكيف والعلاقة والكيف.

ورد الأمر في مدوّنة " البخلاء"، ومثال ذلك ما حكاه أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام عن جاره المروزي "قال : ورآني مرة مصصت قصب سكّر، فجمعت ما مصصت ماءه لأرمي به . فقال : إن كنت لا تنّور لك ولا عيال، **فهبه** لمن له تنّور وعليه عيال . وإياك أن تعوّد نفسك هذه العادة في أيام خفّة ظهرك، فإنك لا تدري متى يأتيك العيال "[2].

إذا تأملنا هذا المثال نجد الفعل اللغوي **هبه** أمرا صادرا من أبو إسحاق النظام إلى جاره وهو حجة يخدم نتيجة ضمنية تتمثل في ضرورة الحرص على الطعام وهذا يعكس بخل الرجل .

د- النهي:

هو أسلوب إنشائي طلبي يكون المخاطب فيه متلبّسا بفعل ما فيطلب المتكلم منه،ويستعين المتكلم في بناء خطابه الإقناعي بهذا الأسلوب لاضطلاعه بدور هام في العملية الحجاجية، فمدار الحكم على الملفوظ لم يعدّ مرهونا بمعيار الصدق والكذب " وإنما مداره حول الأثر الذي يحدثه فعل القول في المخَاطب، فيكون فعل الإنجاز ناجحا إذا استجاب المخاطَب، واقتنع بمقاصد المتكلم، كما قد يكون فاشلا حين يعجز المتكلم عن التأثير في المخاطَب، ولا يقدر على دفعه نحو التصرف والفعل"[3] .

[1]-ينظر، المرجع السابق، ص 127.

[2]- الجاحظ، البخلاء، ص 28.

[3]-جواد ختام، التداولية أصولها و اتجاهاتها، ص 91.

ورد هذا الفعل الكلامي في نوادر الجاحظ، كقصة الثوري الذي كان يقول لعياله : " لا تُلقوا نَوى التمر والرطَب،وتعودوا ابتلاعه وخذوا حلوقكم بتسويغه. فإنّ النوى يعقد الشحم في البطن، ويدفئ الكليتين بذلك الشحم ."[1]

مثّلت صيغة النهي "لا تلقوا نوى التمر والرطب" دعوة واضحة إلى تبني جملة من القيّم وتحويلها إلى أفعال،فالثوري حريص على استغلال ما يعتقد الناس أنّه غير قابل للاستعمال، ولكي تكون دعواه مؤسسة لجأ المتكلم إلى تدعيم رأيه بالحجج ، فالنوى مفيد للبطن والكليتين، ولذلك نصح أبناءه بحمل أنفسهم على هذا السلوك.

2- السلم الحجاجي L'échelle argumentative:

اعتبر ريبول Reboul وموشلار Moeschlar في معجمهما أنّ السلّمية صفة ملازمة لعدة ظواهر ولاسيّما اللغة التي وصفت بكونها تراتبية سلّمية ." لقد وصف عدد كبير من الظواهر الدلالية و التداولية انطلاقا من خصائصها الدرجية، و تعتبر ظاهرة ما ذات خاصية درجية إذا اقتضى وصفها عنصرا له ارتباط متبادل مع عنصر آخر على الأقل"[2] فالملفوظات اللغوية تنتظم في الخطاب الإقناعي وفق العلاقات السلّمية،والفعل التأثيري للعمل الحجاجي "مشروط بحسن العرض وموصول بدقة البسط، حتى تثبت المحتويات الفكرية وترسخ القيم التصورية التي ينوي المحاج إيصالها إلى جمهوره يقنعه بها ويضمن يقينه من خلالها"[3].

ولهذا انشغل الباحثون بإدراك أهمية سلّمية الحجج في بناء الإستراتجية الإقناعية، ومن أهم هؤلاء العلماء ديكروو أنسكومبر اللّذان كان همّهما في جميع ما كتبا عن الحجاج إبراز كيف أنّ

[1]-الجاحظ، البخلاء، ص103.

[2]- جاك موشلر وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية ، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، ص293.

[3]-علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص 379.

البنية اللغوية هي التي يعود إليها سلطان الكلام الحجاجي، وبهذا حاولا هذان العالمان أن يحدثا قطيعة ابستمولوجية في دراسة الحجاج إذ يعرّفاه قائلين "إنّ المتكلم إذ يحاج إنما يقدم قولا أولا " ق 1 "أو مجموعة أقوال تقود إلى الإذعان والتسليم بقول آخر "ق2" أو مجموعة من الأقوال الأخرى "[1].

فالقول أو الأقوال المنطلق منها تكون صريحة أمّا (ق 2) أو النتيجة فقد تكون صريحة أو ضمنية، وأطرف الحجاج ما كانت النتائج فيه ضمنية، وللوصول إليها يكون الخطاب موجّها، ونقصد بالتوجيه ذاك الانتقال من وضع أول معلوم إلى وضع ثان قد يكون معلوما وغير معلوم وهو النتيجة التي يروم الباث إذعان المتلقي لها .

وبهذا التصور يبني المحاجج كلامه على إطار عام لتفاضل الحجج عبر مفهوم السلّم الحجاجي بوصفه فئة حجاجية موجهة بواسطة علامات لسانية تربط بين فعلين كلاميين داخل القول الواحد.

يوظف المتكلم حججا مختلفة، تتفاوت من حيث القوة والضعف، ويؤدي مراعاة تلك الخصائص أثناء تأدية الكلام إلى اقتناع السامع بآراء المرسل شيئا فشيئا، ويرى شكري المبخوت أنّ نظرية السّلالم الحجاجية تنطلق "من إقرار التلازم في عمل المحاجة بين القول الحجة (ق) ونتيجة (ن) ومعنى التلازم هنا هو أن الحجة لا تكون حجة بالنسبة إلى المتكلم إلا بإضافتها إلى النتيجة مع الإشارة إلى أن النتيجة قد يصرح بها وقد تبقى ضمنية " [2].

شكّلت الحجج في بخلاء الجاحظ سلالم حجاجية أسهمت في إقناع المتلقي، ويمكن أن نمثل له بقول الجاحظ في معرض حديثه عن نوادر أهل خراسان " كنت عند شيخ من أهل مرو، وصبيّ له صغير يلعب بين يديه، فقلت له إما عابثا وإما ممتحنا : أطعمني من خبزكم . قال : لا تريده،

[1] –Ducrot (O) et Anscombre (J .C), l'argumentation dans la langue, éd Mardaga, 1997, p 8.

[2] – شكري المبخوت، الحجاج في اللغة، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، ص 363.

هومر، فقلت :فاسقني من مائكم . قال : لا تريده، هو مالح ... فضحك أبوه وقال ما ذنبنا ؟ هذا من علّمه ما تسمع ."[1]

إنّ هذه الحجج لا تترتب في سلّمية حجاجية واحدة، وإنما هي مرتّبة من الأضعف إلى الأقوى لكن جميعها يخدم النتيجة نفسها، ويمكن أن نمثل لذلك بما يلي :

النتيجة : البخل طبع في أهل مرو

-**الحجة الثانية** :منع الماء عن السائلين

-**الحجة الأولى**: منع الطعام عن السائلين

وحتى يقتنع المتلقي بهذه النتيجة،نسب السارد هذه الأقوال إلى صبي،فحتى هذا الصغير جُبِل على المنع وصرف الآخرين عن الاستفادة من ما أنعم الله على أهله، فالبخل طبع فيهم وفي أعراقهم . والملاحظ أنّ الحجج التي أوردها السارد لصالح إثبات بخل الخرسانيّ لا تتوزع اعتباطا، "بل تحكمها تراتبية دقيقة من حيث القوة والضعف، تعرف بالقوة الحجاجية La force argumentative."[2]

ويمكن أن نأخذ نموذجا آخر من المدونة :

"وعبتموني حين زعمت أنّي أقدّم المال على العلم، لأنّ المال به يغاث العالم وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم . "[3]

[1]- الجاحظ، البخلاء، ص 18.

[2]-جواد ختام، التداولية أصولها و اتجاهاتها، ص 148.

[3]- البخلاء الجاحظ، ص 14.

لقد وردت هذه الأقوال في رسالة سهل بن هارون إلى محمد بن زياد وإلى بني عمه من آل زياد حين ذموا بخله وتتبعوا كلامه في الكتب، فحاول من خلال هذا الردّ أن يدافع عن مذهبه في الاقتصاد وحرصه الشديد على المال، وتترتب أقواله السابقة في السّلم الحجاجي التالي :

النتيجة : أفضلية المال على العلم

- **الحجة الثانية** : بالمال تقوم النفوس
- **الحجة الأولى** : بالمال يغاث العالم

فالمتكلم سعى جاهدا لإقناع المتلقي بكلامه، فراح يحاجج على هذه الأفضلية بتقديم الأصل على الفرع، والأصل هنا هو المال الذي بفضله تقام مصالح الناس أما الفرع فهو العلم، ففي هذا الملفوظ " يرتب المرسل الحجج التي يرى أنها تتمتع بالقوة اللازمة التي تدعم دعواه "[1].

2-1- وسائل السّلم الحجاجي :

يتحقق الحجاج بالسلّم الحجاجي بفضل الروابط والعوامل الحجاجية التي تعدّ من أهم الأدوات التي تربط بين القضايا وترتب درجاتها الحجاجية وتوجه دلالتها وجهة دون أخرى، انسجاما مع النتيجة المراد الوصول إليها .

2-1-1- الروابط الحجاجية:

اهتمّ علماء الحجاج بالروابط الحجاجية Connecteurs argumentatifs باعتبار "أنّ الوظيفة الحجاجية المتعلقة بالتأثير والموصولة بالفعل مختزلة في أشكال لفظية بسيطة كانت أم مركبة، يشغلها المحاج ليشيد بها عالمه المفترض"[2].

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 500.

[2]- علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص383.

تعتبر هذه الروابط عنصرا مهما في البناء الحجاجي للخطاب،فهي أدوات تساعد المتلقي على اكتشاف ما يعتبره الباث صحيحا، والطريف في هذا التصور هور بط العامل بالوظيفة الإقناعية، فلم يعد مجرد علامة عشوائية بل عمّاد الفعل الحجاجي.

يرى كارون Caron أنّ الدور المهم لهذه العوامل هو" توجيه الحجاج خاصة والخطاب عامة نحو نتيجة محددة وبالتالي فهي لا تصنع القضايا ولا تربط بينها ولكنها تجمع وتنسق بين الأحداث القولية "[1] فالعامل إذن يمكّن الملفوظ من الانتقال من وضع إلى وضع.

يشترك ديكرو وأنسكومبر مع ريبول وموشلار في كون العوامل الحجاجية تعمّق التوجيه وتقويه، فهي ضرورية في بناء الخطاب،من حيث أنّها تعين المتلقي على الفهم،فلا يضيع بين المفاهيم والتأويلات البعيدة، ويتحقق ذلك بفضل ما تضفيه من انسجام واتساق على الخطاب وقيادة للمستمع إلى الاتجاه الذي يريده المتكلم،فالعامل الحجاجي يستجيب لجوهر نظرية الحجاج وتحديدا ما يسمى بالحجاج التقني القائم على مفهوم التوجيه L'orientation وتبعا لذلك فهو يخدم النظرية القائلة بأن اللغة حجاجية لا إبلاغية .

يفرق اللغويون بين وسائل السلم الحجاجي، فهناك الروابط الحجاجية التي تختص بالربط بين فعلين كلاميين مختلفين، أي التأليف بين قضيتين أو أكثر كقولنا لم يجتز الامتحان **لأنه** مريض، وهناك العوامل الحجاجية التي تختص بالجملة كلها، أي الربط بين وحدتين دلاليتين داخل الفعل الكلامي نفسه كأساليب النفي والحصر .

[1]-عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص 25 .

أ- **الرابط الحجاجي لكن**

ويفيد معنى الاستدراك، والذي يعني في النحو العربي "أن تنسب حكما لاسمها يخالف المحكوم عليه قبلها، كأنك لما أخبرت عن الأول بخبر فخفت أن يتوهم من الثاني مثل ذلك فتداركت بخبره، إن سلبا وإن إيجابا، ولذلك لا يكون إلا بعد كلام ملفوظ به أو مقدر "[1].

يربط الرابط "لكن" بين حجتين متفاوتتين، تكون الحجة الأولى موجهة نحو نتيجة معينة (ن) والحجة الثانية موجهة نحو النتيجة المضادة لها أي (لا – ن)، ويشترط أن تكون الحجة الثانية هي الحجة الأقوى حتى تستطيع توجيه الخطاب نحو ما يريده الباث .

ونمثّل لذلك من مدونة "البخلاء" بقول الجاحظ من أعاجيب أهل مرو في البخل حيث زعموا "أنهم ربما ترافقوا وتزاملوا، فتناهدوا وتلازقوا في شراء اللحم، فإذا اشتروا اللحم قسّموه قبل الطبخ، وأخذ كل إنسان منهم نصيبه، فشكّه بخوصة أو خيط، ثم أرسله في خل القدر والتوابل ... وليس تناهدُهم من طريق الرغبة في المشاركة و**لكن** لأن بضعة كل واحد منهم لا تبلغ مقدار الذي يحتمل أن يطبخ وحده "[2] .

ثمة تعارض بين ما يتقدم الرابط وما يتلوه، فالقسم الأول يتضمن حجة تخدم النتيجة من قبيل (المشاركة الجماعية في تحضير الطعام) في حين يخدم القسم الثاني النتيجة المضادة (الاستفادة الفردية من هذا العمل الجماعي)، وبما أنّ الحجة الثانية أقوى من الحجة الأولى فإنها ستوجه القول نحو النتيجة الثانية .

[1]- المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، ص 615.

[2]- الجاحظ، البخلاء، ص 23.

ويمكن تمثيل هذه الأقوال بالسلّم الحجاجي الآتي :

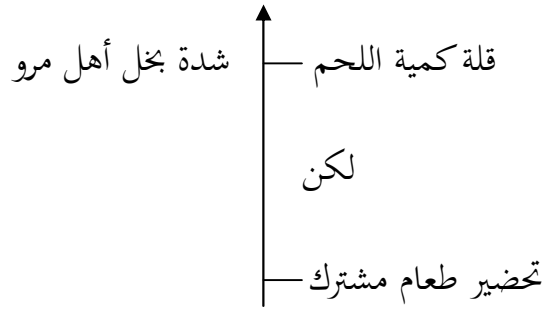

ولتوجيه الملفوظ نحو هذه النتيجة،يتم ترتيب الحجة بعد "لكن" في أعلى درجات السلّم الحجاجي لتقنع المتلقي ببخل أهل خراسان وخاصة أهل مرو.

ب- الرابط الحجاجي حتى

يساعد هذا الرابط الحجاجي في الخطاب الإقناعي على تقوية تسليم المتلقي بالنتيجة التي يتوخى المتكلم توصيلها، فهو كباقي وسائل السلّم الحجاجي، يرسم للمتلقي "صورة المسلك الذي ينبغي عليه أن يقطعه للوصول إلى النتيجة وهو في أثناء ذلك كله يقوّي النتيجة التي يروم الملفوظ إيصالها "[1].

إنّ ما يسبق "حتى" وما يليها يجب أن تحكمه علاقة الجزء بالكل وهنا يظهر مفهوم التراتبية، فما يأتي قبلها أضعف أثرا في إيصال النتيجة في حين أن ما يليها أقوى نجاعة في الحجاج .

تظهر عملية التقوية للحجة في حركة التوجيه الذي تقوم به "حتى" في إخراج الملفوظ من العام إلى الخاص ومن الكل إلى الجزء، ولا يتحقق ذلك إلاّ بفضل الوحدات المعجمية التي تسبق العامل والتي تليه .

[1]- عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص 134.

يساهم الرابط "حتى" في ترتيب الحجج داخل القول الذي يخدم نتيجة واحدة،وورد هذا الرابط الحجاجي في مدونة "البخلاء"، كقول الجاحظ "كان تمام بن جعفر بخيلا على الطعام، مفرط البخل. وكان يقبل على كلّ من أكل خبزه بغير علّة، ويطالبه بكلّ طائلة، وحتى ربما استخرج عليه أنه كان حلال الدم . "[1]

فهذا الرابط يربط بين ثلاثة حجج هي :

- يقبل على كل من أكل خبزه.
- يطالبه بكل طائلة .
- يستبيح دمه .

وكلها تخدم حجة واحدة هي بخل تمام بن جعفر وحرصه على الطعام .

ويمكن أن نمثّل لهذا المسار الحجاجي بالسلم الحجاجي الآتي :

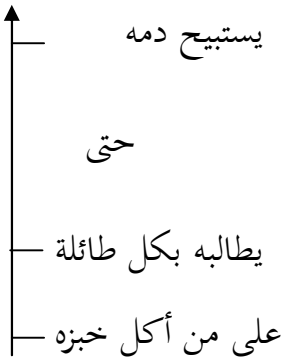

[1]-الجاحظ، البخلاء، ص 116.

ج- الرابط الحجاجي بل:

وهو من أهم الروابط التي تساهم في إنشاء السلم الحجاجي وتمييز ضعيف الحجج من قويّها،فهذا الرابط الحجاجي يوصل إلى النتيجة بأيسر السبل، ويرى المرادي أنّ هذا الرابط إن وقع بعد جملة كان إضرابا عمّا قبلها، وإذا وقع بعد "بل" مفرد فهي حرف عطف يفيد الإضراب نحو ما قام زيد بل عمرو،ففي هذا المثال قررت نفي القيام لزيد، وأثبته لعمرو[1].

إنّ لهذا الرابط قيمة حجاجية، فهو يظهر الاتجاه الذي يأخذه الملفوظ في سبيل الوصول إلى قسم من النتائج، و"يعطي للملفوظ الحجة مكانها من السلم، ويسوغ لها أن تكون مفضية إلى النتيجة."[2]

وهذا ما نراه ماثلا في خطاب الجاحظ في مدوّنة "البخلاء" كقول أبي العاص بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي في رسالته "ما رأينا عربيّا سفّه حلم حاتم بجوده بجميع ماله، ولا رأينا أحدا منهم سفّه حلم كَعب على جوده بنفسه. **بل** جَعلوا من كعب لإياد مفخرا، وجعلوا ذلك من حاتم لطيء مأثرة، ثم لعدنان على قحطان، ثم للعرب على العجم، ثم لسكان جزيرة العرب، ولأهل تلك التربة على سائر الجزائر والترب"[3].

ففي هذا القول صاغ المترسل حججه بتكرار النفي تمّ الإضراب عمّا سبق بـ "بل" التي تنسف كل حكم سابق قبلها، وتؤكد ما يليها، " والمهم هنا هو أنّ الحجج لا تتساوى ولكنها تترتب في درجات قوة وضعفا ومأتى هذا الترتيب هو أنّ الظواهر الحجاجية تتطلب دوما وجود طرف آخر تقيم معه علاقة استلزام " [4].

---

[1]-ينظر، المرادي، الجني الداني في حروف المعاني، ص ص235-236.

[2]- عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص 146.

[3]- الجاحظ، البخلاء، ص158.

[4]- شكري المبخوت، الحجاج في اللغة، ص 364.

ويمكن أن نصوغ بعض الحجج الواردة في القول السابق في السلم الحجاجي الآتي :

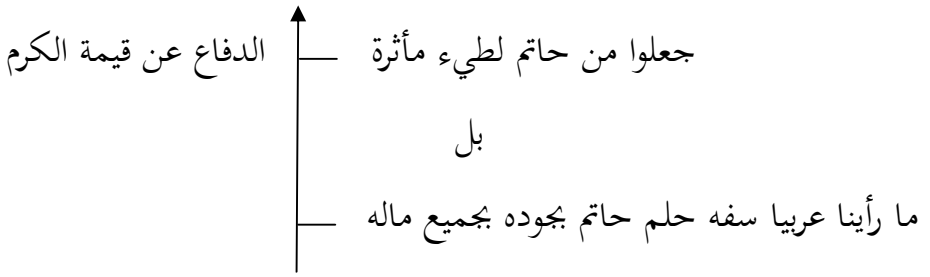

فكلها يخدم نتيجة فضل الكرم والسخاء في رفع شأن صاحبه وقومه، ويلعب هذا الرابط الحجاجي دورا في صيانة رتبة الحجة في المسار الحجاجي .

2-1-2- العوامل الحجاجية

إن العامل الحجاجي، خلافا للرابط الحجاجي، لا يربط بين متغيرات حجاجية (بين حجة ونتيجة أوبين مجموعة حجج ..) ولكنّه " يقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية لقول ما "[1].

أ- أدوات النفي:

النفي عامل حجاجي "يحقق به الباث وظيفة اللغة الحجاجية المتمثلة في إذعان المتقبل وتسليمه عبر توجيهه بالملفوظ إلى النتيجة ن"[2]، ولا يمكن إدراك عاملية النفي الحجاجية إلاّ بإدراك النتيجة التي يريد الباث الوصول إليها، فالنفي في حقيقته "تلفظ على تلفظ فهوت وجيه على توجيه لذلك بمجرد إدماج عامل النفي تتحدد النتيجة "ن" بسرعة ولا يجد المتقبل حرجا أوكد ذهن في إدراك المفهوم "[3].

[1]-أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص 56.

[2]- عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص 47.

[3]- المرجع نفسه، ص 50.

يحدّد النفي منزلة الملفوظ من السلّم الحجاجي، فالمتكلم يستعمله في الخطاب الإقناعي ليعارض به آراء خصومه،وهذا ما يحقق نجاعة الخطاب الهادف لتغيير أفكار السامع وسلوكاته .

كان لهذا العامل الحجاجي حضورا في المدونة المدروسة،ومنه ما ورد على لسان محفوظ النقّاش الذي صحب الجاحظ من مسجد الجامع ليلا، ودعاه ليبيت عنده،ولما أحضر له الطعام،حذّره من تناوله،وقال " والله وقد وقعتُ بين نابي أسد. لأني لو جئتك به، وقد ذكرته لك، قلت :بخل به،وبدا له فيه، وإن جئتك به، ولم أحذّرك منه،ولم أذّكرك كلّ ما عليك فيه،قلت : **لم** يُشفق عليّ و**لم** ينصح"[1]، فالنفي في هذا القول يحمل نتيجة مضمرة تتمثل في محاولة البخيل إخفاء حرصه على الطعام .

ب- أدوات القصر والإستثناء:

ومن أهم أنواعها :

- **القصر ب (ما وإلاّ)، (لا وإلاّ):**

وهو من الوسائل اللغوية المحقّقة للوظيفة الحجاجية، فدخولها على الملفوظ من شأنها أن تخرجه من الإبلاغ إلى التأثير في المتلقي،فتوجه الخطاب نحو نتيجة محدّدة يريد المتكلم تسليم السامع بها .

إنّ أسلوب القصر من أهم أدوات السلّم الحجاجي، وهو صورة من صور التراكيب التي تأتي للإثبات والتخصيص، ويوجه أسلوب القصر إلى ثلاثة أصناف من المخاطبين[2] :

- مخاطب يعتقد رأيا مخالفا.
- مخاطب شاك في الرأي المقدم له.

[1]-الجاحظ، البخلاء، ص ص123-124.

[2]-فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، دار الفرقان الأردن، ط 8، 1997، ص 364.

- ومخاطب يعتقد الشركة بين اثنين أوأكثر في الحكم

ويكون القصر بأربعة طرق :

- القصر بإنّما.
- القصر بالنفي والاستثناء (لا ... إلا / ما ... إلا).
- القصر بالعطف بالأدوات (لا، بل، لكن).
- والقصر بتقديم ما حقه التأخير .

إنّ النفي والإستثناء (لا ... إلاّ / ما ... إلاّ) من العوامل الحجاجية المهمّة، وإلاّ هذه ليست استثناء " وإنما هي مسبوقة بنفي، فهي أداة قصر، ووظيفتها قصر ما قبلها على ما بعدها، والقصر توكيد وإيجاب أبدا . "[1]

وبالرجوع إلى المدونة، نجد هذا العامل الحجاجي ماثلا في خطاب الجاحظ كنقله لوصايا أبي عبد الرحمن لابنه يقول : " أي بنيّ، قد بلغت تسعين عاما ما نغض لي سن، ولا تحرّك لي عظم، ولا انتشر لي عَصب، ولا عرفت دَنين أذن ولا سيلان عين ولا سلس بول، ما لذلك علة إلاّ التخفيف من الزاد "[2].

استعمل الجاحظ العامل (ما ... إلاّ) لإقناع المتلقي ببخل أبي عبد الرحمن، فهو في هذا الملفوظ يرسم لابنه سبيل الحياة وطريق الصحة ،ويعتبر أن سلامة البدن وطول العمر لا يتم تحصيلهما إلا بالتخفيف من الزاد والاقتصاد في الأكل ،و هنا يكتشف المتلقي الحجج الواهية التي يستند عليها البخيل لتبرير أفعاله.

[1]- مخزومي المهدي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت لبنان، ط2، 1986، ص 240.
[2]- الجاحظ، البخلاء، ص ص 110-111.

والأمر ذاته في أسلوب القصر (لا ... إلاّ) الذي ورد في عدة مواضع من المدونة المدروسة كقول الجاحظ: أنّ البخيل لا يأكل اللحم إلا يوم أضحى أو يكون في عرس أو دعوة .

فالجاحظ في هذا القول يحتج لبخل أبي عبد الرحمن، ولإقناع المتلقي بسلوكه الغريب استعان بأسلوب القصر لنقل حرص الرجل على الاقتصاد في الإنفاق إلى حدّ إثارة دهشة المتلقي،فهولا يقتني اللحم إلاّ في المناسبات .

وكذلك في قوله : " عليك يا أبا عثمان بالمثلثة، واعلم أنّها لا تكون إلاّ في منازل المشيخة وأصحاب التجربة،فخذها من حكيم مجرب ومن ناصح مشفق ."[1]

فالعامل (لا ... إلا) ساهم في توجيه القول نحو التأكيد عل مذهب البخل والتوصية به .

- **القصر بإنّما:**

وهي من بين طرق القصر،وخصّها الجرجاني في الدلائل بالذكر أكثر من مرة إذ يقول : "اعلم أنّها تفيد في الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيء، ونفيه عن غيره، فإذا قلت إنّما جاءني زيد عقل منه أنّك أردت أن تنفي أن يكون الجائي غيره. فمعنى الكلام معها شبيه بالمعنى في قولك جاءني زيد لا عمرو" [2].

فالأداة "إنّما" توجه الملفوظ نحو نتيجة محدّدة، فالجائي كما قال الجرجاني ليس إلاّ زيد،وهذه هي النتيجة التي يروم الباث إيصالها للمتقبل .

ونلفت الانتباه إلى الاختلاف بين استعمال العاملين الحجاجيين (ما ... إلاّ) و"إنّما" حيث أكدّ عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز أنّهما لا يكونان سواء، فليس كل كلام يصلح فيه

[1]- الجاحظ، البخلاء، ص42.

[2]-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 335.

"ما... إلا " يصلح فيه" إنّما "، فالظروف المحيطة بعملية التلفظ هي التي تحدد الاستعمال المناسب، والمتلقي "لا يفتأ يلجأ إلى القيود السياقية والمقتضيات المقاصدية، والمبادئ الخطابية من أجل استخلاص اللوازم التي تخدم إدراك الفائدة الإخبارية والغرض التواصلي من هذا القول "[1].

لا يمكن فهم وظيفة هذا العامل الحجاجي إلّا بربطه بفكرة المواضع باعتبارها دعامة رئيسية وقارة تؤكد حجاجية الملفوظ،فالموضع "فكرة مشتركة مقبولة لدى جمهور واسع وعليها يرتكز الاستدلال في اللغة "[2].

يعتبر الرابط " إنّما " من أهم أدوات السلّم الحجاجي، وهو يأتي إثباتا لما يذكر بعده ونفيا لما سواه، وهذا ما نراه ماثلا في خطاب الجاحظ في هذه المدوّنة، كقوله: "حدثني المكيّ قال : بتّ عند إسماعيل بن غَزوان – وإنّما بيّتني عنده حين عَلم أني تعشّيت عند مويس" [3] فالحجة التي تمّ إيرادها بعد الرابط "إنّما" وجّهت الملفوظ نحو تأكيد بخل إسماعيل بن غزوان، فهو لم يقدم على استضافة الرجل إلاّ حين علم أنّه قد تعشى عند غيره .

والأمر ذاته في قول الجاحظ "حدثني أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام قال : قلت مرّة لجار كان لي من أهل خراسانٍ : أعرني مِقلاكم فإني أحتاج إليه. قال : قد كان لنا مِقلى ولكنّه سرق فاستَعرت من جار لي آخر. فلم يلبث الخراسانيّ يسمع نشيش اللحم في المقلى، وشّم الطّباهج، فقال لي كالمغضب: ما في الأرض أعجب منك، لو كنت خبرّتني أنّك تريده لِلَحم أو لِشحم لوجدتني أسرع إليك به، إنمّا خشيتك تريده للباقي، وحديد المقلى يحترق إذا كان الذي يقلى فيه ليس بدسم، وكيف لا أعيرك إذا أردت الطباهج، والمقلى بعد الردّ من الطباهج أحسن حالاً منه وهو في البيت[4].

[1]–طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 90.

[2]–شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ص 380.

[3]– الجاحظ، البخلاء، ص 130.

[4]–المصدر نفسه، ص 23.

لجأ البخيل إلى الكذب حتى لا يعير مقلاته لجاره، لكنه لما علم أنّ جاره أراد أن يستعملها لِلَحم،غيّر موقفه، وأخبره أنه لو أعلمه بذلك لما تردّد في منحها إياه، واستطاعت المؤشرات الحجاجية أن تنقل الدعوى التي كان يعرضها الخرسانيّ ويدافع عنها، ولو تأملنا الحجة التي جاءت بعد الرابط "إنّما " لتبين لنا أنها توجه الملفوظ نحو تبرير تصرف البخيل .

3- الوسائل البلاغية:

سعت البلاغة الجديدة إلى إعادة الصور إلى المجال الحجاجي، فحاولت جاهدة لتحليل وظيفتها الإقناعية والوقوف على تأثيرها في المتلقي، ويعدّ برلمان من الّذين أشاروا إلى علاقة الصورة بالحجة،فأسّس بذلك اتجاها جديدا في البحث عن بلاغة الإقناع في الصور، منطلقا من المطابقة بين البلاغة والحجاج كما يشير إلى ذلك عنوان الكتاب الضخم الذي اشترك في تأليفه مع تيتيكاه.

إنّ لهذا الإجراء أهمية بالنسبة لهذا التوجه الجديد "ذلك لأن كل ما اعتدنا اعتباره بلاغة في خطاب ما، وخاصة صور الأسلوب، سيفسر باعتباره حالة خاصة من أحوال الحجاج. مثال ذلك السخرية... إنّ السخرية حجة في حد ذاتها، وكذلك الاستعارة، إنها استدلال قائم على المقايسة المكثفة.. الخ. وبالمثل فالبلاغة لم تعد لباسا خارجيا للحجاج، بل إنها لتنتمي إلى بنيته الخاص " [1].

ولم تكن الصور تشغل ذهن برلمان في حدّ ذاتها، وإنما دلالتها الحجاجية، ولذلك قام بإدماجها في أبواب الحجج، فالاستعارة القائمة على آلية التماثل أدرجها ضمن الحجج التي تؤسس للواقع، وصور المبالغة المبنية على التجاوز أدرجها ضمن الحجج القائمة على بنية الواقع، والسخرية القائمة على عدم الاتفاق جعلها ضمن الحجج شبه المنطقية. "وعلى هذا النحو نثر برلمان صور الأسلوب في مختلف أصناف الحجج التي شكّلت خطاطته الحجاجية " [2]

[1]-محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 216.

[2]-ينظر، محمد مشبال، بلاغة صور الأسلوب وآفاق تحليل الخطاب، ص ص 110-111.

ثمّن برلمان الوظيفة الحجاجية للصوّر على حساب وظيفتها التخييلية، لكنّ أوليفي ريبول Riboul لم يهمل دور البعد الجمالي للصور في رسم التجليات الحجاجية، فاعتبر أنّ المظهر الأسلوبي للصورة لا يولد المتعة فقط، بل يسهم في تمرير الحجة وتسهيلها " فالصورة عنده هي المتعة الأسلوبية لتمرير الحجة" [1].

ويقرّ بارك بونوم Barc Bonhomme هذا الدمج الحاصل بين الوظيفة الحجاجية والوظيفة الأسلوبية في مختلف الخطابات، ويعتبر أنّ الصوّر البلاغية تتجاوز مجال الأسلوب إلى مجال الإيجاد، منطلقا من التقارب بين الصور وبين المواضع البلاغية عند أرسطو" فهناك علاقة التقارب بين موضع التشابه وبين الاستعارة، وبين موضع الأضداد وبين الطباق، وبين موضع الأجزاء وبين المجاز المرسل "[2] وبهذا التصور فالعديد من الصور التي تنتمي إلى التنويعات الأسلوبية يمكن اعتبارها مواضع أو حججا.

تركز بلاغة الإقناع على الطاقات الحجاجية التي تحتوي عليها الأساليب البلاغية،فالصور تنشط الخيال، وإضافة إلى ذلك، تحمل أبعادا استدلالية تقوّي نظام الخطاب وتساهم في إقناع الجمهور، ولذلك يمكن القول :إنّ في الحجاج بلاغة وفي البلاغة حجاجا، وهو ما يجعل العلاقة بين الخطابين علاقة اتصالية قائمة على التفاعل، فالبلاغة والحجاج متلازمان في أي خطاب يرمي إلى الإقناع .

لا يعتمد الحجاج على المعاني الصريحة فقط،فالمعاني الضمنية التي يحملها الخطاب تؤثر أيضا على أفكار المتلقي وسلوكاته، فالإقناع هو لعبة المعنى بين الظهور والخفاء " وأطرف الحجاج وأنجعه ما

[1]-المرجع السابق، ص 111.
[2]-المرجع نفسه، ص 113.

كان المعنى فيه يتراوح بين الظهور والخفاء . وشأن التشبيه كشأن الاستعارة . فهي على درجات من القوة والضعف . "[1]

تكمن أهمية الوسائل البلاغية فيما توفره للقول من جمالية قادرة على تحريك وجدان المتلقي والفعل فيه " فإذا انضافت تلك الجمالية إلى حجج متنوعة وعلاقات حجاجية تربط بدقة أجزاء الكلام، وتصل بين أقسامه أمكن للمتكلم تحقيق غايته من الخطاب أي قيادة المتلقي إلى فكرة ما أو رأي معين ومن ثمة توجيه سلوكه "[2].

فالجمال يوشي المعنى ويحفظ له رونقه ويساهم أيضا في تدعيم الفعل وإحداث التأثير وتحقيق الإقناع، ولذلك استفادت النصوص الحجاجية من هذه الميزة، وعليه تنوعت الوسائل البلاغية الموجودة في بخلاء الجاحظ من تشبيه إلى استعارة إلى استخدام صور البديع بأنواعه .

3-1- التشبيه:

وهو من أهم الصوّر البلاغية الموجودة في مدوّنة "البخلاء"، واستعان الجاحظ بهذه الوسيلة البلاغية لطاقتها الحجاجية الكبيرة وقدرتها على إثارة المتلقي وإقناعه، والتشبيه يحمل طاقة حجاجية من جهة أنه يمثل ضربا من القياس، يقود المتلقي إلى التسليم بالنتيجة، فقوة هذه الصورة تتأتى من قدرتها على "التقريب بين عنصرين من نظامين مختلفين مع محاولة جاهدة لطمس ما بينهما من فروق"[3].

ولو أجيز لنا أن نضع أصناف التشبيه ضمن سلّم من الأضعف إلى الأقوى لتحصلنا على السلم التالي :

---

[1]- عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص 128.

[2]-سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري، بنيته وأساليبه، ص 120.

[3]-المرجع نفسه، ص 253.

[1]

يعتبر التشبيه من أبرز الصور البيانية تواترا في نصوص النوادر، فهو يشكل القاعدة الأساس في بنائها الفني حيث " يعدّ في كثير من نصوص النوادر صورة وحجّة معا "[2].

ومن التشبيهات التي وردت في هذه المدونة المدروسة، تشبيه شراهة الأسواري عند الأكل بمجموعة من الصور المختلفة، يقول الجاحظ "ما رأيته قطّ إلاّ وكأنه طالب ثأر، وشَحشَحان صاحبُ طائلة .وكأنه عاشق مغتلم أو جائع مقرور. "[3] لقد وردت هذه التشبيهات متوالية،فشبّه هذا الرجل في طريقة أكله بطالب ثأر أو جائع مقرور أو عاشق مغتلم، وذلك لنقل صورة إقباله الشديد على الطعام وشراهته العجيبة، ويبدو أن هذه التشبيهات بعيدة عن البال لذلك كانت أروع للنفس، وأدعى إلى إعجابها، ولذلك اضطلعت هذه الصورة بوظيفة فنية وبلاغية تولد الفكاهة والهزل، واستطاع هذا النوع من التصوير الدقيق أن ينقل شدة شره البخيل وخروجه في ذلك عن المألوف، ولذلك اعتبر الجاحظ من الّذين ولعوا بالتصوير اللغوي "وكأنه أبى الإذعان لفكرة عجز اللغة عن تمثيل الأشياء، فمضى يغالب هذا العجز معتصرا ما تختزنه اللغة من طاقة تصويرية كفيلة بمضاهاة الرؤية

[1]-ينظر، عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص 128.

[2]- سليمان الطالي، بلاغة النادرة في الأدب العربي، ص 123.

[3]- الجاحظ، البخلاء، ص 80.

العيانية"[1] فوظّف كلّ ما تتوفر عليه الكلمات من قيم تعبيرية وطاقة إيحائية في رسم الأفعال الحركية المميزة للبخيل المثيرة للتندر والاشمئزاز، ولم يهمل الجاحظ توظيف سمة السرد في هذا الخطاب الساخر لتحقيق الطرافة، فكان الإخبار في نوادره ملتبسا بالتخييل،فضمن بهذه الخصائص النوعية تسلية القارئ وإفادته.

ونضرب مثالا آخر من المدوّنة يظهر حجاجية التشبيه،ويتمثل في ما قام به علي الأسواري حين شارك عيسى بن سليمان بن علي في الطعام " وكان عيسى ينتخب الأَكَلَة، ويختار منهم كلّ منهوم فيه ومفتون به . فلما خاف عليّ الأسواريّ الإخفاق، وأشفق من الفَوت – وكان أقربهم إليه عيسى – استلَب من يده اللّقمة بأسرع من خَطفَة البازي وانكِدار العُقاب "[2]

فعقد الصلة بين سرعة استلاب اللقمة وخطفة البازي وانكدار العقاب يهدف إلى الإحتجاج على بخل الرجل وحرصه الشديد على الطعام .

3-2-الاستعارة:

وهي من أهم الوسائل والآليات اللغوية التي تؤدي دورا بارزا في الإقناع والتأثير، فالمخاطب يوظفها في كلامه ليغير الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي، وهولا يلجأ إليها إلا لثقته بأنها أبلغ من الحقيقة حجاجا،ولذلك اعتبرت من الصور البلاغية التي تحمل طاقة إقناعية كبيرة، فهي إذن من الوسائل التي يتصرف المتكلم فيها " لنقل رسالته، وعقد الحوار، والاتصال مع المتلقي . "[3]

ويعود الفضل إلى الباحث برلمان Perelman في إخراج الاستعارة من حقل الدراسات البلاغية الكلاسيكية التي كانت تعتبر الاستعارة مجرد صورة بيانيّة تخدم الجانب الفني الجمالي إلى حقل البلاغة

[1]-محمد مشبال، بلاغة النادرة،دار جسور للطباعة و النشر و التوزيع، المغرب، ط2، 2001، ص 23.

[2]- الجاحظ، البخلاء، ص69.

[3]-رابح بوحوش، اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري، دار العلوم للنشر والتوزيع، 2006، ص 152.

الجديدة التي تركز على الوظيفة الحجاجية للاستعارة ومدى مساهمتها في الإقناع . ورغم هذا المنجز الغربي إلّا أنّنا نجد الإرهاصات الأولى لهذه النظرية عند البلاغيين العرب القدامى فالجرجاني يعتبر أن "التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها ... فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم ... وإن كان حجاجا كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهر " [1].

إن هذا الدور المهم للاستعارة جعل البلاغيين الجدد يعتبرونها من أهم وسائل الإقناع، لما لها من طاقة وقدرة على استمالة المتلقي، فقد أصبحت " مقوّما حجاجيا بل برهانيا لا غنى عنه في مجال الإنسانيات، واحتلت مكانا مرموقا فيه "[2].

تقوم الاستعارة على الانزياح بين المستعار والمستعار له، إذ بقدر ما تتسع الهوة بينهما وتخفت المشابهة وتتضاءل بقدر ما تسمو الاستعارة، وتؤثر على المتلقي وتجعله يسلّم بالنتائج التي يسعى المحاجج للدفاع عنها.

استعانت نوادر "بخلاء" الجاحظ بالاستعارة التي كانت "تنحو نحو المبالغة والإغراب والتباعد بين المستعار والمستعار له لتوليد الهزل والتهكم والسخرية"[3] فهي مبنية على المفارقة والتضاد والتناقض، ومن نصوص المدونة التي تنبني فيها الصورة البلاغية على الاستعارة :النادرة التي قال فيها الأعرابيّ" حين قيل له: لم تبدأ بأكل اللحم الذي فوق الثّريد ؟ قال : لأنّ اللحم ضاعن والثريد مقيم."[4]

استعار الأعرابي للحم والثريد أفعالا وسلوكات إنسانية حملتها لفظتي ضاغن ومقيم، والضاغن هو الراحل الذي لا يستقر، وبقصد به اللحم الذي يتسارع الآكلون لالتهامه في مكان واحد، أمّا

[1]-عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1991، ص 115.
[2]-محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، منشورات دار الأمان، ط 1، الرباط المغرب، 2005، ص 458.
[3]-سليمان الطالي، بلاغة النادرة في الأدب العربي، ص 126.
[4]-البخلاء، الجاحظ، ص ص127-128.

المقيم فهو الذي يلزم مكانا واحدا يسكنه ولا يبرحه،ويقصد به الثريد الذي ليس للآكلين إقبال عليه. إن هذه الصورة البلاغية تضطلع بوظيفة حجاجية واضحة تتمثل في إقناع المخاطب بمشروعية سلوكه.

ونورد مثالا آخر عن حجاجية الاستعارة في بخلاء الجاحظ، يتمثل في قول البخيل:" أجهز على الجرحى ولا تعرض للأصّحاء"[1]. حيث تمّ " تشبيه الدجاجات المقتطعة بالجرحى والسليمة من القطع بالأصحاء" [2] ولا يمكن فهم هذه الاستعارات إلاّ بإدراك المقام التلفظي، فالأمر هنا يتعلق بمقام بلاغي حجاجي يؤدي فيه التعبير المجازي ما لا يستطيع تأديته التعبير الحقيقي، فهولا يروم مجرد الإخبار، بل غرضه إدانة البخيل.

3-3-البديع:

يستعمل المرسل في الخطاب الحجاجي أشكالا لغوية كثيرة، لا يقف دورها عند الوظيفة الشكلية،بل يسهم في عملية الإقناع، ولذلك لا يقتصر أثر أساليب البديع في الكلام على زخرفة الخطاب،وإنّما تضطلع بوظيفة إقناعية "والبلاغة العربية مليئة بهذه الصور والإمكانات، ومليئة بالشواهد التي تثبت أن الحجاج من وظائفها الرئيسية، وليس وجودها على سبيل الصنعة في أصلها، وإن كان لا يمنع المرسل من أن يبدع كيفما شاء . "[3]

استعانت المدونة بهذه الآلية اللغوية في بناء الخطاب،ونرى ذلك ماثلا في رسالة سهل بن هارون حيث اعتمد فيها على أسلوب قائم على تقسيم العبارات إلى مقاطع متوازية ومعادلة الألفاظ بعضها مع بعض، إذ تزدوج أكثر من جملة أو عبارة في نسق منتظم يتراوح بين الإطناب والإيجاز والمساواة بحسب ما يقتضيه المقام "وليس من أصل الأدب، ولا في ترتيب الحكم، ولا في عادات

[1]-البخلاء، الجاحظ، ص 44.

[2]-عبد الواحد التهامي، بلاغة الهزل في نثر الجاحظ، ص 52.

[3]-عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 498.

القادة، ولا في تدبير السادة أن يستوي في نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب، والناعم من كل فن واللباب من كل شكل، والتابع والمتبوع والسيّد والمسُود ... "[1].

لقد عمد سهل توظيف هذا الأسلوب البلاغي لما يحمله من قيمة حجاجية، إذ أحدث تغييرا في الرؤية وحقق إذعان المرسل إليه لمضمون الخطاب .

ونجد المستوى البديعي حاضرا أيضا في باقي نصوص المدونة كاعتماد أبي العاص على ذلك في رسالته. يقول : "إن الله جواد لا يبخل، وصَدوق لا يكذب، ووفيّ لا يغدر، وحليم لا يعجل، وعدل لا يظلم . وقد أمر بالجود ونهانا عن البخل، وأمر بالصدق ونهانا عن الكذب، وأمرنا بالحلم ونهانا عن العجلة وأمرنا بالعدل ونهانا عن الظلم، وأمرنا بالوفاء ونهانا عن الغدر، فلم يأمرنا إلا بما اختار لنفسه، ولم يزجرنا إلا عمّا لم يرضه لنفسه"[2].

يعمد المتكلم إلى حشد مجموعة من المقابلات بين الأضداد التي هي منتقاة من صفات الله الحسنى، فمن خرج منها فهو مذموم، والغرض من إيراد هذا الصنف من البديع هو الإقناع في وضعية تخاطبية تنتمي إلى المناظرة،فالمدعّي يهدف إلى ذم البخل ومدح الجود ومنع قريبه "الثقفي" من الانصراف إلى البخلاء الذي اشتهروا بتصرفاتهم الدخيلة عن المجتمع العربي الأصيل .

وعليه لا يمكن أن نقف عند دور البديع في مثل هذه الملفوظات إلاّ باستثمار الأبعاد التداولية المحيطة بها، فأبو العاص يتجه إلى إبطال أقوال وأفعال البخلاء، فهذه المناظرة قائمة على طرفين هما : الكريم (أبي العاص) والبخيل (الثقفي وأعوانه) .

ونورد مثالا آخر على الطباق الذي هو الجمع بين الضدين أو بين الشيء وضده، وهو يضطلع في نوادر بخلاء الجاحظ بوظيفة الحجاجية، مثل ما يقوم به في النادرة التي بطلتها معاذ

[1]-الجاحظ، البخلاء، ص11.

[2]-المصدر نفسه، ص 156.

العنبرية، فقد أهدى لها ابن العم أضحية، فصارت كئيبة حزينة، مفكرة مطرقة فلما سئلت عن ذلك أجابت " خفت أن يضيع بعض هذه الشاة،ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أماكنها . وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئا لا منفعة فيه . ولكن المرء يعجز لا محالة . ولست أخاف من تضييع **القليل** إلا أنه يجرّ تضييع **الكثير**. "[1]

يتجلى الطباق بين كلمتي (القليل/ الكثير)، وهما متضادتان في المعنى، ولا يمكن أن نفهم قيمة هذا التضاد وما يحمله من فكاهة وهزل إلاّ بربطه بالسياق العام للملفوظ.

4- السخرية آلية حجاجية:

4-1 تحديد مصطلح السخرية:

يعود مصطلح السخرية (ironie, irony) في الفكر الغربي إلى الأصول الإغريقية، فقد استخدمها سقراط في كلامه عندما كان يدافع عن فكرة الحقيقة وفكرة العدالة ضد غرور السفسطائيين، ولذلك انطوت السخرية عنده على خصوصية المظهر الخادع وإمكانية الضحك، فكثيرا ما كان يطرح الأسئلة على مستمعيه كما لو كان يريد منهم أن يعلموه ولكنه في حقيقة الأمر يريد أن يربح المعركة وينزع الثقة من الخصم، وهنا يكمن بعدها البلاغي،" وإذا كانت السخرية في المرحلة الإغريقية قد انبثقت من فيض الحوارات الفلسفية وارتبطت أساسا بالبعد الأخلاقي الهادف إلى إدانة القيم الخاطئة وإعادة النظر في السائد من الأفكار المتداولة، فإنّها في المرحلة الرومانية ستصبح أحد محاور اهتمام الحقل البلاغي "[2] .

[1]-الجاحظ، البخلاء، ص33 .

[2]- أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب، ص 26.

أمّا إذا رجعنا إلى البلاغة العربية القديمة، فإنّنا نجد أن مفهوم السخرية يتقاطع مع مصطلحات بلاغية كثيرة، ولعل من أهمها : الهزل، الاستهزاء، التهكم، الهجاء في معرض المدح، التعريض، أسلوب الحكيم، نفي الشيء بإيجابه، فضلا عن كلمة سخرية نفسها .

تقوم السخرية على مكونين أساسيين هما :[1]

أ- مكون انفعالي : يتجلى في الاستخفاف المشتمل على الضحك أو على الإستهجان أو مجرد الإحساس بالمفارقة .

ب- مكون بنائي : يتجسد من خلال المفارقة الدلالية وما يترتب عنها من غموض وإلتباس.

يمتد المكون الانفعالي من الضحك الخالص إلى الاشمئزاز،أمّا المكون الدلالي للسخرية فيمتد من أقصى درجات الوضوح إلى أقصى درجات الغموض .

أضافت البلاغة الجديدة مكونا جديدا يتمثل في البعد الحجاجي، فالسخرية إستراتيجية يوظفها الباث للهجوم على خصومه وإدانة أقوالهم وأفعالهم،وهي تعتمد في نجاعتها على استثمار ظروف التلفظ وملابساته .

وانطلاقا من هذه الوظيفة الحجاجية، قدّم "برندونير" Berrendonner تعريفا للسخرية يجعل صلتها بالحجاج وثيقة " إذ يعتبرها تناقض قيم حجاجية فما يسمح بقيام جملة ما ساخرة عنده كونها حجّة على فرضية ما "[2] وفي هذه الحالة تلتقي حجج فرضية ما بحجج فرضية مختلفة عنها، فقولنا لفلان "إنك ذكي" في مقام سخرية تجعل القول حجة تحمل إلى نتيجة هي مناقضة تماما للنتيجة التي تفهم من ظاهر القول .

[1]-ينظر، محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 87.

[2]-سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 164.

يرى محمد العمري أنّ موضوع السخرية صار شبه مجهول في الدراسات البلاغية العربية الحديثة "وقد انعكس هذا الواقع على الدراسات النقدية التطبيقية فأتت في أكثرها انطباعية توحي بالإحساس بالظاهرة دون أن تستطيع الإمساك بخيوطها . "[1] لذلك دعا هذا الباحث البلاغي إلى فتح الموضوع أقصى ما تسمح به بنيته ليستوعب أوسع مجال انطلاقا من أبعادها التداولية وآليتها الحوارية .

ويعتبر الجاحظ من أهم البلاغيين الذين خاضوا في بلاغة السخرية، فقد تفطّن مبكرا إلى أنها آلية حجاجية يمكن استثمار بلاغتها الخاصة لإصلاح المجتمع وتأسيس القيّم، فبتوظيف أسلوب الهزل يمكن التأثير في المتلقي، وهذا صريح كلام الجاحظ في مقدمة البخلاء: "وقلتَ : اذكر لي نوادر البخلاء واحتجاج الأشحّاء، وما يجوز من ذلك في باب الهزل وما يجوز منه في باب الجدّ، لأجعل الهزل مستراحا والراحة جماما، فإنّ للجدّ كدّا يمنع من معاودته، ولا بدّ لمن التمس نفعه من مراجعته"[2].

فالهزل عند صاحب البيان والتبيين بعيد عن العبث، بل هو على العكس من ذلك وسيلة لتهذيب النفس وتجديد نشاطها، فالخطاب الساخر إذا أبدلت فيها السخافة بالجزالة فقدت تأثيرها على المتلقي.

4-2 خصائص السخرية عند الجاحظ:

كان الجاحظ في المدوّنة المدروسة يتعمد فضح البخلاء، فنسب إليهم كل ما يحطّ من مروءتهم، ولكنه أحيانا كان ينقل حججهم في الاقتصاد والادّخار،ولا يمكن أن نفهم هذا التعارض إلاّ إذا فهمنا أن السخرية عند الجاحظ تقوم على ثلاثة آليات متداخلة ومتفاعلة :

[1]- محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 84.

[2]-الجاحظ، البخلاء، ص01.

أ- الالتباس:

آلية تقوم عليها السخرية الأدبية في كتاب البخلاء، فبخلاء الجاحظ هم في مستوى عال من المعرفة، ولذلك يتسم كلامهم بالقدرة الحجاجية التي تسعى لإقناع المتلقي ولكن آراءهم كانت توجه لصالح رغباتهم النفسية. ويصرّح الجاحظ بأن عجبه في هذا الكتاب "ممن قد فطن لبخله وعرف إفراط شحه، وهو في ذلك يجاهد نفسه ويغالب طبعه، ولربما ظنّ أن قد فُطن له وعُرف ما عنده،فموّه شيئا لا يقبل التمويه ،ورقع خُرقا لا يقبل الرقع "[1].

ب- الذهول:

وهو أحد المبادئ الكبرى في تفسير السخرية، ونقصد به أن المسخور منه يقع في ذهول عن المقام فيخفق في توجيه الحجة، ففئة البخلاء تقع في مفارقة اقتران المعرفة بالغفلة كمّا حدث لأبي الهُذَيل الذي عرف بتعجبه من الدجاجة التي أهداها لمويس بن عمران، ولكنه وقع في غفلة وذهول عن توجيه الحجة في الدفاع عن بخله، فمن شدة إمساكه الشديد ظنّ أن هذه الهدية قد تقيه كلام الناس عن شحه غير أن كثرة افتخاره بها ومنّه بكثرة ذكرها جعله موضع سخرية .

ج- التوريط:

أدرك الجاحظ خصوصية بلاغة السخرية، فالساخر لا يحرص على مطابقة الخطاب للواقعة ولا للتصدي للعيوب بطريقة مباشرة، بل هو يصفق للاعوجاج ويدفع به إلى الحدّ الأقصى "إنه يعطي الكلمة للمسخور منه ولا يفتأ يحرك له رأسه بالموافقة ليستمر في بسط الحجج التي تكشف منطقه الخاص المستمد من هواه وذهله عن الواقع"[2]، ففي إلحاح أبي هُذيل على ذكر الدجاجة في القصة السابقة توريط له يظهر حرصه على الشحّ والإفراط في الاقتصاد. وقد يكون التوريط بدفع المسخور

[1]-الجاحظ، البخلاء بين التخييل والتداول، ص03.

[2]-محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 131.

منه إلى الاستعانة بالحيلة ونعني بهذه الطريقة "لجوء لجوء بعض الشخصيات في نوادر الجاحظ إلى المكر والخداع والكذب لأجل تحقيق أغراضها. "[1]

إن الرجوع إلى المدونة يجعلنا نكتشف أن الخطاب الساخر الذي تضمنته قائم على هذه الخصائص التي تمت الإشارة إليها،ونضرب مثالا على ذلك تمجيد أبي عبد الرحمن للرؤوس، فالرأس "سيد البدن، وفيه الدماغ، وهو معدن العقل، كما أن النفس هي المدركة، والعين هي باب الألوان. والنفس هي السامعة الذائقة، وإنما الأنف والأذن بابان. ولولا أن العقل في الرأس لما ذهب العقل من الضربة تصيبه، وفي الرأس الحواس الخمس"[2].

فالقارئ لهذا الكلام يتفطن بسهولة أن البرهنة – من طرف الجاحظ – على سعة المعرفة عند المتكلم مقصود لكشف سوء توظيفها، فإقناع المتلقي ببخل هذا الرجل قائم على إستراتيجية وضع المسخور منه في ذهول عن المقام، وينكشف ذلك في إيراده الحجج المناسبة وغير المناسبة، حتى أن طريقة احتجاج أبي عبد الرحمن بنبل هذا العضو– الرأس – جعله يخدم نتيجة معاكسة فكلامه يجرح الذوق ويذهب بالشهية.

ويضرب الجاحظ مثالا آخر لذهول البخيل عن موضع الحجة بسبب سيطرة الهوى عنده، فأبو عبد الرحمن يقنع ابنه بالاقتصاد قائلا : " أي بنيّ، لم صار الضبّ أطول شيء عمرا، إلاّ لأنه إنما يعيش بالنسيم؟ "[3]، فالمتلقي يكتشف التضليل الذي يمارسه البخيل في هذا المسار الحجاجي .

لا شكّ أن سخرية الجاحظ في هذه المدوّنة تنبني على انتقاد اعتقادات وسلوكات شخص أو مجموعة، ولذلك فهي تحمل حمولة حجاجية و"تعمل على سلب المسخور منه ما يمنحه مصداقية القول والفعل بتجلية تناقضه واستدعاء سلبياته ."[4]

[1]–عبد الواحد التهامي العلمي، بلاغة الهزل في نثر الجاحظ، ص 51 .

[2]–الجاحظ، البخلاء، ص107.

[3]–المصدر نفسه، ص110.

[4]–أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب، ص 23.

إن هذه العلاقة الساخرة تحكمها عناصر لسانية قائمة على المفارقة الدلالية، وأخرى سياقية يعتمد عليها المتلقي في فهم التعارض الحاصل بين الملفوظ والمرجع .

4-3 حجاجية المفارقة في سخرية الجاحظ:

اعتمد الهزل عند الجاحظ على إستراتيجية ناجعة تعتمد على استثمار التشويق والفكاهة للدفاع عن القيّم والتصدي لكل السلوكات الشاذة، ومن هذا المنطلق هزل الجاحظ في نثره بنماذج بشرية عرف عنها الادعاء والمبالغة،واختار في هذه المدوّنة المدروسة شخصية البخيل الغريبة في أقوالها وتصرفاتها، واستطاع الجاحظ في هذا الخطاب الهزلي أن يؤسس لبلاغة جديدة تعيد الاهتمام لأدب ظلّ إلى أمد بعيد على الهامش، وفي هذا دعوة صريحة للاشتغال بأدب الفكاهة والسخرية لاستثمار الفوائد الكثيرة التي يحملها، فما أكثر المواضع التي امتزج فيها الهزل والضحك بالمتعة والإفادة "ولو استعملّ الناس الدماثة في كل حال، والجدّ في كل مقال، وتركوا التسمح والتسهيل وعقدوا في كل دقيق وجليل، لكان الشر صراحا خيرا لهم، والباطل محضا أرد عليهم. ولكن لكلّ شيء قدر، ولكل حال شكل، فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه... " [1].

ركّزت نوادر الجاحظ في البخلاء على الصفات السلبية للشخصية ومخالفتها للتقاليد والأعراف والقيم المتوارثة،وسلّطت أضواءها على جوانب الغرابة والهزل، واستعانت بأسلوب المفارقة الذي يحدث التوتر الدلالي في الخطاب "وقد يحدث بدوره اختلافا ومفارقة مع ما هو موجود خارج النصّ، فتكون مفارقة في السياق بين ما هو داخل وما هو كائن خارج حدود النصّ. " [2]

[1]-الجاحظ، رسالة التربيع والتدوير ضمن رسائل الجاحظ، الجزآن الثالث والرابع، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 80.

[2]-متولي نعمان عبد السميع، المفارقة اللغوية في الدراسات الغربية والتراث العربي القديم دراسة تطبيقية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط1، 2014، ص 20.

كانت المفارقة في هذه المدوّنة قائمة على "تناقض أقوال الشخصية وسلوكها مع قيم الجماعة"[1] فالبخلاء فئة اجتماعية تجري عليها بوضوح صفة التناقض مع العالم المحيط بها "سواء تمثل هذا العالم في الشخصيات التي أحاطت بهذه الفئة في النوادر التي تصور أفعالها، أم تمثل فينا نحن القراء الذين نتقبل منطق الحكاية باعتباره معيارا للحكم . "[2]

إن ما يميز مدوّنة "البخلاء" هو أنّ الجاحظ لم يبق حياديا في نسج خيوط هذا العمل الأدبي فهولا يترك السارد يتحرك بكل حرية، بل يتدخل في تحريك الشخصيات ويشارك أحيانا في أدوار البطولة، ويمكن التمثيل على هذه الإستراتيجية الخطابية بالنادرة التي يظهر فيها محفوظ النقاش في أول الأمر كريما سخيا، يستضيف الجاحظ إلى بيته ليلا ويعده بحسن الضيافة "أين تذهب في هذا المطر والبرد، ومنزلي منزلُك، وأنتَ في ظلمة وليس معك نار، وعندي لبأ لم ير الناس مثله، وتمر ناهيك به جودة، لا تصلح إلا له "[3].

لكن سرعان ما ينكشف أمره، فيرغّب ضيفه عن الأكل والشراب ويرهبه من مغبة الطعام الدسم، وبهذا تتجلى المفارقة بين حلاوة الأقوال، والتظاهر بحفاوة الاستقبال، وبين حقائق النوايا وبواطنها، وهذه من أهم الاستراتيجيات التي كان الجاحظ يؤسس خطابه عليها لإقناع المتلقي بحقيقة البخلاء، لقد صوّرت المدوّنة " تلك الشخصيات البخيلة في جدالها، وفي تقديم المبررات المختلفة للدفاع عن سلوكها، والإدلاء بالحجج القوية في الدفاع عن مذهب البخل الذي تسميه إصلاحا واقتصادا، لكنها لا تلبث أن تكشف عن خفايا نفوسها حين تخونها حركاتها وأحاديثها فتظهر على حقيقتها ." [4]

---

[1]- سليمان الطالي، بلاغة النادرة، ص 60.

[2]-محمد مشبال، بلاغة النادرة، ص 42.

[3]-البخلاء، الجاحظ، ص123.

[4]-عبد الواحد التهامي العلمي، أنماط تلقي السرد في التراث النقدي، دراسة في أدب الجاحظ، عالم الكتب الحديث، 2015، ص75.

استثمر الجاحظ جميع الخصائص المشكّلة للخطاب الساخر، وجعلها مرتكزا في بناء المفارقة التي يحملها خطابه وكثيرا ما كان يدفع شخصياته تتورط في موقف يظهر بخلها ولكنها رغم ذلك ترفض الاعتراف، بل تسعى لتبرير سلوكاتها الغريبة والشاذة بأقوال توهم بالعقلانية ، ومن بين نوادر المدوّنة التي بنيت على هذا الموقف ما حدث لعلي الأسواري الذي استلب اللقمة من يد الأمير ولما عيب عليه ذلك، "قال: لم يكن الأمر كذلك، وكذب من قال ذلك. ولكنّا أهوينا أيدينا معا، فوقعت يدي في مقدّم الشحمة، ووقعت يده في مؤخّر الشحمة، معا. والشحم ملتبس بالأمعاء. فلمّا رفعنا أيدينا معا، كنت أنا أسرع حركة . "[1]

فالمحاجج في هذا القول يحاول إقناع الأمير بعفوية حركاته بأقوال توهم بالمنطق حتى يستر جشعه وسوء صنيعه في المؤاكلة .

وتجدر الإشارة أيضا أن شخصيات الجاحظ في البخلاء كانت تلجأ إلى **الحيلة** وذلك بانتحال الحمق أو الغفلة والبلاهة أو الحاجة والفقر لقضاء مآربها، ومن النصوص التي تصور هذا المواقف: النادرة التي لجأ فيها المرزوقي إلى الحيلة لممارسة البخل على ضيفه العراقي فأنكره وادعى أنه لا يعرفه، ولما رآه ينزع عمامته وقلنسوته ليتعرف عليه "علم المرزوقي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل. فقال : لوخرجت من جلدك لم أعرفك ! "[2].

حرص السارد على إعلام القارئ بأن النادرة فارسية المنشأ والأصل ، و ذلك ليضمن التأثير في المتلقي .

فشخصيات الجاحظ في البخلاء تستخدم الألفاظ الفارسية كما في حوار المرزوقي مع زميله العراقي، أمّا عندما تكون الشخصية من اللغويين والمتكلمين والمتفلسفين فيكون حديثها بكلام

[1]-الجاحظ، البخلاء، ص69.

[2]- المصدر نفسه، ص22.

معرب، فالنادرة تراعي لتحقيق بعدها الحجاجي خصوصية طبقتها الاجتماعية وتنقلها كما نطقت بها سواء كان لحنا أو ألفاظا عامية .

يقول الجاحظ: "يقول الجاحظ : " ولو أنّ رجلا ... ولّد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها، ثم أضافها إلى صالح بن حنين و إلى ابن النوّاء و إلى بعض البغضاء ، لعادت باردة و لصارت فاترة، فإن الفاتر شرّ من البارد "[1].

ومن النوادر التي تصور عدم التلاؤم بين الفعل والمقام ما أورده الجاحظ في نادرة "أبي مازن" الذي تظاهر بالسكر للتنصل من ضيفه "جبل" الذي لم يطلب سوى مأوى يأويه في ليلته " فلما فتح الباب وبصُر بجبل، بصُر بملك الموت . فلما رآه جَبَل واجما لا يحير كلمة، قال له:إني خفت معرّة الطائف وعجلة المستقفى فملت إليك لأبيت عندك. فتساكر أبو مازن، وأراه أن وجُومه إنما كان بسبب السكر . فخلع جوارحَه وخبل لسانه، وقال : سكران والله، أنا والله سكران. " [2]

فالبخيل وقع في المدنس لستر بخله وطرد ضيفه، واستطاع هذا التصوير اللغوي أن ينقل بصدق ما وصلت إليه هذه الجماعة الحريصة على المال والطعام، فهم " بخلاء يحتالون للبخل باللجوء إلى الفعل بدل القول "[3].

وتكون أفعالهم مولدة للإضحاك عبر الشكل والحركة،ومصدره الهيئة الخارجية للشخصية أو ما تقوم به من حركات لا تلائم الموقف الذي وجدت فيه فهي تتصرف دون وعي بتصرفات غير مألوفة مما يجعلها عرضة للتندر والسخرية كحركة – إسماعيل بن غزوان – الذي استلّ الوسادة من تحت رأس ضيفه.

[1]- الجاحظ، البخلاء، ص07

[2]– المصدر نفسه ، ص39.

[3]–محمد مشبال، بلاغة النادرة، ص27.

وقد اعتمدت المفارقة أحيانا في المدوّنة على **عدم التلاؤم** بين **المقال والمقام**، فبخرق أفق توقع المخاطب والمتلقي على حد سواء، "تفضي الأحداث إلى مآل غير متوقع يثير الضحك"[1].

ومن النوادر التي لجأت فيها شخصيات الجاحظ في البخلاء إلى هذه الآلية النادرة التالية : " كنا نفطر عند الباسياني فكان يرفع يديه قبلنا، ويستلقي على فراشه ويقول : إنّما نطعمكم لوجه الله، لا نريد منكم جزاء ولا شكورا " [2].

فالهزل هنا قائم على وضع الضيوف في وضع المخاطبين في السياق القرآني الذي أخذت منه هذه الآية وهم الفقراء واليتامى والمساكين، فالمقال مقال تصدق، والمقام مقام ضيافة،وفي هذا إحراج للضيوف .

ونستطيع أيضا أن نمثل لهذا النوع الخطابي الجالب للطرافة ما أورده الجاحظ في قوله: "وقال أبو نواس: كان معنا في السفينة —ونحن نريد بغداد — رجل من أهل خرسان، وكان من عُقلائهم وفقهائهم. فكان يأكل وحده . فقلت له :لم تأكل وحدك؟ قال : ليس عليّ في هذا الموضع مسألة. إنما المسألة على من أكل مع الجماعة، لأن ذلك هو التكلف. وأكلي وحدي هو الأصل وأكلي مع غيري زيادة في الأصل"[3].

فهذه الحادثة الطريفة تتضمن حجة غير مناسبة أوردها الفقيه الخرساني لستر بخله، فقد عمد إلى توجيه مفهومي الأصل والفرع لخدمة صالحه وهواه، فاعتبر أن الأكل المنفرد هو السلوك السويّ والأكل الجماعي هو السلوك الشاذ. ورغم أن هذه الحجة غير سارية المفعول في الواقع العملي المصاحب لهذه الواقعة إلا أنّ هذا الفقيه تمسك" بحجته المجردة التي فقدت كل فعاليتها في مقام

[1]-سليمان الطالي، بلاغة النادرة في الأدب العربي، ص 111.

[2]- الجاحظ، البخلاء، ص45.

[3]-المصدر نفسه، ص24.

اجتماعي بالمعنى الدقيق للكلمة، أي مقام السفر على ظهر السفينة وما يقتضيه من التحام المسافرين بدل انعزالهم . "[1]

ومن النوادر التي تخرق فيها شخصيات المدونة مقام الضيافة تلك النادرة التي حوّل فيها موسى بن جناح المأدبة إلى موعظة، فهذا البخيل ينصح ضيوفه بحسن المؤاكلة، بينما أحضر لهم طبقا زهيدا، فالمضيف في هذا الوضع عجز عن أداء واجبات الضيافة، فتحولت دعوته لإكرام جيرانه إلى فضيحة تظهر بخله، وحتى يتستّر عن نيته المبيتة استعان بأسلوب فخم لجأ فيه إلى مأثور الكلام وآي القرآن ومختلف التنويعات البلاغية ، واستثمر قوتها الإقناعية في مواجهة خصم وهمي، فشنّ عليه حربا لا هوادة فيها،فالبخيل في المدوّنة المدروسة ليس شحيحا بكلامه، " فهو ينفقه بسخاء، ويلقي بالمجان دروسا في الاقتصاد ويعلم مبادئ تنمية المال وتثميره " [2].

ويمكن أيضا أن نمثل على هذا النوع من المفارقة الجالبة للهزل والضحك، بقصة أبي الهذيل أستاذ الجاحظ الذي كانت دجاجته المهداة لمويس بن عمران مضرب المثل لسخرية الناس واستهزائهم منه "قال: وكيف رأيت يا أبا عمران تلك الدجاجة ؟ قال: كانت عجبا من العجب، فيقول: وتدري ما جنسها ؟ وتدري ما سنها؟ فإن الدجاجة إنما تطيب بالجنس والسنّ، وتدرى بأي شيء كنا نسمنها وفي أي مكان كنّا نعلفها؟ فلا يزال في هذا، والآخر يضحك ضحكا نعرفه نحن، ولا يعرفه أبو الهُذيل ."[3]

فكثرة تعجب أبي الهذيل من الدجاجة التي أهداها لمويس بن عمران فيه ذهول وغفلة لأنه بفعله هذا يظن في قرارة نفسه أنه يفتخر بالدجاجة التي أهداها لمويس، وأنه يظن أن ضحك الناس الذين يستمعون إليه ناتج عن تعجبهم من كرمه، غير أن الحال ليس كذلك، فالناس يسخرون من

[1]-محمد مشبال، بلاغة النادرة، ص 26.

[2]-عبد الفتاح كيليطو، الأدب والارتياب، ص26.

[3]-الجاحظ، البخلاء، ص135.

بخله، فهو أهدى الدجاجة، وبدأ يمنيها على صاحبه بكثرة ذكرها، حتى كأنه جعل منها مثلا يضرب في كل لحظة وحين دون مراعاة المقام أثناء المقال.

وهذه هي النتيجة التي نسعى إلى تأكيدها في غمار الحديث عن قصة أبي الهذيل مع مويس بن عمران والدجاجة، فالبخيل تتحكم فيه غريزة البخل، ويظل "يتوهم أنه بالحيلة قد دارى بخله وأخفاه عن الناس، بينما قد ينقلب الموقف عليه ويزداد أمره افتضاحا"[1].

ونورد مثالا آخر عن أهمية أسلوب التقابل في بناء بلاغة الهزل عند الجاحظ في هذه المدونة،ويتعلق هذا المثال بما حدث لـ " محفوظ النقاش "، بطل النادرة الآتية، التي يرويها الجاحظ نفسه، بوصفه شخصية أساس في بناء أحداثها، فبعد أن دعاه صاحبه ليبيت عنده، أحضر له جام لبأ وطبق تمر، وعوض أن يتركه يأكل فاجأه بمجموعة من الحجج التي تزهده في الأكل " يا أبا عثمان إنه لِبأ وغِلظه، وهو الليل وركوده،ثم ليلة مطر ورطوبة وأنت رجل قد طعنت في السن، ولم تزل تشكو من الفالج طرفا، ومازال الغليل يسرع إليك "[2] ولكن هذه الحيلة لم تستطع صرف الضيف عن الطعام بل أكله جميعا وما هضمه إلا الضحك والسرور، وبهذا خسر البخيل الرهان الذي كان يسعى إلى كسبه .

تسعى نصوص الجاحظ إلى خلق التأثير الوجداني في المتلقي واستدراجه لاتخاذ موقف من سلوك البخلاء وأفعالهم، ولتحقيق ذلك كان يستعين أحيانا بالمجاز الهزلي مثل تلك النادرة التي تتضمن وصية أبي عبد الرحمن لابنه يدعوه فيها إلى عدم التشبه في الشره والنهم بالأفاعي والبراذين والنعاج والجمال يقول: "ولا تنهش نهش الأفاعي ولا تخضم خضم البراذين، ولا تُدِم الأكل إدامة النعاج، ولا تلقم لقم الجمال" [3].

[1]- محمد مشبال، بلاغة النادرة، ص 45.

[2]- البخلاء، الجاحظ، ص123.

[3]-المصدر نفسه، ص109.

فرغم أن هذا البخيل يريد أن يقيم مشابهة بين المشبه والمشبه به إلا أن بينهما تنافرا وهو ما ينسجم مع بنية النادرة التي تنهض على المفارقة والتناقض لتحقق مقصديتها التي تتمثل في التهكم والهزل والإضحاك من أجل الإصلاح .

إن ملكات البخيل تابعة لهواه، فهو يسمع ويرى ما يتلاءم مع رغباته، ويصيبه الصمم والعمى عما سوى ذلك مما يوقعه في مواقف تثير الضحك، فهولا يراعي المقام، مما يضعه في موضع سخرية، وكثيرا ما تصور مدونة الجاحظ مواقف البخلاء وأفعالهم الغريبة والشاذة التي تفاجئ القارئ أو المتلقي، "فعدم التناسب بين المقام والفعل من الآليات المولدة للهزل في النوادر، حيث تخرج الشخصية الرئيسية عن الآداب العامة والمألوفة في المجتمع "[1].

ومن بين النماذج الدالة على هذا النوع من المفارقة عن طريق الإضحاك بالحركة، النادرة التي بطلها قاسم الطفيلي الجشع، فهو عند المجالسة والمؤاكلة يتصف بكثرة الأكل وكثرة الحركة و" الخبط " إلى درجة يتشابه فيها مع ابنه إبراهيم تشابها يصل حد التطابق " فكانا إذا تقابلا على خوان ثُمامة لم يكن لأحد –على أيمانهما وشمائلهما– حظّ في الطيبّات " [2].

وهذه حجة على جشع لا يضاهى،لذلك كانت تصدر منهما حركات غريبة لا تتلاءم ومقام الضيافة وآداب الطعام .

وقد يعتمد الإضحاك في بخلاء الجاحظ على سمة التعجيب وتظهر في العديد من نوادر المدونة منها نادرة ليلى الناعطية التي تثير الدهشة لدى المتلقي فهي تحتفظ بملابسها بطريقة غير عادية حيث "ما زالت ترقع قميصا لها وتلبسه، حتى صار القميص الرّقاع، وذهب القميص الأول . ورفت كساءها ولبسته، حتى صارت لا تلبس إلا الرقع وذهب جميع الكساء . "[3]

[1]– سليمان الطالي، بلاغة النادرة في الأدب العربي، ص 137.

[2]–الجاحظ، البخلاء، ص199.

[3]– المصدر نفسه، ص37.

والحقّ أنّ سمة التعجيب كثيرا ما تتضافر مع المفارقة لتكون مجالا خصبا لتوليد الضحك في المدوّنة ، فهي سمة تكوينية مهمة في الكثير من نوادره، ففيها شخصيات تصدر منها سلوكات غير مألوفة تظهر بوضوح شدة بخلها وإفراطها في الشح، ومن هذه النماذج نذكر ما نقله أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام عن الخراساني : " رأيته يقطر السمن على الخوان حتى أكثر من ذلك . فقلت لرجل إلى جنبي: ما لأبي فلان يضيع سمن القوم، ويسيء المؤاكلة، ويغرف فوق الحق ؟ قال: وما عرفت علّته ؟ قلت: لا والله . قال : الخوان خوانه، فهو يريد أن يدسمه، ليكون كالدبغ له . ولقد طلّق امرأته – وهي أم أولاده – لأنه رآها غسلت خوانا له بماء حارّ، فقال لها : هلاّ مسحته" [1].

تتجلى سمة التعجيب في غرابة استعمال السمن المقدم للضيوف، فهذا البخيل لم يرض بتناوله مع الضيوف فقط، بل قام بتقطيره على خوانه الذي هو ملك له، وهو فعل يتنافى مع مقام هذه المأدبة التي دعيّ إليها مع جيرانه، وهذا السلوك الاستغلالي الغريب متجذر في سلوك الخراساني فقد طلّق زوجته بسبب غسلها للخوان بدل الاكتفاء بمسحه، وهذه المفارقة بين النتيجة المصيرية والسبب التافه تثير سخرية وضحك القارئ، فالطرافة ازدادت قوة عند انتهاء النادرة "وذلك إشباعا لتوقعات المتلقي الجمالية، وفي الآن نفسه إمعانا في تبغيض صورة البخيل" [2].

والجاحظ لا يقصد من خلال بناء أخباره ونوادره على مكون التعجيب إلى التسلية المجردة عن أي فائدة، بل يعتبر أنّ الخطاب الإقناعي يعتمد في تحقيق مقاصده على استثمار جميع الآليات والوسائل المتاحة، وبهذا التصور لا يمكن اعتبار المزح عيبا على الإطلاق،فإذا أريد به النفع كان مكونا بلاغيا مهما في الإستراتيجية الخطابية التي تروم الإقناع "فلا الهزل باب ملحق، ولا الراحة أمر زائد، ولا الضحك موضع عيب . "[3]

[1]-الجاحظ، البخلاء، ص ص23-24.

[2]- محمد مشبال، بلاغة النادرة، ص50 .

[3]-المرجع نفسه، ص 29.

يقيم الجاحظ في بعض مواضع الخطاب الساخر على المفارقة المبنية على استعمال القياس الفاسد،ومن الأمثلة الصريحة لذلك قصة عبد الرحمن بن خلف الذي قبل دعوة أصحابه بعد طول مناورة، فاتخذ لهم طعاما شهيا ولما انتهوا من تناوله، أقبل عليهم فقال " أسألكم بالذي لا شيء أعظم منه : أنا الساعة أيسر وأغنى أو قبل أن تأكلوا طعامي ؟ قالوا : ما نشكّ أنك – حين كنت والطعام في ملكك – أغنى وأيسر. قال : فأنا الساعة أقرب إلى الفقر أم تلك الساعة ؟ قالوا : بل أنتَ الساعة أقرب إلى الفقر. قال : فمن يلومني عن دعوة قوم قرّبوني من الفقر وباعدوني من الغنى، وكلمّا دعوتهم أكثر، كنت من الفقر أقرب ومن الغنى أبعد ؟! " [1] .

فالخطاب هنا قائم على مفارقات قيمية حجاجية مقصودة تتوخى إقناع المتلقي بالبخل الشديد لعبد الرحمن بن خلف .

5- إستراتيجية الحجاج المغالط

أطلق على هذا النوع من الأساليب الحجاج المغالط وهو ما يقابل في اللغة الفرنسية مصطلح البرالوجيزم parlogisme "، ويكون فيه "قصد المغالطة حاصل من قبل المتكلم فيما يوجهه من خطابات ونصوص" [2].

وقد هاجم أرسطو هذه الظاهرة الخطابية التي اعتمد عليها السسفسطائيون لأنها تعتمد على الإيهام والمكر والخداع لإيقاع التصديق في نفوس السامعين .

وإذا عدنا إلى الترجمات العربية القديمة لهذا المصطلح،نجد أنّ بعض الفلاسفة استعمل مصطلح التضليل، وبعضهم استعمل مصطلح المغالطة كابن رشد والفرابي مثلا، والملاحظ أيضا ورود ما يقابل

[1]- الجاحظ، البخلاء، ص42.

[2]-محمد سالم الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 197.

هذا المصطلح عند حازم القرطاجني حيث أطلق على هذه الخطط التمويهات والاستدراجات معتبرا أنّ بعضها لا يدرك إلّا بالحنكة .

وبالعودة إلى مدوّنة " البخلاء " نجد أنّ البخيل كان يعتمد على هذا الاستدلال الفاسد ومن أهم صوره :

5-1-حجة السلطة

وهي حجة "تُستثمر فيها هيبة شخص أو مجموعة من الأشخاص لدفع المخاطب إلى تبنّي دعوة ما. والسلطات التي يتمّ الاستناد إليها في الحجاج متنوعة فقد تكون الإجماع أو الرأي العام تارة، وقد تكون فئات من الناس تارة أخرى كالعلماء والفلاسفة ورجال الدين والأنبياء ."[1]

يستعمل المحاجج هذه الأساليب المغالطية ليستميل عواطف الجمهور، ونجد هذا النوع من الحجاج في المدوّنة المدروسة، ومن ذلك ما ورد في قصة الثوري " إنّ القاتل والمقتول في النار، ولو سألت حذّاق الأطباء لأخبروك أنّ عامّة أهل القبور إنما ماتوا بالتخمة "[2]، وجاء هذا الكلام في سياق وصية أبي عبد الرحمن لابنه، فحتى يحذره من سرف البطنة التي تتعارض مع مذهب البخل استند في قوله على سلطة الطبيب في معرفته للأمراض التي تصيب البدن .

5-2-مغالطة فساد التعليل

وهي إستراتيجية خطابية تعتمد على " الاستدلال بدليل لا يمكن عدّه أصلا دليلا "[3]، ومن المواضع التي اعتمد عليها البخلاء في المدوّنة المدروسة على هذا الوجه المغالط في الاستدلال، قوله "أيّ بنيّ لمّ صار الضبّ أطول شيء عمرا، إلّا لأنه إنما يعيش بالنسيم "[4].

---

[1]- الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004، ص 79.

[2]- الجاحظ، البخلاء، ص 109.

[3]- مصطفى العطار، لغة التخاطب الحجاجي، ص 297.

[4]- الجاحظ، البخلاء، ص 110.

5-3-حجة التخويف

وهي حجة تعتمد على التهديد والوعيد، وكان بعض البخلاء يستعينون بها لقضاء حوائجهم، ونجد ذلك ماثلا في قصة الكندي الذي قال للساكن :"إنّ في الدار امرأة بها حمل، والوَحمى ربما أسقطت من ريح القدر الطيبة، فإذا طبختم فردّوا شهوتها ولو بغَرفة أو لَعقة، فإنّ النفس يردها اليسير. فإن لم تفعل ذلك بعد إعلامي إياك،فكفارتك إن أسقطت غرّة : عبد أو أمة، ألزمت ذلك نفسك أم أبيت "[1] ويظهر هذا القول سعي المحاجج لاستدراج السامع عن طريق التخويف .

5-4- حجة التركيب والتقسيم

تعتبر سفسطة التعميم المتسرع من أهم أشكال هذه الحجة، وفيها ينطلق المحاجج من عيّنات غير كافية لتمرير النتائج التي يريد الدفاع عنها، ونجد ذلك في وصية أبي عبد الرحمن لابنه " أيّ بنيّ،قد بلغت تسعين عاما ما نغض لي سن، ولا تحرك لي عظم،ولا انتشر لي عصب، ولا عرفت دنين أذن ولا سيلان عين ولا سلس بول،ما لذلك علة إلّا التخفيف من الزاد"[2].

فهذا البخيل ينطلق من حالته الشخصية لتأسيس قاعدة أنّ طول العمر وسلامة البدن مضمونان بالاقتصاد في الأكل .

[1]-الجاحظ، البخلاء، ص 81.

[2]-المصدر نفسه، ص ص 110-111.

خاتمة

خاتمة

أفضت هذه الدراسة إلى استخلاص أنه لا يمكن فهم الخطاب إلّا بإدراك الظروف والملابسات التي أسهمت في إنجازه، وعليه لا يمكن اعتبار النصّ بنية مغلقة، بل يجب قراءته باستثمار الأبعاد السوسيوثقافية المرتبطة بالإنتاج اللغوي،وأدى هذا المنعرج المعرفي الهام إلى تركيز الدراسات اللغوية والنقدية على سياق النصّ ومقامه، وتعتبر المقاربة التداولية من أهم المقاربات التي اهتمت بعلاقة اللغة بمستعمليها،وحاولت أن تربط النصوص بوظيفتها التواصلية .

إنّ إعادة الاعتبار للمقصدية جعل من الخطاب فعلا واعيا يتوخى التأثير في المتلقي، وهذا ما أدى إلى تطور بلاغة الإقناع التي أرسى أرسطو لبناتها الأولى، ثمّ انبعثت هذه المباحث الحجاجية من جديد تحت تسمية البلاغة الجديدة،ويعدّ كل من برلمان وتيتيكاه رائدا نظرية الحجاج الحديثة، وذلك باهتمامها بالتقنيات الحجاجية التي ترمي إلى الدفاع عن فكرة ما وحصول الاقتناع لدى المتلقي، لذلك فهي تستثمر مختلف الآليات والتقنيات اللغوية والبلاغية والمنطقية،كما كان للبحوث التداوليا الفضل في ظهور نظرية الحجاج اللساني التي تعتبر أن كل الخطابات التي تستعمل اللغة الطبيعية هي خطابات حجاجية بالضرورة، هذا ما دافع عنه ديكرو وأنسكومبر اللذان اعتبرا أن الحجاج ذو طابع لغوي داخلي .

واستنتجت من خلال البحث أنّ بلاغة الإقناع لم تكن حكرا على الفكر الغربي فقط، بل شهدت حضورا ملفتا في التراث العربي، ولعل مشروع الجاحظ القائم على الفهم والإفهام والتأثير في السامع من أهم هذه الإسهامات،ويظهر وعيه المبكر بالوظيفة الحجاجية من خلال تركيزه على المقام الخطابي .

ولكن تمّ تهميش هذا النوع من البلاغة على حساب بلاغة المحسنات على مرّ العصور في الثقافة العربية، ولم يدم هذا الوضع في هذا العصر،فظهر ثلة من البلاغيين والنقاد الذين أعادوا الاعتبار للخطاب الحجاجي، ولا يمكن في هذا الانبعاث الجديد أن نهمل دور كل من محمد العمري ومحمد مشبال في تأسيس البلاغة الجديدة في الفكر العربي المعاصر.

إنّ التركيز على الإستراتيجية الإقناعية، جعل معظم النصوص قائمة على التصوير والإقناع، وهذا ما وقفت عليه في مدونة "البخلاء"، فهو كتاب يجمع بين المتعة والفائدة، فهو يسعى، بالإضافة إلى متعة السرد والتصوير، إلى توجيه المتلقي نحو قيم الجود والسخاء، ولذلك لا يمكن قراءة هذا المؤلف الأدبي إلّا بالجمع بين الوظيفة التخييلية والوظيفة الحجاجية، فالجاحظ يستثمر بلاغة الهزل ويوظف المقومات الفنية للنادرة لإصلاح المجتمع وإقامة منظومة القيم .

لا يمكن أن ننظر إلى كتاب البخلاء بوصفه ينطوي على نوعين نثريين: أحدهما سردي وهو النوادر، والثاني حجاجي وهو الرسائل، لأن ذلك تقسيم يغفل البعد الحجاجي الكامن في السرد، وصرحّ الجاحظ بهذه الغاية الشريفة في مقدمة الكتاب، فهو تارة يهاجم البخيل بنقل أفعاله وسلوكاته الغريبة، وتارة أخرى بالبيان والحجج،لذلك عمد الجاحظ إلى إرخاء العنان لشخصياته الفنيّة التي تتميز بقدرة حجاجية عالية، ولكنّ الهوى هو من يحركها ويوجهها، فرغم أنّ معظم شخصيات المدونة تمتاز بشدة العقل واتساع المعرفة، إلا أنها لا تتكلم ولا تتصرف إلا لإرضاء هواها وحبها الشديد للمال، وهذه هي من أهم المفارقات التي تلازم البخيل،لذلك ينفر المتلقي من هذه النماذج البشرية .

اعتمد الجاحظ في كشف حيل البخلاء وحجاجهم المغالط على بلاغة مخصوصة قوامها الهزل والسخرية، فقد عبث الجاحظ بالبخلاء وسخر منهم عن طريق الإيقاع بهم ضمن إستراتيجية تجعلهم يبوحون بحالهم وقناعاتهم الغريبة، ممّا يجلب الإضحاك للمتلقي ويضاعف مقته لهم ، ولذلك لا يمكن النظر إلى السخرية عند الجاحظ إلاّ باعتبارها بعيدة عن العبث، بل هي وسيلة لإصلاح المجتمع

وشحن النفس بالقيم، لذلك ابتعدت المدونة المدروسة عن العتاب اللاذع والسباب المباشر، واتخذت من المداراة وسيلة لكشف تناقضات البخيل .

وفي الأخير نخلص أنّ بلاغة نثر الجاحظ في هذه مدونة المدروسة لا تنحصر في سمة التصوير فقط، بل تتجسد أيضا في تعدد أنواع الخطاب وأنماطه، ف "البخلاء" مصنف أدبي يجمع أجناس متنوعة من الكلام، ولذلك يمكن اعتباره نصا جامعا يستثمر كل الإمكانات البلاغية لإقناع القارئ.

ملحـــق

معجم البحث

Actes de paroles	أفعال الكلام
Argumentation	الحجاج
Compétence	الكفاية
Connecteurs argumentatifs	الروابط الحجاجية
Contexte	السياق
Contexte extra-linguistique	سياق خارج لساني
Contexte socio-Psycologique	السياق النفسي الاجتماعي
Démonstration	البرهان
Discours	الخطاب
Discours délibératif	الخطاب المشوري
Discours épidictique	الخطاب التثبيتي
Discours judiciaire	الخطاب القضائي
Echelle argumentative	السلّم الحجاجيّ
Ethos	إيتوس / صورة المتكلم عن نفسه
Exemple	المثل
Faits supposés	وقائع مفترضة
Figure	الصورة
Force argumentative	القوة الحجاجيّة

Illustration	الاستشهاد
Implication conversationnelle	**الاستلزام الحواري**
Implicites	متضمنات القول
Induction	الاستقراء
Instructions	التعليمات
Intention	القصد
Intentionnalité	القصدية
Ironie	السخرية
Opérateurs argumentatifs	العوامل الحجاجية
Orientation	التوجيه
Parlogisme	الغلط
Pathos	باتوس / عواطف
Poétique	الشعريّة
Pragmatique	التداوليّة
Pragmatique intégrée	التداوليّة المدمجة
Pré-supposition	الافتراضات المسبقة
Procédés de dissociation	طرائق الفصل
Procédés de liaison	طرائق الوصل
Réfutatif	تبكيتي
Rhétorique	الريطوريقيا
Sous-entendus	الأقوال المضمرة

Texte	النصّ
Théorie de pertinence	نظرية الملاءمة
Topi	الموضع

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم ، برواية حفص.

أولا: المصادر:

1. ابن القيم الجوزية، مفتاح السعادة، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان.
2. أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تح: عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، ط3، 2001.
3. الجاحظ، البخلاء، تح: طه الحاجري، دار المعارف، ط5 .
4. ـــــــــ، البيان والتبيين، تح: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، 2005.
5. ـــــــــ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، ط2، 1965 .
6. ـــــــــ، رسالة التربيع والتدوير ضمن رسائل الجاحظ، الجزآن الثالث والرابع، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
7. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، 2008 .
8. الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل، دار الكتب العلمية، لبنان ،1998 .
9. ـــــــــ، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار المعرفة، بيروت لبنان ، ط3 ، 2009 .
10. السكاكي، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000 .
11. سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط3 ، 1988.
12. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1991 .

13. ـــــــــــ، دلائل الإعجاز، تح: أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ط3، 1992.

14. المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992.

ثانيا: المراجع العربيّة :

1. أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، ضمن الكتاب الجماعي التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق حمو النّقّاري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

2. ـــــــــــ، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، ط1، 2010.

3. ـــــــــــ، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2006 .

4. ـــــــــــ، اللغة والمنطق مدخل نظري، مكتبة الأدب المغربي، 2014 .

5. أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط، 2006.

6. ـــــــــــ، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، 2001 .

7. ـــــــــــ، آفاق جديدة في النحو الوظيفي، سلسلة بحوث ودراسات، 1993

8. أحمد حساني ، مباحث في اللسانيات ، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994 .

9. إدريس بن خويا، البحث الدلالي عند الأصوليين، مطبعة بن سالم الأغواط، ط1، 2009.

10. إدريس جبري، سؤال البلاغة في المشروع العلمي لمحمد العمري نحو بلاغة عامة، ضمن الكتاب الجماعي: البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق محمد مشبال، منشورات دار الأمان الرباط، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف، ط1، 2014 .

11. الأزهر الزنّاد، نسيج النصّ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1 ، 1993 .

12. آمنة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2011.

13. بدوي طبانة، البيان العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1968 .

14. بسمة بلحاج رحومة الشكيلي، قراءة في بنية التفكير البلاغيّ العربيّ انطلاقا من مفهوم الخطاب، ضمن الكتاب الجماعي: مقالات في تحليل الخطاب، تقديم حمادي صمود، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة، وحدة البحث في تحليل الخطاب، 2008 .

15. بوجادي خليفة، في اللسانيات التداولية –محاولة تأسيسية في الدرس العربي القديم –، بيت الحكمة، الجزائر، 2009 .

16. جواد ختام، التداولية أصولها وامتداداتها، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2016

17. حبيب مونسي، نقد النقد المنجز العربي في النقد الأدبي، منشورات دار الأديب، 2007 .

18. حسان الباهي، اللغة والمنطق بحث في المفارقات، مكتبة الفكر الجديد، ط1، 2015 .

19. حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقيّ لبلاغة الإقناع، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2014 .

20. حسن عباس، النحو الوافي، ج 2، دار المعارف، مصر، ط3، 1966 .

21. الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان وآفاق تحليل الخطاب، ضمن الكتاب الجماعي: البلاغة وتحليل الخطاب، إعداد وتنسيق: محمد مشبال، دار الأمان، الرباط، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف، ط1، 2014 .

22. ـــــــــ، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004.

23. حسين خمري، نظرية النص، منشورات الإختلاف، ط1، 2007 .

24. حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة) منشورات الجامعة التونسية، 1981.

25. ـــــــــ، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن الكتاب الجماعي: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمّادي صمّود،كلية الآداب، منوبة تونس.

26. رابح بوحوش، اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري، دار العلوم للنشر والتوزيع، 2006 .

27. سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، ط2، 2011 .

28. سعد عبد العزيز مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، عالم الكتب القاهرة، ط1، 2006.

29. سعيد بنكراد ، السميائيات والتأويل: مدخل لسميائيات ش – س – بورس، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005 .

30. سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتجليات، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2006 .

31. ـــــــــ، الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار لبيضاء، ط1، 1997.

32. ـــــــــ، انفتاح النص الروائي النصّ والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2001.

33. سليمان الطالي، بلاغة النادرة، دار كنوز المعرفة، ط1، 2015.

34. شكري المبخوت، الحجاج في اللغة، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس.

35. صابر الحباشة، لسانيات الخطاب الأسلوبية التلفظ والتداولية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2010 .

36. ـــــــــ، مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية، دار صفحات للدراسات والنشر، سوريا، ط1، 2011 .

37. صالح دريسي، المبادلات السياقية في كتاب "البرهان في علوم القرآن " للزركشي، منشورات مخبر تحليل الخطاب، 2012.

38. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص ، عالم المعرفة ، 1992 .

39. طه عبد الرحمن ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1998 .

40. ـــــــــ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000 .

41. ـــــــــ، التواصل والحجاج، سلسلة الدروس الإفتتاحية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أغادير، 1993 .

42. عبد الحليم بن عيسى، البنية التركيبية للحدث اللساني، البنية التركيبية للحدث اللساني، منشورات مختبر اللغة العربية والاتصال، جامعة وهران.

43. عبد الحميد السيد، دراسات في اللسانيات العربية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2004 .

44. عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير: مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، المغرب، 2007 .

45. عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، دار كنوز المعرفة، ط1، 2016.

46. عبد الفتاح البركاوي، دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الكتب، القاهرة، 1991 .

47. عبد الفتاح كيليطو، الأدب والارتياب، دار توبقال للنشر، ط1، 2007 .

48. ـــــــــــ، الأدب والغرابة: دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، ط3، 2006.

49. عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، ط 1، 2013.

50. عبد الله البهلول، في بلاغة الخطاب الأدبي بحث في سياسة القول في نصّوصّ من الأدب العربيّ القديم، قرطاج للنشر والتوزيع، ط1، 2007.

51. عبد الله صولة، الحجاج :أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال «مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة» لبرلمان وتيتيكاه، ضمن الكتاب الجماعي أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة تونس.

52. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي بيروت لبنان، ط2، 2007 .

53. ـــــــــــ، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، ط1، 2011 .

54. عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومه، الجزائر، 2004.

55. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004 .

56. عبد الواحد التهامي العلمي، أنماط تلقي السرد في التراث النقدي، دراسة في أدب الجاحظ، عالم الكتب الحديث، 2015 .

57. عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين، تونس، ط1، 2011.

58. علي الشبعان، الحِجاج والحَقيقة وآفاق التأويل، دار الكتاب الجدي المتحدة، ط1، 2010.

59. علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء، ط1، 2000.

60. علي محمود حجي الصرّاف، في البراجماتية: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2010 .

61. عمر معراجي، النص بين الدلالة والتداول، منشورات دار القدس العربي، 2011 .

62. العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، منشورات الاختلاف، ط1، 2011 .

63. عيد بلبع، السياق وتوجيه دلالة النص، بلنسرية للنشر والتوزيع، ط1، 2008 .

64. فاطمة الشيدي، المعنى خارج النص: أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب، دار نينوى، دمشق، 2011.

65. فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، دار الفرقان الأردن، ط 8، 1997.

66. قالط بن حجي العنزي، المفاهيم التداولية في تعريف الجاحظ للصناعة الخطابية في البيان والتبيين، ضمن الكتاب الجماعي: التداولية ظلال المفهوم وآفاقه، إشراف وتحرير: حسن خميس الملخ، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط 1، 2015 .

67. كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، دار الثقافة العربية ، ط2 ، 1994.

68. كورنيليا فون راد صكوحي، لسانيات النص أو: "لسانيات ما بعد الجملة وما بعد الخطاب، ضمن الكتاب الجماعي: مقالات في تحليل الخطاب، تقديم: حمادي صمود، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة، وحدة البحث في تحليل الخطاب، 2008.

69. لحويدق عبد العزيز، الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010.

70. متولي نعمان عبد السميع، المفارقة اللغوية في الدراسات الغربية والتراث العربي القديم دراسة تطبيقية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط1، 2014.

71. محسن الزكي، الحجاج والتداول في البلاغة العربية القديمة عند محمد العمري، ضمن الكتاب الجماعي: البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق: محمد مشبال، منشورات دار الأمان، الرباط ، ومنشورات الاختلاف الجزائر، ومنشورات ضفاف، ط1، 2014 .

72. محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، 2005 .

73. ـــــــــ، في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري لدراسة الخطابة العربية– الخطابة في القرن الأول نموذجا، أفريقيا الشرق، 2002. البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1999

74. ـــــــــ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1999

75. محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، منشورات دار الأمان، الرباط المغرب، ط1، 2005.

76. محمد اليملاحي، أسئلة الفكر البلاغي في المغرب مقاربة لمشروع محمد العمري، ضمن الكتاب الجماعي: البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق: محمد مشبال منشورات دار الأمان الرباط، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف، ط1، 2014

77. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008.

78. محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الناشر للثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2005 .

79. محمد عبد الباسط عير، النص والخطاب (قراءة في علوم القرآن)، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2009.

80. محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، ضمن الكتاب الجماعي أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمّود،كلية الآداب منوبة، تونس .

81. محمد محمد يونس علي، علم التخاطب الإسلامي، دار المدار الإسلامي، ط1، 2006 .

82. ـــــــــ، المعنى وظلال المعنى، دار المدار الإسلامي، ط2 ، 2007 .

83. ـــــــــ، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004

84. محمد مشبال، البلاغة العربية وإستراتيجية الإيتوس في النص القرآني، ضمن الكتاب الجماعي: بلاغة الخطاب الديني، إعداد وتنسيق محمد مشبال، منشورات الإختلاف، ط1، 2015

85. ـــــــــ، البلاغة والسرد: جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب، د.ط، 2010 .

86. ـــــــــ، الحجاج والتأويل في النص السردي عند الجاحظ، نادي قصيم الأدبي ودار محمد علي للنشر، ط1، 2015 .

87. ـــــــــ، بلاغة النادرة، دار جسور للطباعة والنشر والتوزيع، المغرب، ط2،2001 .

88. ـــــــــ، بلاغة صور الأسلوب وآفاق تحليل الخطاب، ضمن الكتاب الجماعي: البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق محمد مشبال، منشورات دار الأمان، الرباط، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف، ط1، 2014.

89. محمد مفتاح، التشابه والإختلاف (نحو منهجية شمولية)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1996 .

90. ـــــــــ، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، ط3، 1992.

91. ـــــــــ، دينامية النص تنظير وإنجاز ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2، 1990.

92. ـــــــــ، في سيمياء الشعر القديم، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1989.

93. محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، أفريقيا الشرق، 2010.

94. محمود السّعران، علم اللغة –مقدمة للقارئ العربي– دار النهضة العربية .

95. محمود عكاشة، النظرية البرجماتية اللسانية، مكتبة الآداب القاهرة، ط1، 2013 .

96. مخزومي المهدي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1986.

97. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة «الأفعال الكلاميّة»، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005 .

98. ـــــــــ، في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، ضمن الكتاب الجماعي التداوليات علم استعمال اللغة، تنسيق وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، ط2، 2014 .

99. مصطفى العطار، لغة التخاطب الحجاجي، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2017 .

100. منقور عبد الجليل، النص والتأويل ،ديوان المطبوعات الجامعية ، 2010.

101. المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى دراسة أسلوبية، أكاديمية الفكر الجماهيري، ليبيا، 2011 .

102. مولاي علي بوخاتم، مصطلحات النقد العربي السمياوي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ، 2005.

103. نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط1، 2009 .

104. هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن الكتاب الجماعي : أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمّادي صمّود،كلية الآداب، منوبة تونس.

105. هشام مشبال، بلاغة الخبر تقاطع التخييلي والتداولي في أخبار "الإمتاع والمؤانسة"، ضمن كتاب البلاغة والخطاب، دار الأمان، الرباط، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف، ط1، 2014.

106. يوسف أبو العدوس، الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع عمان، ط1، 1997.

ثالثا: المصادر والمراجع المترجمة :

1. أ.مولز – ك . زيلتمان – ك . أوريكيوني، في التداولية المعاصرة والتواصل- فصول مختارة -، ترجمة وتعليق: محمد نظيف، أفريقيا الشرق المغرب، 2014 .

2. أرسطو طاليس: الخطابة، تر: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم لبنان، 1979.

3. آن روبول وجاك مرشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،لبنان، ط1، 2003 .

4. أوزوالد ديكرو وجان ماري سشاييفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي.

5. أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق ،1991 .

6. باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، تر: أحمد الودرني، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، 2009.

7. باتريك شارودو و دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، المركز الثقافي للترجمة، دار سيناترا، تونس، 2008 .

8. براون ويول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، النشر العلمي والمطابع جامعة الملك سعود، السعودية،1997.

9. بيير بورديو، الرمز والسلطة، ترجمة: عبد السلام بن عب العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2، 1990.

10. جاك موشلر وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010

11. فان ديك، النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، من نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة: محمد العمري، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د.ط، 1997.

12. فان ديك، النص والسياق، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، 2000 .

13. فرانسوا راستي، فنون النص وعلومه، ترجمة: إدريس الخطاب، دار توبقال للنشر المغرب، ط1، 2010.

14. فيليب بروتون وجيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، ط1، 2011 .

15. فيليب بلانشييه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط1، 2007 .

16. ماري نوال غاري بريور، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات ، ترجمة عبد القادر فهيم الشيباني، ط1 2007.

17. مانجينو دومينيك، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008 .

18. ميشال فوكو، حفريات المعرفة، تر: سالم يغوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 2، 1987.

19. هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، تر: محمد العمري، أفريقيا الشرق، 1999 .

رابعا: المصادر والمراجع الأجنبية

1. Chaim Perelman et Lucie Olberchts-Tytica, Traité de l'argumentation – La nouvelle rhétorique, préface de Michel Meyer – 5ème ed, Edition de l'université de Bruxelles, 1992 .
2. Ducrot (O) et Anscombre (J .C), l'argumentation dans la langue, éd Mardaga, 1997.
3. Ducrot .o, Dire et ne pas dire, Hermann éditeur, 3ème édition, Paris , 2003.
4. Ducrot Oswald, les échelles argumentatives, Edition de minuit, Paris, 1980.
5. JEAN Dubois et autres, dictionnaire de linguistique, Larousse – Paris, 1 édition, 1994.
6. Jean Michel Adam, Linguistique textuelle, Des genres de discours aux textes, NATHAN.
7. Maingneau, Initiation aux méthodes de l'analyse de discours, Hachette université, Paris, 1976 .

خامسا: القواميس والمعاجم

1. ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1955

2. جميل صلبيا، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ج 1، 1994.

3. رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السميائي للنصوص (عربي، انجليزي، فرنسي)، دار الحكمة، د.ط ، 2000.

سادسا: الرسائل الجامعية

- عقيلة بعيرة، بنية الخطاب السردي في بخلاء الجاحظ، جامعة الحاج لخظر باتنة، 2011-2012، مخطوط رسالة ماجستير.

سابعا: المجلات والمقالات

1. ابتسام بن خراف، تلقي النص البلاغي عند الدكتور محمد العمري، مجلة قراءات، جامعة بسكرة، العدد الخامس 2013 .
2. باديس لهويمل، السياق ومقتضى الحال في مفتاح العلوم –مقاربة تداولية–، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة الجزائر، العدد التاسع، 2013 .
3. بلقاسم دفة، إستراتيجية الخطاب الحجاجي – دراسة تداولية في الإرسالية الإشهارية العربية، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، العدد العاشر، 2014 .
4. بول ريكور، البلاغة والشعرية والهيرمينوطيقا، ترجمة: مصطفى النحال، مجلة فكر ونقد، العدد 16، فبراير، 1999 .
5. الحواس مسعودي، النصوص الحجاجية، مجلة اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر، العدد 14، ديسمبر 1999 .
6. الراضي رشيد، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلد 4-5 يوليو-سبتمبر 2005.
7. سالم عباس خدادة، النقد والسياق، مجلة العلوم الإنسانية، ع 2، جامعة البحرين، 1999.
8. صابر الحباشة، الحجاج في التداولية: مدخل إلى الخطاب البلاغي، مجلة ثقافات، كلية الآداب بجامعة البحرين، 2011 .

9. عبد الجليل هنوش، ابن طباطبا العلوي والتصور التداولي للشعر، ضمن حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية جامعة الكويت، الحولية الحادية والعشرون، 2001

10. عبد الرحمن العبدان وراشد درويش، استراتيجيات تعلم اللغة العربية بوصفها لغة ثانية، مجلة أم القرى، العدد 16، 1997 .

11. عبد الرحمن بودرع، نظرية تحليل النص من خلال الأصول اللسانية، مجلة الموقف، المغرب، العدد 05، 1988.

12. عبد الواحد التهامي، بلاغة الهزل في نثر الجاحظ، مجلة جذور السعودية، رقم29، أكتوبر 2009 .

13. فيصل مفتن كاظم، التداولية في النحو العربي، مجلة أبحاث ميسان، المجلد الثاني، العدد الرابع، 2006.

14. قالط العنزي، المفاهيم الحجاجية والتداولية في تعريف الصناعة الخطابية في البيان والتبيين للجاحظ، مجلة جذور السعودية، العدد 38، أكتوبر 2014 .

15. قالط، فن الإضحاك في بخلاء الجاحظ : مقاربة تداولية، مجلة البلاغة والنقد الأدبي، العدد رقم 02، خريف / شتاء 2014-2015.

16. محمد العبد، النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع، مجلة الفصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، العدد 60، 2002 .

17. محمد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة دراسات سميائية أدبية لسانية، العدد رقم05، ديسمبر 1991.

18. محمد حمودي، الحجاج وإستراتيجية الإقناع عند طه عبد الرحمن مقاربة أبستمولوجية، مجلة حوليات التراث، العدد 12، 2012 .

19. محمد يحياتن، تحليل الخطاب من خلال نظرية الحديث والتلفظ، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، عدد 14، ديسمبر 1999.

20. مصطفى الغرافي، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، عالم الفكر، العدد 1 المجلد 40، يوليو– سبتمبر 2011.

21. هيثم سرحان، الخطاب الحجاجي في شعر بشار بن برد، مجلة جامعة أم القرى، العدد 11، نوفمبر 2013.

22. يحي أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، مجلة عالم الفكر، م 20، ع 3، 1989.

23. يمينة ثابتي، الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي، مجلة الخطاب، دار الأمل الجزائر، ع 2، 2006 .

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

كلمة شكر

إهداء

مقدمة..... أ

الفصل الأول: الخطاب: المفهوم والاستراتيجيات 1

أولا: مفهوم الخطاب. 2

1- الخطاب من المنظور الغربي..... 2

2- الخطاب من المنظور العربي..... 5

3- الخطاب والنّصّ..... 8

4- السياق والخطاب..... 12

4-1 - تعريف السياق..... 12

4-2- السياق في الثقافة الغربية..... 16

4-3 السياق في الثقافة العربية..... 21

4-4 أنواع السياق..... 28

ثانيا:التداولية والخطاب..... 33

1- تعريف التداولية..... 33

2- مفاهيمها..... 35

2-1- نظرية أفعال الكلام..... 36

2-2- نظرية الملاءمة..... 37

2-3- مبدأ القصدية..... 37

2-4- الاستلزام الحواري..... 38

2-5- متضمنات القول..... 38

2-6-أفعال الكلام..... 39
3- الخطاب بين التخييل والتداول..... 43
ثالثا: ماهية استراتيجيات الخطاب وأنواعها..... 48
1- مفهوم الإستراتيجية..... 48
2-ماهية إستراتيجية الخطاب..... 49
3- معايير تصنيفها..... 52
4- أنواع الاستراتيجيات..... 55
4-1 إستراتيجية الإقناع..... 55
4-2 الإستراتيجية التضامنية..... 59
4-3 الإستراتيجية التوجيهية..... 61
4-4 الإستراتيجية التلميحية..... 63
67
الفصل الثاني: الحجاج : مقاربة نظرية
أولا: ماهية الحجاج..... 68
1-الدلالة اللغوية للحجاج..... 68
2- الحجاج في الاصطلاح..... 69
3-أصناف الحجاج..... 75
3-1 الحجاج التجريدي..... 75
3-2 الحجاج التوجيهي..... 75
3-3 الحجاج التقويمي..... 76
4- علاقة الحجاج بمجاله المفهومي..... 76
4-1-الحجاج والجدل..... 77
4-2-الحجاج والبرهان..... 78
4-3-الحجاج والتواصل..... 81

4-4-الحجاج والإقناع..... 82
ثانيا : الحجاج في الفكر الغربي..... 85
1-أرسطو 85
2- بيرلمان و تيتيكاه..... 93
2-1-مقدمات الحجاج..... 94
2-2-تقنيات الحجاج..... 98
3-ديكرو و أنسكومبر..... 103
3-1- السلم الحجاجي..... 106
3-2- المؤشرات الحجاجية..... 110
4-ميشال مايير..... 111
ثالثا : الحجاج في الفكر العربي..... 115
1-بلاغة الإقناع عند الجاحظ..... 115
2- الحجاج والخطاب عند محمد العمري..... 121
3-الحجاج عند طه عبد الرحمن..... 129
4- اللغة و الحجاج عند أبي بكر العزاوي..... 132
الفصل الثالث: تجليات الخطاب الإقناعي في " بخلاء الجاحظ " 137
أولا: التعريف بالمدوّنة..... 138
ثانيا: الحجاج والسرد في "بخلاء" الجاحظ..... 141
1- السرد والخبر..... 141
2- حجاجية النص السردي عند الجاحظ..... 143
ثالثا : آليات الإقناع في "بخلاء" الجاحظ. 152
1-التقنيات اللغوية..... 152

1-1-ألفاظ التعليل..... 152
1-2- التأكيدات الأسلوبية..... 157
1-3-الأفعال الكلامية..... 159
2- السلم الحجاجي..... 167
2-1- وسائل السّلم الحجاجي..... 170
3- الوسائل البلاغية..... 181
3-1- التشبيه..... 183
3-2-الاستعارة..... 185
3-3-البديع..... 187
4- السخرية آلية حجاجية..... 189
4-1 تحديد مصطلح السخرية..... 189
4-2 خصائص السخرية عند الجاحظ..... 191
4-3 حجاجية المفارقة في سخرية الجاحظ..... 194
5- إستراتيجية الحجاج المغالط..... 203
5-1-حجة السلطة..... 204
5-2-مغالطة فساد التعليل..... 204
5-3-حجة التخويف..... 205
5-4- حجة التركيب والتقسيم..... 205
خاتمة..... 207
ملحق..... 211
قائمة المصادر والمراجع..... 215
فهرس المحتويات..... 232